

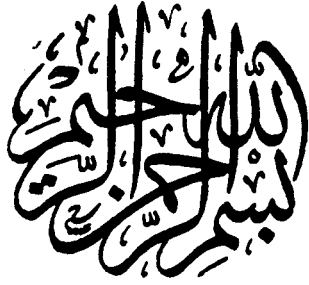
① التفسير

المجموعة الكاملة لمؤلفات
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رَحْمَةُ اللَّهِ

تيسير الكريم الرحمن
في
تفسير كلام المنان

الجزء الثاني
من تفسير سورة النساء والمائدة والأنعام

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا .

من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

① التفسير

المجموعه الكامله لمؤلفات
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

تيسير الكريم الرحمن
في
تفسير كلام المنان

الجزء الثاني
من تفسير سورة النساء والمائدة والأنعام

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا .

من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

تفسير

سُورَةُ النِّسَاءِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً

* افتتح تعالى هذه السورة ، بالأمر بتقواه ، والحث على عبادته ، والأمر
بصلة الأرحام ، والحث على ذلك .

وبين السبب الداعي ، الموجب لكل من ذلك ، وأن الموجب لتقواه
أنه [ربكم الذي خلقكم] ورزقكم ، ورباكم بنعمه العظيمة ، التي من جلتها
خلقكم [من نفس واحدة وخلق منها زوجها] ليناسبها ، فيسكن إليها ،
وتتم بذلك النعمة ، ويحصل به السرور .

وكذلك ، من الموجب الداعي لتقواه ، تساؤلكم به ، وتعظيمكم .
حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم ، توصلتم بها ، بالسؤال .
فيقول من يريد ذلك لغيره : أسألك بالله ، أن تفعل الأمر الفلاني .
لعله بما قام في قلبه ، من تعظيم الله الداعي ، أن لا يرد من سأله بالله .
فكما عظمتوه بذلك ، فلتعظموه بعبادته وتقواه .

وكذلك الإخبار بأنه رقيب ، أي : مطلع على العباد ، في حال حركاتهم
وسكونهم ، وسرهم وعلنهم ، وجميع الأحوال ، مراقباً لهم فيها ، مما يوجب
مراقبته ، وشدة الحياء منه ، بلزوم تقواه .

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ

رَقِيبًا ﴿١﴾

وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة ، وأنه بهم في أقطار الأرض ، مع رجوعهم إلى أصل واحد — ليعطف بعضهم على بعض ، ويرقق بعضهم على بعض .

وقرن الأمر بتقواه ، بالأمر ببر الأرحام ، والنهي عن قطعها ، ليؤكد هذا الحق .

وأنه كما يلزم القيام بحق الله ، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق ، خصوصاً الأقربين منهم ، بل القيام بحقوقهم ، هو من حق الله الذي أمر به .
وتأمل كيف افتتح هذه السورة ، بالأمر بالتقوى ، وصلة الأرحام والأزواج عموماً .

ثم بعد ذلك ، فصل هذه الأمور أتم تفصيل ، من أول السورة إلى آخرها . فكانها مبنية على هذه الأمور المذكورة ، مفصلة لما أجل منها ، موضحة لما أبهم .

وفي قوله [وجعل منها زوجها] تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به ، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج .

فبينهم وبينهن ، أقرب نسب ، وأشد اتصال وأوثق علاقة .

وقوله تعالى : [وآتوا اليتامى أموالهم] الآية .

﴿٢﴾ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ
بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا
كَبِيرًا ﴿٢﴾

* هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة .
وهم اليتامى ، الذين فقدوا آباءهم ، الكافلين لهم ، وهم صغار ضاعف ،
لا يقومون بمصالحهم .
فأمر الرؤوف الرحيم عباده ، أن يحسنوا إليهم ، وأن لا يقربوا
أموالهم إلا بالتي هي أحسن ، وأن يؤتوهم أموالهم ، إذا بلغوا ، ورشدوا ،
كاملة موفرة .

وأن لا [تتبدلوا الخبيث] الذى هو أكل مال اليتيم بغير حق .
[بالطيب] وهو الحلال ، الذى ما فيه حرج ولا تبعة .
[ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم] أى : مع أموالكم .
ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم ، بهذه الحالة ، التى هى قد استغنى بها
الإنسان ، بما جعل الله له ، من الرزق فى ماله .
فمن تجرأ على هذه الحالة ، فقد أتى [حوباً كبيراً] أى : إثمًا عظيمًا ،
ووزراً جسيماً .

ومن استبدال الخبيث بالطيب ، أن يأخذ الولي ، من مال اليتيم ، النفيس ،
ويجعل بدله من ماله ، الخسيس .

وفيه الولاية على اليتيم ، لأن من لازم إبقاء اليتيم ماله ، ثبوت ولاية
المؤتى على ماله .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنًا أَلَّا تَعْمَلُوا ﴾ (٣)

وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم ، لأن تمام إيتائه ماله ، حفظه ، والقيام به بما يصلحه وينميه ، وعدم تعريضه للخواف والأخطار .

* أى : وإن خفتم ألا تعدلوا فى يتامى النساء ، التى تحت حجوركم وولايتمكم ، وخفتم أن لا تقوموا بحقهن ، لعدم محبتكم إياهن — فاعدلوا إلى غيرهن ، وانكحوا [ما طاب لركم من النساء] أى : ما وقع عليهن اختياركم ، من ذوات الدين ، والمال ، والجمال ، والحسب ، والنسب ، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن ، فاختراروا على نظركم .

ومن أحسن ما يختار من ذلك ، صفة الدين كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولجمالها ، ولحسبها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يمينك » .

وفى هذه الآية — أنه ينبغى للإنسان ، أن يختار قبل النكاح .

بل قد أباح له الشارع ، النظر إلى من يريد تزوجها ، ليكون على بصيرة من أمره .

ثم ذكر العدد الذى أباحه من النساء فقال :

[مثنى وثلاث ورباع] أى : من أحب أن يأخذ اثنتين فليفعل ، أو ثلاثاً فليفعل ، أو أربعاً فليفعل ، ولا يزيد عليها ، لأن الآية سقت لبيان الامتنان .

وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا
فَكُلُّوهُ هَنِيئًا مَرَّيَا ﴿٤﴾

فلا يجوز الزيادة على غير ما سمي الله تعالى إجماعاً .
وذلك لأن الرجل قد لا تدفع شهوته بالواحدة ، فأبيح له واحدة بعد
واحدة ، حتى تبلغ أربعاً ، لأن في الأربع ، غنية لكل أحد ، إلا ما ندر .
ومع هذا ، فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم ، ووثق
بالتقيام بحقوقهن .

فإن خاف شيئاً من هذا ، فليقتصر على واحدة ، أو على ملك يمينه .
فإنه لا يجب عليه القسم ، في ملك اليمين .
[ذلك] أى : الاقتصار على واحدة ، أو ما ملكت اليمين [أدنى
أن لا تمولوا] أى : تظلموا .

وفي هذا ، إن تعرض العبد للأمر الذى يخاف منه الجور والظلم ،
وعدم القيام بالواجب — ولو كان مباحاً — أنه لا ينبغي له أن يتعرض له ،
بل يلزم السعة والعافية ، فإن العافية خير ما أعطى العبد .

ولما كان كثير من الناس ، يظلمون النساء ، ويهضمون حقوقهن —
خصوصاً الصداق ، الذى يكون شيئاً كثيراً ، ودفعة واحدة ، يشق دفعه
للزوجة — أمرهم وحثهم على إيتاء النساء [صدقاتهن] أى : مهورهن
[نحلة] أى : عن طيب نفس ، وحال طمأنينة ، فلا تملطوهن ، أو تبخسوا
منه شيئاً .

وفيه : أن المهر يدفع إلى المرأة ، إذا كانت مكلفة ، وأنها تملكه
بالعقد ، لأنه أضافه إليها ، والإضافة تقتضى التمليك .

[فإن طبن لكم عن شيء منه [أى : من الصداق] نفساً] بأن سمحن لكم عن رضا واختيار ، بإسقاط شيء منه ، أو تأخيره أو المعاوضة عنه .

[فكلوه هنيئاً مريئاً] أى : لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعه .

وفيه دليل على أن للمرأة ، التصرف في مالها — ولو بالتبرع — إذا كانت رشيدة ، فإن لم تكن كذلك ، فليس لعطيتها حكم .

وأنه ليس لوليها من الصداق شيء ، غير ما طابت به .

وفى قوله [فأنكحوا ما طاب لكم من النساء] دليل على أن نكاح الخبيثة ، غير مأمور به ، بل منهى عنه ، كالمشركة ، وكالفاجرة ، كما قال تعالى : [ولا تنكحوا المشركت حتى يؤمنن] وقال [الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك] .

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ ﴿٥﴾

* السفهاء ، جمع « سفیه » وهو : من لا يحسن التصرف في المال .
إما لعدم عقله ، كالمجنون والمعتوه ، ونحوهما .
وإما لعدم رشده ، كالصغير وغير الرشيد .
فنهى الله الأولياء ، أن يؤتوا هؤلاء أموالهم ، خشية إفسادها وإتلافها .
لأن الله جعل الأموال ، قياماً لعباده ، في مصالح دينهم ودنياهم .
وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها .
فأمر الله الولي أن لا يؤتيم إياها بل يرزقهم منها ، ويكسومهم ،
ويبدل منها ، ما يتعلق بضرورتهم وحاجاتهم الدينية والدينيوية ، وأن
يقولوا لهم قولاً معروفاً ، بأن يعدوهم — إذا طلبوها — أنهم سيدفعونها
لهم بعد رشدهم ، ونحو ذلك ، ويأطفوا لهم في الأقوال ، جبراً لخواطهم .
وفي إضافته تعالى ، الأموال إلى الأولياء ، إشارة إلى أنه يجب عليهم
أن يعملوا في أموال السفهاء ، ما يفعلونه في أموالهم ، من الحفظ ، والتصرف ،
وعدم التعرض للأخطار .

وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه ، في مالهم ، إذا
كان لهم مال ، لقوله [وارزقوهم فيها واكسوهم] .
وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه ، في النفقة
الممكنة ، والكسوة .

لأن الله جعله مؤتمناً على مالهم ، فلزم قبول قول الأمين .

﴿٦﴾ وَأُتْبِلُوا أَلْيَمَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ
مِّنْهُمْ رُّشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا
أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ
بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللهِ
حَسِيبًا ﴿٦﴾

* الابتلاء هو : الاختبار والامتحان .

وذلك بأن يدفع لليتم المتقارب للرشد ، الممكن رشده ، شيئاً من ماله ،
ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله ، فيتبين بذلك رشده من سفهه .

فإن استمر غير محسن للتصرف ، لم يدفع إليه ماله ، بل هو باق على
سفهه ، ولو بلغ عمراً كثيراً .

فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح [فادفعوا إليهم أموالهم]
كاملة موفرة .

[ولا تأكلوها إسرافاً] أى مجاوزة للحد الحلال الذى أباحه الله لكم ،
من أموالكم إلى الحرام الذى حرمه الله عليكم من أموالهم .

[وبداراً أن يكبروا] أى : ولا تأكلوها ، فى حال صغرهم ، التى
لا يمكنهم فيها أخذها منكم ، ولا منعكم من أكلها ، تبادلون بذلك
أن يكبروا ، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها .

وهذا من الأمور الواقعة ، من كثير من الأولياء ، الذين ليس عندهم
خوف من الله ، ولا رحمة ومحبة للولى عليهم .

يرون هذه الحال ، حال فرصة ، فيفتنمونها ، ويتمجلون ما حرم الله عليهم .
فنهى الله تعالى ، عن هذه الحالة بخصوصها .

﴿٧﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ

نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا

مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴿٧﴾

* كان العرب في الجاهلية — من جبروتهم^(١) وقسوتهم ، لا يورثون الضعفاء ، كالنساء والصبيان ، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء . لأنهم — بزعمهم — أهل الحرب والقتال ، والنهب والسلب . فأراد الرب الرحيم الحكيم ، أن يشرع لعباده شرعاً ، يستوى فيه رجالهم ونساؤهم ، وأقويأؤهم وضعفاؤهم . وقدم بين يدي ذلك ، أمراً مجملاً ، لتتوطن على ذلك النفوس . فيأتي التفصيل بعد الإجمال ، قد تشوفت له النفوس ، وزالت الوحشة ، التي منشأها ، العادات القبيحة فقال :

[للرجال نصيب] أى : قسط وحصّة [مما ترك] أى : خلف [الوالدان] أى : الأب والأم [والأقربون] عموماً بعد خصوص [وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون] .

فكأنه قيل : هل ذلك النصيب ، راجع إلى العرف والعادة ، وأن يرضخوا لهم ما يشاءون ؟ أو شيئاً مقدراً ؟

فقال تعالى [نصيباً مفروضاً] أى : قدره العليم الحكيم . وسيأتى — إن شاء الله — تقدير ذلك .

(١) في الأصل (جبريتهم) وهو غير سائغ لغمّة، ولذا أبدلناها بـ (جبروتهم).

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ ﴾

فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴿﴾

وأيضاً ، فهنا توهم آخر ، لعل أحداً يتوهم أن النساء والوالدين ، ليس لهم نصيب ، إلا من المال الكثير ، فأزال ذلك بقوله ، [مما قل منه أو كثر] فتبارك الله أحسن الحاكمين .

* وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة ، الجارية للقلوب فقال :

[وإذا حضر القسمة] أى : قسمة الموارث [أولوا القربى] أى : الأقارب غير الوارثين ، بقرينة قوله [القسمة] لأن الوارثين من المقسوم عليهم .
و [اليتامى والمسكين] أى : المستحقون من الفقراء .

[فارزقوهم منه] أى : أعطوهم ما تيسر من هذا المال ، الذى جاءكم بغير كد ولا تعب ، ولا عناء ، ولا نصب ، فإن نفوسهم متشوقة إليه ، وقلوبهم متطلعة .

فاجبروا خواطرهم ، بما لا يضركم ، وهو نافعهم .

ويؤخذ من المعنى ، أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدى الإنسان ، ينبغى له أن يعطيه منه ، ما تيسر كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

« إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه ، فليجلسه معه ، فإن لم يجلسه معه ، فليناوله لقمه أو لقمتين » أو كما قال :

وكان الصحابة رضى الله عنهم - إذا بدأت باكورة أشجارهم - أتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبَرَكَ عليها ، ونظر إلى أصغر وليد

وَيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا
خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهِمْ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ
سَعِيرًا ﴿١٠﴾

عنده ، فأعطاه ذلك ، علماً منه بشدة تشوفه إلى ذلك ، وهذا كله ، مع
إمكان الإعطاء .

فإن لم يمكن ذلك — لكونه حق سفهاء ، أو ثم أهم من ذلك —
فليقولوا لهم [قولاً معروفاً] يردونهم رداً جميلاً ، بقول حسن ، غير فاحش ،
ولا قبيح .

* قيل : إن هذا خطاب لمن يحضر ، من حضره الموت وأجنف في وصيته ،
أن يأمره بالعدل في وصيته ، والمساواة فيها بدليل قوله .

[وليقولوا قولاً سديداً] أى : سداداً ، موافقاً للقسط والمعروف .

وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده ، بما يحبون معاملة
أولادهم بعدهم .

وقيل : إن المراد بذلك ، أولياء السفهاء ، من المجانين ، والصفار ،
والضعاف ، أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدينية ، بما يحبون أن
يعامل به من بعدهم ، من ذريتهم الضعاف .

[فليتقوا الله] في ولايتهم لغيرهم ، أى : يعاملونهم بما فيه تقوى الله ،
من عدم إهانتهم ، والقيام عليهم ، وإلزامهم لتقوى الله .

ولما أمرهم بذلك ، زجرهم عن أكل أموال اليتامى ، وتوعد
فقال : على ذلك أشد العذاب [إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً]
أى : بغير حق .

وهذا القيد ، يخرج به ما تقدم ، من جواز الأكل للفقير بالمعروف ،
ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى .

فمن أكلها ظلماً ، فإنما [يأكلون في بطونهم ناراً] أى : فإن الذى
أكلوه ، نار تتأجج من أجوافهم وهم الذين أدخلوه في بطونهم .

[وسيصلون سعيراً] أى : ناراً محرقة^(١) متوقدة .

وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب ، يدل على شناعة أكل أموال
اليتامى وقبحها ، وأنها موجبة لدخول النار .

فدل ذلك ، أنها من أكبر الكبائر . نسأل الله العافية .

(١) فى الأصل (محرقة) وهو تحريف .

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾

﴿أحكام المواريث — بيان أصحابها﴾

هذه الآيات ، والآية التي هي آخر السورة من آيات المواريث المتضمنة لها .

فإنها — مع حديث عبد الله بن عباس ، الثابت في صحيح البخارى « أَلْحَتُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا ، فَمَا بَقِيَ ، فَلْأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرَ » - مشتملات على جل أحكام الفرائض ، بل على جميعها ، كما سترى ذلك ، إلا ميراث الجدات ، فإنه غير مذكور في ذلك .

لكنه قد ثبت في السنن ، عن المغيرة بن شعبه ، ومحمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى الجدة السدس ، مع إجماع العلماء على ذلك .

﴿بيان ميراث الأولاد﴾

[يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ] أى : أولادكم - يامعشر الوالدين - عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم ، لتقوموا بمصالحهم الدينية والدينية . فتعلمونهم وتؤدبونهم ، وتكفونهم عن المفاسد ، وتأمرونهم بطاعة الله ، وملازمة التقوى على الدوام كما قال تعالى :

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ] فالأولاد - عند والديهم - موصى بهم .

فإما أن يقوموا بتلك الوصية ، فلهم جزيل الثواب . وإما أن يضيعوها ، فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب . وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين ، حيث أوصى الوالدين - مع كمال شفقتها ، عليهم .

فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً

ثم ذكر كيفية إرثهم فقال [لذكر مثل حظ الأنثيين] أي : الأولاد للصلب ، والأولاد للابن ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، إن لم يكن معهم صاحب فرض ، أو ما أبقت الفروض ، يقسمونه كذلك .

وقد أجمع العلماء على ذلك ، وأنه - مع وجود أولاد الصلب - فاليراث لهم .

وليس لأولاد الابن شيء ، حيث كان أولاد الصلب ، ذكوراً وإناثاً . هذا مع اجتماع الذكور والإناث .

وهنا حالتان : انفراد الذكور ، وسيأتي حكمها .

وانفراد الإناث ، وقد ذكره بقوله .

﴿ أحكام البنات في الميراث ﴾

[فإن كن نساء فوق اثنتين] أي : بنات صلب ، أو بنات ابن ، ثلاثاً فأكثر [فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة] أي : بنتاً ، أو بنت ابن [فلهما النصف] وهذا إجماع .

يُقال . من أين يستفاد أن للابنتين الثلثين ، الثلثين بعد الإجماع على ذلك ؟

فالجواب أنه يستفاد من قوله [فإن كانت واحدة فلهما النصف] .

فمفهوم ذلك ، أنه إن زادت على الواحدة ، انتقل الفرض عن النصف ، ولا ثم بعده إلا الثلثان .

فَلَمَّا اتَّصَفَ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ

وأيضاً ، قوله [للذ كرمثل حظ الأثنيين] إذا خلف ابنا وبنتا ، فإن الابن ، له الثلثان ، وقد أخبر الله ، أنه مثل حظ الأثنيين .

فدل ذلك ، على أن للبنتين الثلثين .

وأيضاً فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها - وهو أزيد ضرراً عليها من أختها - فأخذها له - مع أختها - من باب أولى وأحرى .

وأيضاً فإن قوله تعالى في الأختين [فإن كانتا اثنتين ، فلهما الثلثان مما ترك] نص في الأختين الثلثين .

فإذا كان الأختان الثلثان - مع بعدهما - يأخذان الثلثين ، فالابنتان - مع قربهما - من باب أولى وأحرى .

وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ، ابنتي سعد ، الثلثين كما في الصحيح .

بقي أن يقال : فما الفائدة في قوله [فوق اثنتين] ؟

قيل : الفائدة في ذلك - والله أعلم - أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثلثان ، لا يزيد بزيادتهن على الثلثين ، بل من الثلثين فصاعداً .

ودلت الآية الكريمة ، أنه إذا وجد بنت صلب واحدة ، وبنت ابن أو بنات ابن ، فإن لبنت الصلب ، النصف ، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات ، أو بنات الابن ، السدس ، فيعطى بنت الابن ، أو بنات الابن ، ولهذا يسمى هذا السدس ، تكملة الثلثين .

ومثل ذلك ، بنت الابن ، مع بنات الابن ، اللاتي أنزل منها .

وتدل الآية ، أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين ، أنه

لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ

يسقط من دونهن ، من بنات الابن ، لأن الله لم يفرض لهن ، إلا الثلثين ، وقد تم .

فلو لم يسقطن ، لزم من ذلك أن يفرض لهن ، أزيد من الثلثين ، وهو خلاف النص .

وكل هذه الأحكام ، مجمع عليها بين العلماء ، والله الحمد .

ودل قوله [مما ترك] أن الوارثين ، يرثون كل ما خلف الميت ، من عقار ، وأثاث ، وذهب ، وفضة ، وغير ذلك ، حتى الدية ، التي لم تجب إلا بعد موته ، وحتى الديون التي في الذمة .

﴿ أحكام الأبوين في الميراث ﴾

ثم ذكر ميراث الأبوين فقال :

[ولأبويه] أي أبوه وأمه [لكل واحد منهما السدس مما ترك] إن كان له ولد [أي : ولد صلب ، أو ولد ابن ، ذكراً كان أو أنثى ، واحداً أو متعدداً .

فأما الأم ، فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد .

﴿ أحكام الأب في الميراث ﴾

وأما الأب ، فعلى الذكور منهم ، لا يستحق أزيد من السدس . فإن كان الولد أنثى أو إناثاً ، ولم يبق بعد الفرض شيء ، كأبوين وابنتين ، لم يبق له تعصيب .

وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء ، أخذ الأب السدس فرضاً ، والباقي تعصياً .

إِخْوَةٌ فَلِأَمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنِ ۗ أَبَاؤُكُمْ

لأننا ألحقنا الفروض بأهلها ، فباقي ، فلاولى رجل ذكر ، وهو أولى من الأخ والعم ، وغيرها .

[فإن لم يكن له ولد ، وورثه أبواه ، فلاّمه الثلث] أى : والباقي للأب ، لأنه أضاف المال إلى الأب والأم ، إضافة واحدة ، ثم قدر نصيب الأم ، فدل ذلك ، على أن الباقي للأب .

وعلم من ذلك ، أن الأب — مع عدم الأولاد — لا فرض له ، بل يرث — تعصيباً — المال كله ، أو ما أبقّت الفروض .

ولكن لو وجد مع الأبوين ، أحد الزوجين — ويبرع عنهما بالعمريتين — فإن الزوج أو الزوجة ، يأخذ فرضه ، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب ، الباقي . وقد دل على ذلك قوله [وورثه أبواه ، فلاّمه الثلث] ثلث ماورثه الأبوان .

وهو فى هاتين الصورتين ، إما سدس فى زوج وأم وأب ، وإما ربع فى زوجة ، وأم وأب .

فلم تدل الآية على إرث الأم ، ثلث المال كاملاً ، مع عدم الأولاد .

حتى يقال : إن هاتين الصورتين ، قد استثنيتا من هذا .

ويوضح ذلك ، أن الذى يأخذه الزوج أو الزوجة ، بمنزلة ما يأخذه

الفرعاء .

فيكون من رأس المال ، والباقي ، بين الأبوين .

وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ

ولأننا لو أعطينا الأم ثلث المال ، لزم زيادتها على الأب ، في مسألة الزوج ، أو أخذ الأب في مسألة الزوجة ، زيادة عنها نصف السدس ، وهذا لا نظير له .

فإن المهور مساواتها للأب ، أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم .
[فإن كان له إخوة فلأمه السدس] أشقاء ، أو لأب ، أو لأم ،
ذكورا أو إناثا ، وارثين ، أو محجوبين بالأب ، أو الجد .

لكن قد يقال : ليس ظاهر قوله [فإن كان له إخوة] شاملا لغير
الوارثين ، بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف .

فعلى هذا ، لا يجزئها عن الثلث من الإخوة ، إلا الإخوة الوارثون .
ويؤيده أن الحكمة في حجبتهم لها عن الثلث ، لأجل أن يتوفر لهم
شيء من المال ، وهو معدوم . والله أعلم . ولكن بشرط كونهم
اثنتين فأكثر .

ويشكل على ذلك ، إتيان لفظ « الإخوة » بلفظ الجمع .
وأجيب عن ذلك ، بأن المقصود ، مجرد التعدد لا الجمع ، ويصدق
ذلك باثنين .

وقد يطلق الجمع ، ويراد به الاثنان كما في قوله تعالى عن داود وسليمان
[وكنا لحكمهم شاهدين] وقال في الإخوة للأُم :

[وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد
منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث] .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ

فأطلق لفظ الجمع ، والمراد به ، اثنتان فأكثر ، بالإجماع .

فعلى هذا ، لو خلف أما وأبا وإخوة ، كان للأُم السدس ، والباقي للأب ، فحجبوها عن الثلث ، مع حجب الأب بإمام ، إلا على الاحتمال الآخر ، فإن للأُم الثلث ، والباقي للأب .

ثم قال تعالى [من بعد وصية يوصى بها أو دين] أى هذه الفروض والأنصاء ، والموارث ، وإنما ترد وتستحق ، بعد نزع الديون التى على الميت لله ، أو للآدميين ، وبعد الوصايا ، التى قد أوصى الميت بها بعد موته ، فالباقي عن ذلك ، هو التركة ، التى يستحقها الورثة .

وقدم الوصية - مع أنها مؤخره عن الدين - للاهتمام بشأنها ، لكون إخراجها ، شاقاً على الورثة ، وإلا ، فالديون مقدمة عليها ، وتكون من رأس المال .

وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل ، للأجنبي الذى هو غير وارث .
وأما غير ذلك ، فلا ينفذ ، إلا بإجازة الورثة ، قال تعالى :

[آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً] .

فلورد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم ، لحصل من الضرر ، ما الله به عليم ، لنقص العقول ، وعدم معرفتها بما هو اللائق والأحسن ، فى كل زمان ومكان .

فلا يدرون أى الأولاد ، أو الوالدين ، أنفع لهم وأقرب ، لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية .

إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ

[فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً] أى : فرضها الله الذى قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحكم ماشرعه ، وقدر ما قدره ، على أحسن تقدير ، لاستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة ، لكل زمان ، ومكان ، وحال .

﴿ حكم الزوج والزجات فى الميراث ﴾

ثم قال تعالى : [ولَكُمْ] أيها الأزواج [نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد . فإن كان لهن ولد ، فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثلث مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين] .
ويدخل فى معنى الولد ، المشروط وجوده أو عدمه ، ولد الصلب أو ولد الابن الذكر والأنثى ، الواحد والمتعدد ، الذى من الزوج ، أو من غيره ، ويخرج عنه ، ولد البنات إجماعاً .

﴿ بيان معنى (الكلالة) ونصيبها فى الميراث ﴾

ثم قال تعالى [وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت] أى : من أم ، كما هى فى بعض القراءات .
وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة — هنا — الإخوة للأُم .
فإذا كان يورث كلاله أى : ليس للميت والد ولا ولد ، أى : لا أب ، ولا جد ، ولا ابن ، ولا ابن ابن ، ولا بنت ، ولا بنت ابن وإن نزلوا .
وهذه هى : الكلالة ، كما فسرها بذلك أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد حصل على ذلك ، الاتفاق ، والله الحمد .

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ

[فلكل واحد منهما] أى : من الأخ والأخت [السدس] .

[فإن كانوا أكثر من ذلك] أى : من واحد [فهم شركاء فى الثلث]

أى : لا يزيدون على الثلث ، ولو زادوا عن اثنين .

ودل قوله [فهم شركاء فى الثلث] أن ذكرهم وأنتاهم سواء ، لأن

لفظ « الشريك » يقتضى التسوية .

ودل لفظ [الكلاله] على أن الفروع وإن نزلوا ، والأصول المذكور

وإن علوا ، يسقطون أولاد الأم ، لأن الله لم يورثهم إلا فى الكلاله ،

فلو لم يكن يورث كلاله ، لم يرثوا منه شيئا ، اتفاقا .

ودل قوله [فهم شركاء فى الثلث] أن الإخوة الأشقاء ، يسقطون فى

المسألة المسماة بالحمازية .

وهى : زوج ، وأم ، وإخوة أشقاء .

وللزوج ، النصف . وللأم ، السدس . وللإخوة للأم : الثلث .

ويسقط الأشقاء ، لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم .

فلو شاركهم الأشقاء ، لكان جمعا ، لما فرق الله حكمه .

وأىضا ، فإن الإخوة للأم ، أصحاب فروض ، والأشقاء ، عصبات .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقى ،

فالأولى رجل ذكر » .

وأهل الفروض هم : الذين قدر الله أنصباهم .

يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ

ففي هذه المسألة ، لا يبقى بعدهم شيء ، فيسقط الأشقاء ، وهذا هو الصواب في ذلك .

وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء ، أو لأب ، فمذكور في قوله :

[يستفنونك قل الله يفتيكم في الكلاله] الآية .

فالأخت الواحدة ، شقيقة ، أو لأب ، لها النصف .

والثنتان ، لها الثلثان .

والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب ، أو الأخوات ، تأخذ النصف والباقي من الثلثين ، للأخت ، أو الأخوات لأب ، وهو السدس ، تكلمة الثلثين .

وإذ استغرقت الشقيقات الثلثين ، تسقط الأخوات للأب ، كما تقدم في البنات ، وبنات الابن .

وإن كان الإخوة ، رجالا ونساء ، فلذاكر مثل حظ الأنثيين .

﴿ حكم القاتل واختلاف دين الميت وأقربائه ﴾

فإن قيل : فهل يستفاد حكم ميراث القاتل ، والرقيق ، والمخالف في الدين ، والمبعض والخنثى ، والجد مع الإخوة لغير أم ، والعول ، والرد وذوى الأرحام ، وبقية العصابة ، والأخوات لغير أم ، مع البنات ، أو بنات الابن ، من القرآن أم لا ؟

مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً

قيل : نعم ، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة ، يعسر فهمها على غير المتأمل ،
تدل على جميع المذكورات .

فأما (القاتل والمخالف في الدين) فيعرف أنهما غير وارثين من بيان
الحكمة الإلهية ، في توزيع المال على الورثة ، بحسب قربهم ، ونفعهم
الديني والدنيوي .

وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله [لا تدرُونَ أيهم أقرب
لكم نفعاً] .

وقد علم أن القاتل ، قد سعى لمورثه^(١) بأعظم الضرر ، فلا يتنهض
ما فيه ، من موجب الإرث ، أن يقاوم ضرر القتل ، الذي هو ضد النفع
الذي رتب عليه الإرث .

فعلم من ذلك ، أن القتل أكبر مانع يمنع من الميراث ، ويقطع الرحم
الذي قال الله فيه :

[وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله] .

مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية ، أن « من استعجل شيئاً قبل
أوانه ، عوقب بحرمانه » .

وبهذا ونحوه ، يعرف أن المخالف لدين الموروث لا يرث له .

(١) قوله : الأولى (لموروثه) خطأ ، والصحيح (لمورثه) لأن كلمة
(موروث) معناها الحقيقي تركة الميت فيقال : مال موروث . ولا يقال - على
وجه الحقيقة - ميت موروث ، لأن جثته لا تورث ، ولاداعي لارتكاب المجاز .

أَوْ امْرَأَةٌ وَهِيَ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ إِنْ كَانُوا

وذلك أنه قد تعارض الموجب ، الذى هو : اتصال النسب ، الموجب للإرث ، والمانع الذى ، هو المخالفة فى الدين ، الموجبة للمباينة من كل وجه .

فقوى المانع ، ومنع موجب الإرث ، الذى هو النسب .
فلم يعمل الموجب لقيام المانع .

يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين ، أولى من حقوق الأتارب الكفار الدنيوية .

فإذا مات المسلم ، انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به .
فيكون قوله تعالى :

[وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله] إذا اتفقت أديانهم .

وأما مع تباينهم ، فالأخوة الدينية ، مقدمة على الأخوة النسبية المجردة .

قال ابن القيم فى « جلاء الأفهام » : « وتأمل هذا المعنى من آية الموارث ، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة ، دون المرأة كما فى قوله تعالى [ولكم نصف ما ترك أزواجكم] .

ففيه إيذان^(١) بأن هذا التوارث ، إنما وقع بالزوجية ، المتقتضية للتشاكل والتناسب .

(١) إيذان . أى : إعلام وتعليم .

أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَهَمَّ شُرَكَاءُ فِي الثُّلْثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصَىٰ بِهَا

والمؤمن والكافر ، لا تشا كل بينهما ، ولا تناسب ، فلا يقع بينهما التوارث .

وأسرار مفردات القرآن ومركباته ، فوق عقول العاقلين « انتهى .

﴿ حكم الرقيق في الميراث ﴾

وأما (الرقيق) ، فإنه لا يرث ولا يورث .

أما كونه لا يورث فواضح ، لأنه ليس له مال يورث عنه ، بل كل مامعه ، فهو لسيده .

وأما كونه لا يرث ، فلا فقه لا يملك ، فإنه لو ملك ، لكان لسيده ، وهو أجنبي من الميت ، فيكون مثل قوله تعالى :

[للذكر مثل حظ الأنثيين — ولكم نصف ما ترك أزواجكم —
فلكل واحد منهما السدس] ونحوها ، لمن يتأتى منه التملك .

وأما الرقيق ، فلا يتأتى منه ذلك ، فعلم أنه لا ميراث له .

وأما من بعضه حر ، وبعضه رقيق ، فإنه تتبعض أحكامه .

فما فيه من الحرية ، يستحق بها مرتبه الله في الموارث ، لكون مافيه من الحرية ، قابلاً للتملك ، وما فيه من الرق ، فليس يقابل لذلك .

فإذاً يكون البعض ، يرث ويورث ، ويوجب بقدر مافيه من الحرية .

وإذا كان العبد يكون محموداً ومذموماً ، مثاباً ومماقياً ، بقدر مافيه

من موجبات ذلك ، فهذا كذلك .

أَوْ دِينَ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴿١٢﴾

﴿ حكم الخنثى والمشكل في الميراث ﴾

وأما (الخنثى) فلا يخلو ، إما أن يكون واضحاً ذكوريته أو أنوثيته ، أو مشكلاً .

فإن كان واضحاً ، فالأمر فيه واضح .

إن كان ذكراً ، فله حكم الذكور ، ويشمله النص الوارد فيهم .

وإن كانت أنثى ، فلها حكم الإناث ، ويشملها النص الوارد فيهن .

وإن كان مشكلاً ، فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما —

كالإخوة للأم — فالأمر فيه واضح .

وإن كان يختلف إرثه ، بتقدير ذكوريته ، وبتقدير أنوثيته ، ولم يبق

لنا طريق إلى العلم بذلك ، لم نعطه أكثر التقديرين ، لاحتمال ظلم من معه

من الورثة ، ولم نعطه الأقل ، لاحتمال ظلمنا^(١) إياه .

فوجب التوسط بين الأمرين ، وسلوك أعدل الطرفين ، قال تعالى :

[اعدلوا هو أقرب للتقوى] .

فليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا ، أكثر من هذا الطريق

المذكور .

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » « فاتقوا الله ما استطعتم » .

(١) قوله (ظلمنا له) هكذا في الأصل وهو خطأ نحوي . لأن (ظلم) يتعدى

بنفسه لا باللام ، كما قال تعالى (وما ظلمهم الله) ولذا أصلحناه كما ترى .

﴿ ميراث الجد ﴾

وأما (ميراث الجد) مع الإخوة الأشقاء ، أو لأب ، وهل يرثون معه أم لا ؟ .

فقد دل كتاب الله ، على قول أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، أن الجد يجب الإخوة ، أشقاء ، أو لأب ، أو لأم ، كما يجبهم الأب .

وبيان ذلك : أن الجد : أب في غير موضع من القرآن كقوله تعالى :
[إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا
نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحق] الآية .

وقال يوسف عليه السلام [واتبعتم ملة آباءى إبراهيم وإسحق ويعقوب] .
فسمى الله الجد ، وجد الأب : أباً . فذل ذلك ، على أن الجد ، بمنزلة
الأب ، يرث ما يرثه الأب ، ويجب من محبته (أى : عند عدمه) .

وإذا كان العلماء ، قد أجمعوا على أن الجد ، حكمه حكم الأب عند
عدمه فى ميراثه مع الأولاد وغيرهم ، من بين الإخوة والأعمام وبنينهم ،
وسائر أحكام الموارث - فينبغى أيضاً ، أن يكون حكمه حكمه ، فى حجب
الإخوة لغير أم .

وإذا كان ابن الأب بمنزلة ابن الصلب ، فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب ؟
وإذا كان جد الأب ، مع ابن الأخ ، قد اتفق العلماء على أنه يجب .
فلم لا يجب جد الميت أخاه ؟

فليس مع من يورث الإخوة مع الجد ، نص ولا إشارة ، ولا تنبيه ، ولا قياس صحيح .

﴿ العول وأحكامه ﴾

وأما مسائل (العول) فإنه يستفاد حكمها من القرآن .
وذلك أن الله تعالى ، قد فرض ، وقدر لأهل الموارث أنصاء .
وهم بين حالتين .

إما أن يجب بعضهم بعضاً ، أولاً .
فإن حجب بعضهم بعضاً ، فالمحجوب ساقط ، لا يزاحم ، ولا يستحق شيئاً
وإن لم يجب بعضهم بعضاً ، فلا يخلو .
إما أن لا تستغرق الفروض التركة ، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص
أو تزيد الفروض على التركة .

ففي الحالتين الأوليين ، كل يأخذ فرضه كاملاً .
وفي الحالة الأخيرة وهي — ما إذا زادت الفروض على التركة —
فلا يخلو من حالين .

إما أن ننقص بعض الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له ، ونسكمل
للباقيين منهم فروضهم ، وهذا ترجيح بغير مرجح ، وليس نقصان أحدهم
بأولى من الآخر .

فتمينت الحال الثانية ، وهو : أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه ،
بقدر الإمكان ، ونحاصص بينهم ، كديون الغرماء الزائدة على مال الغرم .

ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول .

فعلم من هذا ، أن العول في الفرائض ، قد بينه الله في كتابه .

﴿ بيان أحكام الرد على أصحاب الفرائض ﴾

وبعكس هذه الطريقة بعينها ، يعلم (الرد) .

فإن أهل الفروض — إذا لم تستغرق فروضهم التركة ، وبقي شيء ليس له مستحق ، من عاصب قريب ولا بعيد ، فإن رده على أحدهم ، ترجيح بغير مرجح ، وإعطاؤه غيرهم ، ممن ليس بقريب للميت ، جنف وميل ، ومعارضة لقوله [وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله] .

فتعين أن يرد على أهل الفروض ، بقدر فروضهم .

﴿ حكم الرد على الزوجين في الميراث ﴾

ولما كان الزوجان ، ليسا من القرابة ، لم يستحقا الزيادة على فرضهم للمقدر عند القائلين ، بعدم الرد عليهما .

وأما على القول الصحيح أن حكم الزوجين ، حكم باقي الورثة في الرد ، فالدليل المذكور ، شامل للجميع ، كما شملهم دليل العول .

﴿ حكم ذوى الأرحام في الميراث ﴾

وبهذا يعلم أيضاً ، ميراث ذوى الأرحام .

فإن الميت إذا لم يخلف صاحب فرض ، ولا عاصباً ، وبقي الأمر دائراً بين كون ماله يكون لبيت المال ، لمنافع الأجانب ، وبين كون ماله يرجع

إلى أقربائه المدلين بالورثة ، المجمع عليهم ، تعين الثانى .
ويدل على ذلك قوله تعالى :

[وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله] .

فصرفه لغيرهم ، ترك لمن هو أولى من غيره ، فتعين توريث ذوى الأرحام .
وإذا تعين توريثهم ، فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدر بأعيانهم فى
كتاب الله .

وأن بينهم وبين الميت وسائط ، صاروا - بسببها - من الأقراب .
فينزلون منزلة من أدلوا به من تلك الوسائط . والله أعلم .

﴿ بيان من هم عصبة الميت وحكمهم فى الميراث ﴾

وأما (ميراث بقية العصبه) كالبنوة والأخوة وبنينهم والأعمام
وبنينهم الخ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما
بقى فلأولى رجل ذكر » .

وقال تعالى : [واكل جعلنا موالى ، مما ترك الوالدان والأقربون] .
فإذا ألحقنا الفروض بأهلها ، ولم يبق شىء ، لم يستحق العاصب شيئاً .
وإن بقى شىء ، أخذه أولى العصبه ، بحسب جهاتهم ، ودرجاتهم .

﴿ جهات العصبه ﴾

فإن جهات العصبه خمس : البنوة ، ثم الأبوة ثم الأخوة وبنوهم ، ثم
العمومة وبنوهم ، ثم الولاء ، ويقدم منهم الأقرب جهة .
فإن كانوا فى جهة واحدة ، فالأقرب منزلة .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ

فإن كانوا بمنزلة واحدة ، فالأقوى ، وهو الشقيق .

فإن تساوا من كل وجه ، اشتركا . والله أعلم .

وأما كون الأخوات لغير أم ، مع البنات ، أو بنات الابن عصابات ، يأخذن ما فضل عن فروضهن ، فلائنه ليس في القرآن ، ما يدل على أن الأخوات يستقطن بالبنات .

فإذا كان الأمر كذلك ، وبقي شيء بعد أخذ البنات فرضهن ، فإنه يعطى للأخوات ، ولا يعدل عنهن إلى عصابة أبعد منهن ، كابن الاخ والعم ، ومن هو أبعد منهم . والله أعلم .

* أى : تلك التفاصيل التي ذكرها في الموارث ، حدود الله ، التي يجب الوقوف معها ، وعدم مجاوزتها ، ولا القصور عنها .

وفي ذلك دليل ، على أن الوصية للوارث منسوخة ، بتقديره تعالى أنصبا الوارثين .

ثم قوله تعالى [تلك حدود الله فلا تعتدوها] فالوصية للوارث ، بزيادة على حقه ، يدخل في هذا التعدي ، مع قوله صلى الله عليه وسلم « لا وصية لوارث » .

ثم ذكر طاعة الله ورسوله ، ومعصيتهما ، عموما ، ليدخل في العموم ، لزوم حدوده في الفرائض ، أو ترك ذلك فقال :

الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا
خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

[ومن يطع الله ورسوله] بامثال أمرهما ، الذى أعظمه ، طاعتهما فى التوحيد ، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها ، واجتناب نهيبهما ، الذى أعظمه الشرك بالله ، ثم المعاصى على اختلاف طبقاتها [يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها] .

فمن أدى الأوامر ، واجتنب النواهي ، فلا بد له من دخول الجنة ، والنجاة من النار .

[وذلك الفوز العظيم] الذى حصل به النجاة ، من سخطه وعذابه ، والفوز بثوابه ورضوانه ، بالنعيم المقيم ، الذى لا يصفه الواصفون .

[ومن يعص الله ورسوله . الخ] ويدخل فى اسم المعصية ، الكفر فما دونه من المعاصى .

فلا يكون فيها شبهة للخوارج ، القائلين بكفر أهل المعاصى .

فإن الله تعالى رتب دخول الجنة ، على طاعته ، وطاعة رسوله .

ورتب دخول النار ، على معصيته ومعصية رسوله .

فمن أطاعه طاعة تامة ، دخل الجنة بلا عذاب .

ومن عصى الله ورسوله ، معصية تامة ، يدخل فيها الشرك ، فما دونه ،

دخل النار وخذل فيها .

ومن اجتمع فيه معصية وطاعة ، كان فيه من موجب الثواب والعقاب

بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية .

وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا
عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ
يَتَوَفَّاهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا

وقد دلت النصوص المتواترة ، على أن الموحدين ، الذين معهم طاعة التوحيد ، غير مخلدين في النار .

فما معهم من التوحيد ، مانع لهم من الخلود فيها .

* أي : النساء [اللاتي يأتين الفاحشة] أي : الزنا .

فوصفها بالفاحشة ، لشناعتها وقبحها .

[فاستشهدوا عليهن أربعة منكم] أي : من رجالكم المؤمنين العدول .

[فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت] احبسوهن عن الخروج

الموجب للريبة .

وأيضاً ، فإن الحبس ، من جملة العقوبات .

[حتى يتوفاهن الموت] أي : هذا منتهى الحبس .

[أو يجعل الله لهن سبيلاً] أي : طريقاً غير الحبس في البيوت .

فهذه الآية ليست منسوخة ، وإنما هي ، مغيبة إلى ذلك الوقت .

فكان الأمر في أول الإسلام كذلك ، حتى جعل الله لهن سبيلاً ،

وهو رجم المحسن والمحصنة وجلد غير المحسن والمحصنة .

(و) كذلك [اللذان يأتياها] أي : الفاحشة [منكم] من الرجال

والنساء [فأذوهما] بالقول والتوبيخ والتعيير ، والضرب الرادع عن هذه

الفاحشة .

مِنْكُمْ فَادُومُوا فِي تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا
رَحِيمًا ﴿١٦﴾

فعلی هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون ، والنساء
يجبسن ويؤذین .

فالجس غايته للموت ، والاذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح .

ولهذا قال [فإن تابا] أى : رجعا عن الذنب الذى فعلاه ، وندما
عليه ، وعزما أن لا يعودا [وأصلحا] العمل الدال على صدق التوبة
[فأعرضوا عنهما] أى : عن أذاهما [إن الله كان توابا رحيمًا]
أى : كثير التوبة على المذنبين الخطائين ، عظيم الرحمة والإحسان ، الذى
- من إحسانه - وفقهم للتوبة ، وقبلها منهم ، وسامحهم عن ماصدر منهم .
ويؤخذ من هاتين الآيتين ، أن بينة الزنا ، أن تكون أربعة
رجال مؤمنين .

ومن باب أولى وأحرى ، اشتراط عدالتهم .

لأن الله تعالى ، شدد فى أمر هذه الفاحشة ، سترًا لعباده .

حتى إنه ، لا يقبل فيها النساء منفردات ، ولا مع الرجل ، ولا مع
دون أربعة .

ولا بد من التصريح بالشهادة ، كما دلت على ذلك ، الأحاديث الصحيحة
وتومى إليه هذه الآية لما قال [فاستشهدوا عليهن أربعة منكم] .

لم يكتف بذلك حتى قال [فإن شهدوا] أى : لا بد من شهادة صريحة
عن أمر يشاهد عيانًا ، من غير تعريض ، ولا كناية .

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى آتَى

ويؤخذ منها ، أن الأذية بالقول والفعل ، والحبس ، قد شرعه الله ،
تعزيراً لجنس المعصية ، الذي يحصل به الزجر .

* توبة الله على عباده نوعان :

توفيق منه للتوبة ، وقبول لها ، بعد وجودها من العبد .

فأخبر هنا - أن التوبة المستحقة على الله ، حق أحقه على نفسه ، كرماء
منه وجوداً ، لمن عمل السوء أى : المعاصى [بجهالة] أى : جهالة منه لعاقبتها ،
وإيجابها لسخط الله وعقابه ، وجهل منه ، لنظر الله ومراقبته له ، وجهل
منه ، بما تثول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه .

فكل عاص لله ، فهو جاهل بهذا الاعتبار ، وإن كان عالماً بالتحريم .

بل العلم بالتحريم ، شرط لكونها معصية ، معاقباً عليها .

[ثم يتوبون من قريب] يحتمل أن يكون المعنى : ثم يتوبون قبل

معاينة الموت .

فإن الله يقبل توبة العبد ، إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب ، قطعاً .

وأما بعد حضور الموت ، فلا يقبل من العاصين توبتهم ، ولا من الكفار

رجوع ، كما قال تعالى عن فرعون :

[فلما أدركه الغرق ، قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به

بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين] الآية .

إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَلَّنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ
كُفَّارٌ أَوْ لَيْسَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

وقال تعالى : [فلما رأوا بأسنا ، قالوا آ منا بالله وحده ، وكفرنا بما
كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم ، لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي
قد خلت في عباده] وقال هنا :

[وليست التوبة للذين يعملون السيئات [أى : المعاصى فيمادون الكفر .
[حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إني تبت الآن ، ولا الذين يموتون
وهم كفار ، فأولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً] .
وذلك ، أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار ، لا تنفع صاحبها .
إنما تنفع توبة الاختيار .

ويحتمل أن يكون معنى قوله « من قريب » أى : قريب من فعلهم
الذنب ، الموجب للتوبة .

فيكون المعنى : من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب ، وأناب
إلى الله ، وندم عليه فإن الله يتوب عليه .

بخلاف من استمر على ذنبه ، وأصر على عيوبه ، حتى صارت فيه
صفات راسخة ، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة .

والغالب أنه لا يوفق للتوبة ، ولا ييسر لأسبابها .

كالذى يعمل السوء على علم قائم ، ويقين متهاون بنظر الله إليه ، فإنه
يسد على نفسه ، باب الرحمة .

نعم قد يوفق الله عبده المصر على الذنوب ، على عمد ويقين ، للتوبة

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ
كُرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ
يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ

النافعة ، التي يمحوبها ما سلف من سيناته ، وما تقدم من جنائياته ولكن
الرحمة والتوفيق للأول ، أقرب .

ولهذا ختم الآية الأولى بقوله [وكان الله عليا حكيمًا] .

فن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها ، فيجازى كلا منها ، بحسب
ما استحق بحكمته .

ومن حكمته ، أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته ، توفيقه للتوبة .

ويخذل من اقتضت حكمته وعدله ، عدم توفيقه . والله أعلم .

* كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته ، رأى قريبه ، كأخيه ،
وابن عمه ونحوها ، أنه أحق بزوجه من كل أحد ، وحماها عن غيره ،
أحبت أو كرهت .

فإن أحبها ، تزوجها على صداق ، يحبه دونها .

وإن لم يرضها ، عضلها ، فلا يزوجها إلا من يختاره هو .

وربما امتنع من تزويجها ، حتى تبذل له شيئاً من ميراث قريبه ،
أو من صداقها .

وكان الرجل أيضاً ، يعضل زوجته التي يكون يكرها ليذهب ببعض

ما آتاها ، فهي الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين :

أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ
أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْهُنَّ فِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا

إذا رضيت ، واختارت نكاح قريب زوجها الأول ، كما هو مفهوم
قوله [كرها] .

وإذا أتيت بفاحشة مبينة ، كالزنا ، والكلام الفاحش ، وأذيت الزوجها ،
فإنه في هذه الحال ، يجوز له أن يعضلها ، عقوبة لها على فعلها ، لتفتدى منه
إذا كان عضلا بالعدل .

ثم قال [وعاشروهن بالمعروف] وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية .
فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف ، من الصحبة الجميلة ، وكف
الأذى ، وبذل الإحسان ، وحسن المعاملة ، ويدخل في ذلك النفقة ،
والكسوة ونحوها .

فيجب على الزوج لزوجته ، المعروف ، من مثله لثلثها ، في ذلك
الزمان والمكان .

وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال .

[فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً] .
أى : ينبغي لكم - أيها الأزواج - أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة
لهن ، فإن في ذلك ، خيراً . كثيراً . من ذلك ، امتثال أمر الله ، وقبول
وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة .

ومنها أن إجباره نفسه - مع عدم محبته لها - فيه مجاهدة النفس ،
والتخلق بالأخلاق الجميلة .

مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْبَتِنَا وَإِنَّمَا مِثِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِثْقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

وربما أن الكراهة تزول ، وتخلفها المحبة ، كما هو الواقع في ذلك .
وربما رزق منها ولداً صالحاً ، نفع والديه في الدنيا والآخرة .
وهذا كله ، مع الإمكان في الإمساك ، وعدم المحذور .
فإذا كان لا بد من الفراق ، وليس للإمساك محل ، فليس الإمساك بلازم .
بل متى [أردتم استبدال زوج مكان زوج] أى : تطليق زوجة ،
وتزوج أخرى .

أى : فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج .
ولكن إذا [آتيتم إحداهن] أى : المفارقة ، أو التي تزوجها [قنطاراً]
أى : ما لا كثيراً .

[فلا تأخذوا منه شيئاً] بل . وفروه لهن ، ولا تطلوا بهن .
وفي هذه الآية ، دلالة على عدم تحريم كثرة المهر ، مع أن الأفضل
واللائق ، الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في تخفيف المهر .
ووجه الدلالة ، أن الله أخبر عن أمر يقع منهم ، ولم ينكره عليهم .
فدل على عدم تحريمه .

لكن قد ينهى عن كثرة الصداق ، إذا تضمن مفسدة دينية ، وعدم
مصلحة تقاوم .

ثم قال : [أتأخذونه بهيبتنا وإثماً مبيناً] فإن هذا لا يحل ، ولو تحيلتم
عليه بأنواع الحيل ، فإن إثمه واضح .

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا
مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٢٢)

وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله: [وكيف تأخذونه ، وقد أفضى
بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا] .

وبيان ذلك : أن الزوجة قبل عقد النكاح ، محرمة على الزوج ، ولم
ترض بجلها له إلا بذلك المهر ، الذي يدفعه لها .

فإذا دخل بها ، وأفضى إليها ، وباشرها المباشرة التي كانت حراما
قبل ذلك ، والتي لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض ، فإنه قد استوفى العوض ،
فثبت عليه العوض .

فكيف يستوفى العوض ، ثم بعد ذلك يرجع في العوض ؟
هذا من أعظم الظلم والجور .

وكذلك أخذ الله على الأزواج ، ميثاقاً غليظاً ، بالعقد ، والقيام بحقوقها .

* أى : لا تتزوجوا من النساء ، ما تزوجهن آباؤكم ، أى : الأب وإن علا .

[إنه كان فاحشة] أى : أمرا قبيحا يفحش ويعظم قبحه [ومقتا]
من الله لكم ومن الخلق ، بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه ، والأب ابنه ،
مع الأمر بیره .

[وساء سبيلا] أى : بس الطريق طريقا لمن سلكه ، لأن هذا من عوائد
الجاهلية ، التي جاء الإسلام بالتنزه عنها ، والبراءة منها .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ
وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ
الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ

* هذه الآيات الكريمة ، مشتملات على المحرمات بالنسب ، والمحرمات
بالصهر ، والمحرمات بالجمع ، وعلى الحملات من النساء .

فأما المحرمات في النسب ، فهن السبع الآتي ذكرهن الله .

الأم ، يدخل فيها ، كل من لها عليك ولادة ، وإن بعدت .

ويدخل في البنت كل من لك عليها ولادة ، والأخوات الشقيقات ،

أو لأب أو لأم .

والعمة كل : أخت لأبيك ، أو لجدك ، وإن علا .

والخاله : كل أخت لأمك ، أو جدتك وإن علت ، واردة أم لا .

وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، أي : وإن نزلت .

فهؤلاء هن المحرمات من النسب ، بإجماع العلماء ، كما هو نص الآية الكريمة ،

وما عداهن فيدخل في قوله : « وأحل لكم ما وراء ذلكم » ، وذلك

كبنت العمة والعم ، وبنت الخال والخاله .

وأما المحرمات بالرضاع ، فقد ذكر الله منهن ، الأم ، والأخت .

وفي ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها ، إنما هو لصاحب اللبن .

دل بتنيبه على أن صاحب اللبن ، يكون أبا للمرتضع .

فإذا ثبت الأبوة والأمومة ، ثبت ما هو فرع عنهما ، كأخوتها ،

وأصولها ، وفروعها .

وَرَبَائِبِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَابِكُمْ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ
الَّذِينَ مِن أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « يحرم من الرضاع ، ما يحرم من النسب » .
فينتشر التحريم من جهة الرضعة ، ومن له اللبن ، كما ينتشر في الأقارب ،
وفي الطفل المرتضع ، إلى ذريته فقط .

لكن بشرط أن يكون الرضاع ، خمس رضعات في الحولين ، كما
بينت السنة .

وأما المحرمات بالصهر ، فهن أربع .

حلائل الآباء وإن علوا ، وحلائل الأبناء ، وإن نزلوا ، وارتين ،
أو محجوبين .

وأمهات الزوجة ، وإن علون .

فهؤلاء الثلاث يحرم من بمجرد العقد .

والرابعة : الريبة ، وهي بنت زوجته وإن نزلت ، فهذه لا تحرم حتى
يدخل بزوجه كما قال هنا [وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي
دخلتم بهن] الآية .

وقد قال الجمهور : إن قوله [اللاتي في حجوركم] قيد خرج بمخرج
الغالب ، لا مفهوم له .

فإن الريبة تحرم ، ولو لم تكن في حجره ، ولكن للتقييد بذلك فائدتان :

إحداها : التنبيه على الحكمة في تحريم الريبة ، وأنها كانت بمنزلة

البنت ، فمن المستقبح إباحتها .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَُمْ أَنْ
تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ

والثانية : فيه دلالة على جواز الخلوة بالريبة ، وأنها بمنزلة من هي
في حجره من بناته ونحوهن . والله أعلم .

وأما المحرمات بالجمع ، فقد ذكر الله ، الجمع بين الأختين ، وحرمه .

وحرم النبي صلى الله عليه وسلم . الجمع بين المرأة وعمتها ، أو خالتها .

فكل امرأتين بينهما رحم محرم ، لو قدر إحداها ذكراً ، والأخرى
أنثى ، حرمت عليه ، فإنه يحرم الجمع بينهما ، وذلك لما في ذلك من أسباب
التقاطع بين الأرحام .

ومن المحرمات في النكاح [المحصنات من النساء] أى : ذوات الأزواج .

فإنه يحرم فكاهن ما دمن في ذمة الزوج ، حتى تطلق ، وتنقض عدها .

و [إلا ما ملكت أيمانكم] أى : بالسبي .

فإذا سببت الكافرة ذات الزوج ، حلت للمسلمين ، بعد أن تستبرأ .

وأما إذا بيعت الأمة المزوجة ، أو وهبت ، فإنه لا يفسخ نكاحها

لأن المالك الثانى ، نزل منزلة الأول ، ولقصة بريرة ، حين خيرها النبي
صلى الله عليه وسلم .

وقوله [كتاب الله عليكم] أى : الزموه واهتدوا به ، فإن فيه الشفاء

والنور ، وفيه تفصيل الحلال من الحرام .

فَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيَمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ
مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٢٤﴾

ودخل في قوله: [وأحل لكم ما وراء ذلكم] كل ما لم يذكروا في هذه الآية ، فإنه حلال طيب .

فالحرām محصور ، والحلال ليس له حد ولا حصر ، لطفامن الله ، ورحمة ، وتيسيراً للعباد .

وقوله [أن تبتغوا بأموالكم] أى . تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم ، من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم [محصنين] أى : مستغنين عن الزنا ، ومعفين نساءكم .

[غير مسالحين] والسفح : سفح الماء في الحلال والحرام ، فإن الفاعل لذلك ، لا يحصن زوجته ، لكونه وضع شهوته في الحرام ، فتضعف داعيته للحلال ، فلا يبقى محصناً لزوجته .

وفيه دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف ، لقوله تعالى :

[الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك] .

[فما استمتعتم به منهن] أى : . من تزوجتموها [فآتوهن أجورهن] أى الأجور ، في مقابلة الاستمتاع .

ولهذا إذا دخل الزوج بزوجه ، تقرر عليه صداقها .

[فريضة] أى إتيانكم بإهـن أجورهن ، فرض فرضه الله عليكم ، ليس بمنزلة التبرع ، الذى إن شاء أمضاه ، وإن شاء رده .

أو معنى قوله فريضة : أى مقدره قد قدرتموها ، فوجبت عليكم ،
فلا تنقصوا منها شيئاً .

[ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة] أى : زيادة
من الزوج ، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس ، هذا قول كثير
من المفسرين .

وقال كثير منهم : إنها نزلت فى متعة النساء التى كانت حلالا فى أول
الإسلام ، ثم حرمها النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه يؤمر بتوقيتها ، وأجرها ،
ثم إذا انقضى الأمد الذى بينهما ، فتراضيا بعد الفريضة ، فلا حرج عليهما ،
والله أعلم .

[إن الله كان عليما حكيمًا] أى : كامل العلم واسع ، كامل الحكمة .

فن علمه وحكمته ، شرع لكم هذه الشرائع ، وحد لكم هذه الحدود
الفاصلة بين الحلال والحرام .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ
الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنْ كَحَوْهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتَوْهُنَّ
أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ

ثم قال تعالى [ومن لم يستطع طولا] الآية .

* أى : ومن لم يستطع الطول الذى هو المهر لنكاح المحصنات ، أى :
الحرائر المؤمنات ، وخاف على نفسه العنت ، أى : الزنا والمشقة الكثيرة ،
فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات .

وهذا بحسب ما يظهر ، وإلا ، فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره .
فأمور الدنيا مبنية على ظواهر الأمور ، وأحكام الآخرة مبنية على
ما فى البواطن .

[فانكحوهن] أى : المملوكات [ياذن أهلهن] أى : سيدهن ، واحداً ،
أو متعدداً .

[وآتوهن أجورهن بالمعروف] أى : ولو كن إماء ، فإنه كما يجب المهر
للحرة ، فكذلك يجب للأمة .

ولكن لا يجوز نكاح الإماء ، إلا إذا كن [محصنات] أى : عفيفات
عن الزنا .

[غير مسافحات] أى : زانيات علانية .

[ولا متخذات أخدان] أى : أخلاء فى السر .

فالخاص ، أنه لا يجوز للحر المسلم ، نكاح أمة ، إلا بأربعة شروط

ذكرها الله :

فَإِذَا أَحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ
مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾

إيمانهم ، والعفة ظاهراً ، وباطناً ، وعدم استطاعة طول الحرة ،
وخوف العنت .

فإذا تمت هذه الشروط ، جاز له نكاحهن .

ومع هذا ، فالصبر عن نكاحهن أفضل ، لما فيه من تعريض الأولاد
للرق ، ولما فيه من الدناءة والعيب .

وهذا إذا أمكن الصبر ، فإن لم يمكن الصبر عن الحرام ، إلا بنكاحهن ،
وجب ذلك .

ولهذا قال [وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم] .

وقوله [فإذا أحصن] أي : تزوجن أو أسلمن ، أي الإماء [فإن أتين
بفاحشة ، فعليهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ] أي : الحرائر [من العذاب] .

وذلك الذي يمكن تفصيله ، وهو : الجلد ، فيكون عليهن خمسون جلدة .

وأما الرجم ، فليس على الإماء رجم ، لأنه لا يتنصف .

فعلى القول الأول ، إذا لم يتزوجن ، فليس عليهن حد ، وإنما عليهن

تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة .

وعلى القول الثاني : إن الإماء غير المسلمات . إذا فعلن فاحشة أيضاً عزرن .

وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين « الغفور الرحيم » ليكون

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ

هذه الأحكام ، رحمة بالعباد ، وكرما ، وإحساناً إليهم ، فلم يضيق عليهم ،
بل وسع غاية السعة .

ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد ، إشارة إلى أن الحدود كفارات ،
يغفر الله بها ذنوب عباده ، كما ورد بذلك الحديث .

وحكم العبد الذكر في الحد المذكور ، حكم الأمة ، لعدم الفارق بينهما .

* يخبر تعالى ، بمنتها العظيمة ، ومنحته الجسيمة ، وحسن تربيته لعباده
المؤمنين ، وسهولة دينه فقال :

[يريد الله ليبين لكم] أى : جميع ما تحتاجون إلى بيانه ، من الحق
والباطل ، والحلال والحرام .

[ويهديكم سنن الذين من قبلكم] أى : الذين أنعم الله عليهم ، من النبيين
وأتباعهم ، في سيرهم الحميدة ، وأفعالهم السديدة ، وشماثلهم الكاملة ،
وتوفيقهم التام .

فلذلك نفذ ما أراه ، ووضح لكم ، وبين بياناً ، كما بين لمن قبلكم ،
وهذا كم هداية عظيمة في العلم والعمل .

[ويتوب عليكم] أى : يلطف لكم في أحوالكم ، وما شرعه لكم ،
حتى تتمكنوا من الوقوف على ما حده الله ، والاكتفاء بما أحله ، فتقل
ذنوبكم ، بسبب ما يسر الله عليكم ، فهذا من توبته على عباده .

ومن توبته عليهم ، أنهم إذا أذنبوا ، ففتح لهم أبواب الرحمة ، وأوزع

عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾
يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

قلوبهم الإناابة إليه ، والتذلل بين يديه ، ثم يتوب عليهم ، بقبول ما وقفهم له .
فله الحمد والشكر ، على ذلك .

وقوله [والله عليم حكيم] أى : كامل الحكمة ، فمن علمه أن علمكم
مالم تكونوا تعلمون . ومنها هذه الأشياء والحدود .

ومن حكمته ، أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته ، التوبة عليه .
ويخذل من اقتضت حكمته وعدله ، من لا يصلح للتوبة .

وقوله [والله يريد أن يتوب عليكم] أى : توبة تلم شعسكم ، وتجمع
متفرقكم ، وتقرب بعيدكم .

[ويريد الذين يتبعون الشهوات] أى : يميلون معها حيث مالت ،
ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم ، ويعبدون أهواءهم ، من أصناف
السكررة والعاصين ، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم .

فهؤلاء يريدون [أن تميلوا ميلا عظيما] أى : تنحرفوا عن الصراط
المستقيم ، إلى صراط المغضوب عليهم والضالين .

يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن ، إلى طاعة الشيطان ، وعن
التزام حدود من السعادة كلها ، فى امثال أوامره ، إلى من الشقاوة كلها
فى اتباعه .

فإذا عرفتم أن الله تعالى ، يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم ، وسعادتكم ،
وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم ، يأمرؤنكم ، بما فيه غاية الخسار والشقاء ،
فاختاروا لأنفسكم أولى الداعيين ، وتخيروا أحسن الطريقتين .

يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ
بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ

[يريد الله أن يخفف عنكم] أى : بسهولة ما أمركم به ، ونهاكم عنه .
ثم مع حصول المشقة فى بعض الشرائع ، أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم ،
كالهيئة والدم ونحوهما ، للمضطر ، وكتزوج الأمة للححر ، بتلك الشروط السابقة .
وذلك لرحمته التامة ، وإحسانه الشامل ، وعلمه وحكمته بضعف
الإنسان ، من جميع الوجوه ، ضعف البنية ، وضعف الإرادة وضعف العزيمة ،
وضعف الإيمان ، وضعف الصبر .
فناسب ذلك ، أن يخفف الله عنه ، ما يضعف عنه ، وما لا يطيقه إيمانه ،
وصبره ، وقوته .

* ينهى تعالى ، عباده المؤمنين ، أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل .
وهذا يشمل أكلها بالفصوب ، والسرقا ، وأخذها بالقمار ،
والمكاسب الرديئة .

بل لعله يدخل فى ذلك ، أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف ،
لأن هذا من الباطل ، وليس من الحق .

ثم أنه — لما حرم أكلها بالباطل — أباح لهم أكلها بالتجارات ،
والمكاسب الخالية من الموانع ، المشتعلة على الشروط ، من التراضى وغيره .

[ولا تقتلوا أنفسكم] أى : لا يقتل بعضكم بعضاً ، ولا يقتل

الإنسان نفسه .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُضَلِّيهِ نَارًا وَّكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

ويدخل في ذلك ، الإلقاء بالنفس إلى التهلكة ، وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والمهلك .

[إن الله كان بكم رحيمًا] ومن رحمته ، أن صان نفوسكم وأموالكم ، ونهاكم عن إضاعتهما وإتلافها ، ورتب على ذلك ، مارتبه من الحدود .

وتأمل هذا الإيجاز والجمع ، في قوله « لا تأكلوا أموالكم » ولا تقتلوا أنفسكم « كيف شمل أموال غيرك ، ومال نفسك ، وقتل نفسك ، وقتل غيرك ، بعبارة أخصر من قوله « لا يأكل بعضكم مال بعض » و « لا يقتل بعضكم بعضاً » مع قصور هذه العبارة على مال الغير ، ونفس الغير .

مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين ، فيه دلالة على أن المؤمنين ، في توادمهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، ومصالحهم ، كالجسد الواحد ، حيث كان الإيمان يجمعهم ، على مصالحهم الدينية والدنيوية .

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل ، التي فيها غاية الضرر عليهم ، على الأكل ، ومن أخذ ماله — أباح لهم ، مافيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات ، وأنواع الحرف والإجازات فقال :

[إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم] أى : فإنها مباحة لكم .

وشرط التراضى — مع كونها تجارة — لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا ، لأن الربا ليس من التجارة ، بل مخالف لمقصودها ، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين ، ويأتى به اختيارا .

ومن تمام الرضا ، أن يكون العقود عليه ، معلوما ، لأنه إذا لم يكن كذلك ، لا يتصور الرضا مقدورا على تسليمه ، لأن غير المقدور عليه ، شبيهه ببيع القمار .

فبيع الفرر بجميع أنواعه ، خال من الرضا ، فلا ينفذ عقده .

وفيها أنه تنعقد العقود ، بما دل عليها ، من قول أو فعل ، لأن الله شرط الرضا ، فبأي طريق حصل الرضا ، انعقد به العقد .

ثم حتم الآية بقوله [إن الله كان بكم رحيمًا] ومن رحمته ، أن عصم دماءكم وأموالكم ، وصانها ، ونهاكم عن انتهاكها .

ثم قال [ومن يفعل ذلك] أي : أكل الأموال بالباطل ، وقتل النفوس [عدوانا وظلما] أي : لا جهلا ونسيانا [فسوف نصليه نارًا] أي : عظيمة كما يفيد التنكير [وكان ذلك على الله يسيرا] .

﴿٣١﴾ إِنَّ تَجْتَنِبُوا كِبَارَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ

سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

* وعدم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات ، غفر لهم جميع الذنوب والسيئات ، وأدخلهم مدخلا كريما ، كثير الخير ، وهو الجنة ، المشتملة على مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وبدخل في اجتناب الكبائر ، فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكبا كبيرة ، كالصلوات الخمس ، والجمعة وصوم رمضان ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم .

« الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهما ، ما اجتنبت الكبائر » .

وأحسن ما حدث به الكبائر ، أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا ، أو وعيد في الآخرة ، أو نفي إيمان ، أو ترتيب لعنة ، أو غضب عليه .

﴿٣٢﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ
وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴿٣٢﴾

* ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ، مافضل الله به غيره ، من
الأموال الممكنة ، وغير الممكنة .

فلا يتمنى النساء خصائص الرجال ، التي بها فضلهم على النساء ،
ولا صاحب الفقر والنقص ، حالة الغنى والكمال ، تمنيا مجرداً ، لأن هذا ،
هو الحسد بعينه ، تمنى نعمة الله على غيرك أن تكون لك ، ويسلب إياها .
ولأنه يقتضى السخط على قدر الله ، والإخلاد إلى الكسل والأمانى
الباطلة ، التي لا يقترن بها عمل ، ولا كسب .

وإنما المأمور أمران ، أن يسعى العبد على حسب قدرته ، بما ينفعه
من مصالحه الدينية والدينيوية .

ويسأل الله تعالى من فضله . فلا يتكل على نفسه ، ولا على غيره .
ولهذا قال تعالى [للرجال نصيب مما اكتسبوا] أى : من أعمالهم
المنتجة للمطلوب .

[وللنساء نصيب مما اكتسبن] فكل منهم لا يناله ، غير ما كسبه ،
وتعب فيه .

[واسألوا الله من فضله] أى : من جميع مصالحكم فى الدين والدنيا .
فهذا كمال العبد ، وعنوان سعادته ، لا من يترك العمل ، أو يتكل

﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ
وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴿٣٣﴾

على نفسه ، غير مفتقر لربه ، أو يجمع بين الأمرين ، فإن هذا
مخدول خاسر .

وقوله [إن الله كان بكل شيء عليما] فيعطى من يعلمه أهلا لذلك ،
ويمنع من يعلمه غير مستحق .

* أي : [ولكل] من الناس [جعلنا موالى] أى يتولونه ويتولاهم ،
بالتعزز والنصرة ، والمعاونة على الأمور .

[مما ترك الوالدان والأقربون] وهذا يشمل سائر الأقارب ، من
الأصول والفروع والحواشى . هؤلاء الموالى من القرابة .

ثم ذكر نوعاً آخر من الموالى فقال :

[والذين عقدت أيمانكم] أى : حالقتموهم بما عقدتم معهم من عقد
المخالفة على النصرة والمساعدة ، والاشتراك بالأموال ، وغير ذلك .

وكل هذا من نعم الله على عباده ، حيث كان الموالى يتعاونون
بما لا يقدر عليه بعضهم مفرداً .

قال تعالى [فآتوهم نصيبهم] أى : آتوا الموالى نصيبهم ، الذى يجب
القيام به ، من النصرة والمعاونة ، والمساعدة ، على غير معصية الله .

والميراث للأقارب الأدينين من الموالى .

[إن الله كان على كل شيء شهيداً] أى : مطلعاً على كل شيء ، يعلمه

لجميع الأمور ، وبصره لحركات عباده ، وسمعه لجميع أصواتهم .

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِذَا فَضَّلْتُمْ عَلَيْهِنَّ مِمَّا أَنْفَقْتُمْ وَلِلَّهِ غَيْبٌ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأُهْجِرُوهُنَّ

* يخبر تعالى أن [الرجال قوامون على النساء] أى : قوامون عليهن يلازمهن بحقوق الله تعالى ، من المحافظة على فرائضه ، وكفهن عن المفسد ، والرجال عليهم ، أن يلزموهن بذلك ، وقوامون عليهن أيضاً ، بالإففاق عليهن ، والكسوة ، والمسكن .

ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال :

[بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم] أى : بسبب فضل الرجال على النساء ، وإفضالهم عليهم .

فتفضيل الرجال على النساء ، من وجوه متعددة .

من كون الولايات مختصة بالرجال ، والنبوة ، والرسالة ، واختصاصهم بكثير من العبادات ، كالجهاد ، والأعياد ، والجمع .

وبما خصهم الله به ، من العقل ، والرزانة ، والصبر ، والجلد ، الذى ليس للنساء مثله .

وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات ، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ، ويتميزون عن النساء .

ولعل هذا ، سر قوله [بما أنفقوا] وحذف المفعول ، ليدل على عموم النفقة .

فِي الْمَضَاجِعِ وَأُضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴿٣٤﴾

فعلم من هذا كله، أن الرجل كالوالى والسيد لامرأته ، وهى عنده
عانية أسيرة .

فوظيفته ، أن يقوم بما استرعاه الله به .

ووظيفتها ، القيام بطاعة ربها ، وطاعة زوجها ، فلهذا قال :

[فالصالحات قانتات] أى : مطيعات لله تعالى [حافظات للغيب]
أى : مطيعات لأزواجهن حتى فى الغيب ، تحفظ بعلمها بنفسها ، وماله ،
وذلك بحفظ الله لهن ، وتوفيقه لهن ، لا من أنفسهن ، فإن النفس أماراة
بالسوء ، ولكن من توكل على الله ، كفاه ما أهمه من أمر
دينه ودنياه .

ثم قال : [واللاتى تخافون نشوزهن] أى : ارتفاعهن عن طاعة
أزواجهن ، بأن تعصيه بالقول أو الفعل ، فإنه يؤدبها بالأسهل فالأسهل .
[فعضوهن] أى ببيان حكم الله فى طاعة الزوج ومعصيته ، والترغيب
فى الطاعة ، والترهيب من المعصية .

فإن انتهت ، فذلك المطلوب ، وإلا فيهجرها الزوج فى المضجع ، بأن
لايضاجعها ، ولايجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود .
وإلا ، ضربها ضربا غير مبرح .

فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور ، وأطعنكم [فلا تبغوا
عليهن سبيلا] أى : فقد حصل لكم ماتحبون ، فاتركوا معاتبته على الأمور

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ
وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ
كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (٣٥)

الماضية ، والتعقيب عن العيوب التي يضر ذكرها ، ويحدث بسببه ، الشر .
[إن الله كان عليا كبيرا] أى : له العلو المطلق ، بجميع الوجوه ،
والاعتبارات ، علو الذات ، وعلو القدر ، وعلو القهر ، السكبير الذى
لا أكبر منه ، ولا أجل ، ولا أعظم ، كبير الذات والصفات .

* أى : وإن خفتم الشقاق بين الزوجين ، والمباعدة والمجانبة ، حتى يكون
كل منهما فى شق .

[فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها] أى : رجلين مكلفين ،
مسلمين عدلين ، عاقلين ، يعرفان ما بين الزوجين ، ويعرفان الجمع والتفريق .
وهذا مستفاد من لفظ « الحكم » لأنه لا يصلح حكما ، إلا من اتصف
بتلك الصفات .

فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه ، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب .
فإن لم يستطع أحدهما ذلك ، أقنعا الزوج الآخر بالرضا ، بما تسر من
الرزق والخلق .

ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح ، فلا يعدلا عنه .
فإن وصلت الحال ، إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما ، إلا على
وجه المعاداة والمقاطعة ، ومعصية الله ، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح ،
فرقا بينهما .

وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ

ولا يشترط رضا الزوج ، كما يدل عليه ، أن الله سماها الحكيم .

والحكم يحكم ، وإن لم يرض المحكوم عليه .

ولهذا قال : [إن يريد إصلاحا يوفق الله بينهما] أى : بسبب الرأى

الميمون ، والكلام الذى يجذب القلوب ، ويؤلف بين القرينين .

[إن الله كان علما خيرا] أى : علما بجميع الظواهر والبواطن ،

مطالما على خفايا الأمور وأسرارها .

فمن علمه وخبره ، أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة ،

والشرائع الجميلة .

* يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له ، وهو الدخول تحت

رق عبوديته ، والانقياد لأوامره ونواهيه ، محبة ، وذلا ، وإخلاصاً له ،

فى جميع العبادات الظاهرة والباطنة .

وينهى عن الشرك به شيئا ، لا شركاً أصغر ، ولا أكبر ، لا ملكا ،

ولا نبيا ، ولا وليا ولا غيرهم من المخلوقين ، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا

ولا ضرراً ، ولا موتا ولا حياة ، ولا نشورا .

بل الواجب المتعين ، إخلاص العبادة ، لمن له السكالم المطلق ، من جميع

الوجوه ، وله التدبير الكامل ، الذى لا يشركه ، ولا يعينه عليه أحد .

ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بحقه ، أمر بالقيام بحقوق العباد ،

الأقرب ، فالأقرب .

الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ

فقال: [وبالوالدين إحساناً] أى : أحسنوا إليهم بالقول الكريم ، والخطاب اللطيف ، والفعل الجميل ، بطاعة أمرها ، واجتناب نهيبها ، والإنفاق عليهما ، وإكرام من له تعلق بهما ، وصلة الرحم ، التى لارحم لك إلا بهما .

وللإحسان ضدان ، الإساءة ، وعدم الإحسان . وكلاهما منهى عنه .

[وبذى القربى] أيضاً إحساناً ، ويشمل ذلك جميع الأقارب ، قربوا ، أو بعدوا ، بأن يحسن إليهم ، بالقول ، والفعل ، وأن لا يقطع رحمه ، بقوله أو فعله .

[واليتامى] أى : الذين فقدوا آباءهم وهم صغار ، فلهم حق على المسلمين ، سواء كانوا أقارب أو غيرهم ، بكفالتهم ، وبرهم ، وجبر خواطرهم ، وتأديبهم ، وتربيتهم أحسن تربية ، فى مصالح دينهم ودنياهم .

[والمساكين] وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر ، فلم يحصلوا على كفايتهم ، ولا كفاية من يمونون .

فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم ، بسد خلتهم ، وبدفع فاقتهم ، والحض على ذلك ، والقيام بما يمكن منه .

[والجار ذى القربى] أى : الجار القريب ، الذى له حقان ، حق الجوار ، وحق القرابة ، فله على جاره حق ، وإحسان ، راجع إلى العرف . وكذلك [الجار الجنب] أى : الذى ليس له قرابة .

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ

وكلمة كان الجار أقرب بابا ، كان أكد حقا .

فينبغي للجار ، أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة ، والدعوة ، واللطافة بالأقوال والأفعال ، وعدم أذيته ، بقول أو فعل .

[والصاحب بالجانب] قيل : الرفيق في السفر ، وقيل : الزوجة ، وقيل صاحب مطلقا ، ولعله أولى ، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ، ويشمل الزوجة .

فعلى الصاحب لصاحبه ، حق زائد على مجرد إسلامه ، من مساعدته على أمور دينه ودنياه ، والنصح له ؛ والوفاء معه ، في اليسر والعسر ، والنشط والمكروه ، وأن يحب له ، ما يحب لنفسه ، ويكره له ، ما يكره لنفسه ، وكما زادت الصحبة ، تأكد الحق ، وزاد .

[وابن السبيل : هو : الغريب الذي احتاج في بلد الغربة ، أو لم يحتاج ، فله حق على المسلمين ، لشدة حاجته ، وكونه في غير وطنه ، بتبليغه إلى مقصوده ، أو بعض مقصوده ، وبإكرامه ، وتأنيسه .

[وما ملكت أيمانكم] أى : من الآدميين والبهائم ، بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ، ما يشق عليهم وإعانتهم على ما تحملوه ، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم .

فمن قام بهذه الأمور ، فهو الخاضع لربه ، المتواضع لعباد الله ، المنقاد لأمر الله وشرعه ، الذى يستحق الثواب الجزيل ، والثناء الجميل .

وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ

ومن لم يقم بذلك، فإنه عبد معرض عن ربه ، غير منقاد لأوامره ،
ولا متواضع للخلق .

بل هو متكبر على عباد الله ، معجب بنفسه ، فخور بقوله ،
ولهذا قال :

[إن الله لا يحب من كان مختالاً] أى : معجباً بنفسه ، متكبراً
على الخلق .

[فخوراً] يثنى على نفسه ويمدحها ، على وجه الفخر والبطر ، على
عباد الله .

فهؤلاء ، ما بهم من الاختيال والفخر ، يمنهم من القيام بالحقوق .
ولهذا ذمهم بقوله [الذين يبخلون] أى : يمنون ما عليهم من
الحقوق الواجبة .

[ويأمرون الناس بالبخل] بأقوالهم وأفعالهم .

[ويكتمون ما آتاهم الله من فضله] أى : من العلم الذى يهتدى به
الضالون ويسترشد به الجاهلون ، فيكتمونه عنهم ، ويظهرون لهم من الباطل ،
ما يحول بينهم وبين الحق .

فجمعوا بين البخل بالمال ، والبخل بالعلم ، وبين السعى فى خسارة
أنفسهم ، وخسارة غيرهم ، وهذه هى صفات الكافرين ، فلماذا قال تعالى :
[وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً] أى : كما تكبروا على عباد الله ،

وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ
قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

ومنعوا حقوقه ، وتسببوا في منع غيرهم ، من البخل ، وعدم الاهتداء ،
أهانهم بالعذاب الأليم ، واخزى الدائم .

فعياداً بك اللهم من كل سوء .

ثم أخبر عن النفقة الصادرة ، عن رياء وسمعة ، وعدم إيمان به ، فقال :
[والذين ينفقون أموالهم رياء الناس] أى : ليرؤم ، ويمدحوم ،
ويعظموم .

[ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر] أى : ليس إنفاقهم صادراً عن
إخلاص وإيمان بالله ، ورجاء ثوابه .

أى : فهذا من خطوات الشيطان وأعماله ، التي يدعو حزبه إليها ،
ليكونوا من أصحاب السعير .

وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها ، فلهذا قال :

[ومن يكن الشيطان له قريناً فسواء قريناً] أى : بتس المقارن والصاحب
الذى يريد إهلاك من قارنه ، ويسعى فيه أشد السعى .

فكما أن من بخل بما آتاه الله ، وكنم ما من به الله عليه ، عاص آثم ،
مخالف لربه .

فكذلك من أنفق وتعبد لغير الله ، فإنه آثم عاص لربه ،
مستوجب للعقوبة .

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَاَنفَقُوا
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّٰهُ وَكَانَ اللّٰهُ بِهِمْ عَلِيْمًا ﴾ ﴿٣٩﴾

لأن الله إنما أمر بطاعته ، وامتنال أمره ، على وجه الإخلاص ،
كما قال تعالى :

[وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين] فهذا هو العمل المقبول
الذي يستحق صاحبه المدح والثواب ، فهذا حث تعالى عليه بقوله :
[وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر . الآية] .

* أى : أى شىء عليهم ، وأى حرج ومشقة ، تلحقهم ، لو حصل منهم ،
الإيمان بالله ، الذى هو الإخلاص ، وأنفقوا من أموالهم ، التى رزقهم الله ،
وأنعم بها عليهم ، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق .

ولما كان الإخلاص ، سرّاً بين العبد وربّه ، لا يطلع عليه إلا الله ،
أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال [وكان الله بهم عليماً] .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا
وَيُوْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ

* يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله ، وتنزهه عما يضاد ذلك ، من الظلم
القليل ، والكثير فقال :

[إن الله لا يظلم مثقال ذرة] أى : ينقصها من حسنات عبده ، أو يزيدا
فى سيئاته .

كما قال تعالى [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة
شراً يره] .

[وإن تك حسنة يضاعفها] أى : إلى عشرة أمثالها : أى أكثر
من ذلك ، بحسب حالها ونفعها ، وحال صاحبها ، إخلاصاً ، ومحبة : وكلا .
[ويؤت من لده أجرًا عظيماً] أى : زيادة على ثواب العمل بنفسه ،
من التوفيق لأعمال آخر ، وإعطاء البر الكثير ، والخير الغزير .

ثم قال تعالى : [فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على
هؤلاء شهيداً] .

أى : كيف تكون تلك الأحوال ، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم ،
الذى جمع أن من حكم به ، كامل العلم ، كامل العدل ، كامل الحكمة ،
بشهادة أزكى الخلق ، وهم الرسل ، على أهمهم ، مع إقرار المحكوم عليه !!
فهذا - والله - الحكم ، الذى هو أعم الأحكام ، وأعدلها ، وأعظمها .

وهناك يبقى المحكوم عليهم مقرين له ، لكمال الفضل والعدل ،
والحمد والثناء .

أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
اللَّهُ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

وهناك يسعد أقوام ، بالفوز والفلاح ، والعز والنجاح .

ويشقى أقوام ، بالخرى والفضيحة ، والعذاب المبين ، ولهذا قال :

[يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول] أى : جمعوا بين الكفر
بالله ورسوله ، ومعصية الرسول [لو تسوى بهم الأرض] أى : يتعلمهم ،
ويكونون تراباً وعدما ، كما قال تعالى [ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً] .

[ولا يكتُمون الله حديثاً] أى : بل يعترفون له بما عملوا ، وتشهد عليهم
ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم ، بما كانوا يعملون .

يومئذ يوفيهم الله دينهم : جزاءهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين .

فأما ما ورد ، من أن الكفار يكتُمون كفرهم وجحودهم ، فإن ذلك
يكون فى بعض مواضع القيامة ، حين يظنون أن جحودهم ينفعهم
من عذاب الله .

فإذا عرفوا الحقائق ، وشهدت عليهم جوارحهم ، حينئذ ينجلي
الأمر ، ولا يبقى للكتمان موضع ، ولا نفع ، ولا فائدة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ

* ينهى تعالى عباده المؤمنين ، أن يقربوا الصلاة ، وهم سكارى ، حتى يعلموا ما يقولون .

وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة ، كالمسجد ، فإنه لا يمكن السكران من دخوله .

وشامل لنفس الصلاة ، فإنه ، لا يجوز للسكران ، صلاة ، ولا عبادة ، لاختلاط عقله ، وعدم علمه بما يقول .

ولهذا حدد تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم ، بما يقول السكران . وهذه الآية الكريمة ، منسوخة بتحريم الخمر مطلقا .

فإن الخمر — في أول الأمر — كان غير محرم .

ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه ، بقوله [يسألونك عن الخمر واليسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما] .

ثم إنه تعالى ، نهام عن الخمر ، عند حضور الصلاة ، كافي هذه الآية .

ثم إنه تعالى ، حرمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله :

[يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس

من عمل الشيطان فاجتنبوه] الآية .

ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة ، لتضمنه هذه المفسدة

العظيمة . بعد حصول مقصود الصلاة ، الذى هو روحها ولبها ، وهو الخشوع

وحضور القلب ، فإن الخمر يسكر القلب ، ويصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة .

ويؤخذ من المعنى ، منع الدخول في الصلاة ، في حال النعاس المفرط ،

الذى لا يشعر صاحبه ، بما يقول ويفعل .

سُكْرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى
تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ
الْفَاطِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

بل لعل فيه إشارة ، إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة ، أن يتقطع عنه كل
شغل ، يشغل فكره ، كدافعة الأخبثين ، والتوق لطعام ونحوه ، كما ورد
في ذلك الحديث الصحيح .

ثم قال [ولا جنبا إلا عابري سبيل] أى : لا تقربوا الصلاة ، حالة
كون أحدكم جنبا إلا في هذه الحال ، وهو عابر السبيل أى : ترون في المسجد ،
ولا تمكنون فيه .

[حتى تغتسلوا] أى : فإذا اغتسلتم ، فهو غاية المنع ، من قربان
الصلاة للجنب .

فيحل للجنب ، المرور في المسجد فقط .

[وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الفائط أو لامستم
النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا] .

فأباح التيمم للمريض مطلقا ، مع وجود الماء وعدمه والعلة ، هى : المرض ،
الذى يشق معه استعمال الماء ، وكذلك السفر ، فإنه مظنة فقد الماء .

فإذا فقد المسافر ، ووجد ما يتعلق بحاجته ، من شرب ونحوه ، جاز
له التيمم .

وكذلك إذا أحدث الإنسان ، ببول أو غائط ، أو ملامسة النساء ،
فإنه يباح له التيمم ، إذا لم يجد الماء ، حضراً وسفراً ، كما يدل على ذلك
عموم الآية .

فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴿٤٤﴾

والحاصل : أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين :

حال عدم الماء ، وهذا مطلقاً في الحضر والسفر .

وحال المشقة باستعماله ، بمرض ونحوه .

واختلف المفسرون في معنى قوله [أو لامستم النساء] هل المراد بذلك :

الجماع ، فتكون الآية نصاً في جواز التيمم للجنب ، كما تكاثرت بذلك

الأحاديث الصحيحة ؟

أو المراد بذلك : مجرد اللمس باليد ، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة

خروج المذي ، وهو اللمس الذي يكون لشهوة ، فتكون الآية دالة على نقض

الوضوء بذلك^(١) ؟ .

واستدل الفقهاء بقوله [فلم تجدوا ماء] بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت .

قالوا : لأنه لا يقال : « لم يجد » لمن لم يطلب ، بل لا يكون ذلك إلا

بعد الطلب .

واستدل بذلك أيضاً ، على أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات ، يجوز ،

بل يتعين ، التطهر به لدخوله في قوله [فلم تجدوا ماء] وهذا ماء .

(١) الذي انتهى إليه التحقيق في لمس المرأة أنه لا ينقض الوضوء

إلا إذا كانت بشهوة وكان الملامس يعرف من نفسه أنه يخرج منه مذي

باللمس . وأما إذا لم يؤد اللمس إلى خروج المذي ، فلا ينقض اللمس الوضوء .

والمسألة راجعة إلى حالة اللامس فكل ما أفضى إلى الإماء فهو ناقض للوضوء .

ونوزع في ذلك ، أنه ماء غير مطلق ، وفي ذلك نظر .
وفي هذه الآية الكريمة مشروعية هذا الحكم العظيم ، الذي امتن به
الله على هذه الأمة ، وهو مشروعية التيمم ، وقد أجمع على ذلك العلماء ،
ولله الحمد .

وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب ، وهو كل ما تصاعد على وجه
الأرض ، سواء كان له غبار أم لا .

ويحتمل أن يختص ذلك ، بذى الغبار ، لأن الله قال في آية الوضوء من
سورة المائدة الآية ٦ [فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه] .

ومالا غبار له ، لا يمسح به .

وقوله [فامسحوا بوجوهكم وأيديكم] أى : منه . كما في آية (المائدة)
هذا محل المسح في التيمم : الوجه جميعه ، واليدان إلى الكوعين ، كما دلت
على ذلك الأحاديث الصحيحة ، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة ،
كما دل على ذلك حديث عمار ، وفيه أن تيمم الجنب ، كتيمم غيره ، بالوجه
واليدين .

فائدة

اعلم أن قواعد الطب ، تدور على ثلاث قواعد : حفظ الصحة عن
المؤذيات ، والاستفراغ منها ، والحماية عنها . وقد نبه تعالى ، عليها في كتابه العزيز .
أما حفظ الصحة والحماية عن المؤذى ، فقد أمر بالأكل والشرب ،
وعدم الإسراف في ذلك .

وأباح للمسافر والمريض الفطر، حفظا لصحتهما ، باستعمال ما يصلح
البدن ، على وجه العدل ، وحماية للمريض عما يضره .

وأما استفراغ المؤذى ، فقد أباح تعالى للمحرم المتأذى برأسه ، أن
يحلقه لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه .

ففيه تنبيه على استفراغ ، ما هو أولى منها ، من البول ، والغائط ،
والقيء ، والمني ، والدم ، وغير ذلك .
نبه على ذلك ابن القيم ، رحمه الله تعالى .

وفي الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين ، وأنه يجوز التيمم ،
ولو لم يضق الوقت ، وأنه لا يخاطب بطلب الماء ، إلا بعد وجود سبب الوجوب
والله أعلم .

ثم ختم الآية بقوله [إن الله كان غفوراً رحيماً] .

أى : كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين ، بتيسير ما أمرهم به ، وتسهيله
غاية التسهيل ، بحيث لا يشق على العبد امتثاله ، فيخرج بذلك
ومن عفوه ومغفرته ، أن رحم هذه الأمة ، بشرع الطهارة بالتراب ، بدل
الماء ، عند تعذر استعماله .

ومن عفوه ومغفرته ، أن فتح للمذنبين باب التوبة والإنابة ، ودعاهم
إليه ، ووعدهم بمغفرة ذنوبهم .

ومن عفوه ومغفرته ، أن المؤمن لو أتاه بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيه
لا يشرك به شيئاً ، لأتاه بقرابها مغفرة .

﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ
الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ
وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ
الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ

* هذا ذم لمن [أوتوا نصيباً من الكتاب] وفي ضمنه ، تحذير عباده
عن الاغترار بهم ، والوقوع في أشراكهم .

فأخبر أنهم ، في أنفسهم [يشترون الضلالة] أي : يحبونها بحبة عظيمة ،
ويؤثرونها بإيثار من يبذل المال الكثير ، في طلب ما يحبه .

فيؤثرون الضلال على الهدى ، والكفر على الإيمان ، والشقاء على
السعادة . ومع هذا [يريدون أن تضلوا السبيل] .

فهم حريصون على إضلالكم ، غاية الحرص ، باذلون جهدهم في ذلك .
ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين ، وناصرهم ، بين لهم ما اشتملوا عليه
من الضلال والإضلال ولهذا قال :

[وكفى بالله ولياً] أي : يتولى أحوال عباده ، ويلطف بهم ، في جميع
أمورهم ، ويسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم .

[وكفى بالله نصيراً] ينصرهم على أعدائهم ، ويبين لهم ما يحذرون منهم
ويعينهم عليهم .

فولايته تعالى ، فيها حصول الخير ، ونصره ، فيه زوال الشر .

ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم ، وإشارهم الباطل على الحق فقال :

وَرَاعِنَا نِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

[من الذين هادوا] أى : اليهود ، وهم علماء الضلال منهم .

[يحرفون الكلم عن مواضعه] إما بتغيير اللفظ أو المعنى ،
أو هاجميا .

فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم ، التي لا تنطبق
ولا تصدق ، إلا على محمد صلى الله عليه وسلم ، على أنه غير مراد بها ،
ولا مقصود بها ، بل أريد بها ، غيره ، وكتائبهم ذلك .

فهذا حالهم في العلم ، شرح حال ، قلبوا فيه الحقائق ، ونزلوا الحق على
الباطل ، وجحدوا لذلك الحق .

وأما حالهم في العمل والالتقياد فإنهم [يقولون سمعنا وعصينا] أى : سمعنا
قولك ، وعصينا أمرك .

وهذا غاية الكفر والعناد ، والشروء عن الالتقياد .

وكذلك يخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بأقبح خطاب وأبعد
عن الأدب ، فيقولون :

[اسمع غير مسمع] قصدهم : اسمع منا غير مسمع ماتجب ، بل
مسمع ماتكروه .

[وراعنا] قصدهم بذلك الرعونة ، بالعيب التبيح .

ويظنون أن اللفظ - لما كان محتملاً لغير ما أرادوا من الأمور - أنه يروج على الله وعلى رسوله ، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي يلون به ألسنتهم ، إلى الطعن في الدين ، والعيب للرسول ، ويصرحون بذلك فيما بينهم ،
فلهذا قال :

[لياً بألسنتهم وطعنا في الدين] .

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال :

[ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم] .

وذلك لما تضمنه هذا الكلام ، من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول ، والدخول تحت طاعة الله ، والانقياد لأمره ، وحسن التلطف في طلبهم العلم ، بسماع سؤالهم ، والاعتناء بأمرهم .

فهذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه .

ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية ، أعرضوا عن ذلك ، وطردتهم الله ، بكفرهم وعنادهم .

ولهذا قال : [ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً] .

يَسَاءُ الَّذِينَ أَتَوْا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا
لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى آدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ

* يأمر تعالى أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، أن يؤمنوا
بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم ،
المهيمن على غيره ، من الكتب السابقة التي صدقها ، فإنها أخبرت به .
فلما وقع الخبر به ، كان تصديقاً لذلك الخبر .

وأيضاً ، فإنهم — إن لم يؤمنوا بهذا القرآن ، فإنهم لم يؤمنوا بما في
أيديهم من الكتب ، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً ، ويوافق
بعضها بعضاً .

فدعوى الإيمان ببعضها ، دون بعض ، دعوى باطلة ، لا يمكن صدقها .
وفي قوله [آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم] حث لهم ، وأنهم ينبغي
أن يكونوا قبل غيرهم ، مبادرين إليه بسبب ما أنعم الله عليهم به ، من العلم ،
والكتاب الذي يوجب أن يكون ما عليهم ، أعظم من غيرهم ، ولهذا
توعدهم على عدم الإيمان فقال :

[من قبل أن نطمس وجوها فنردها على آدبارها] وهذا جزاء من
جنس ما عملوا .

فكما تركوا الحق ، وآثروا الباطل ، وقلبوا الحقائق ، فجعلوا الباطل
حقاً ، والحق باطلاً جوزوا^(١) من جنس ذلك ، بطمس وجوههم ، كما طمسوا

(١) في الأصل (فجوزوا) ولا معنى هنا لاقتران الفعل بالفاء لأن قواعد
النحو تأتي ذلك .

كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴿٤٧﴾
﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ
لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴿٤٨﴾

الحق ، وردها على أديارها ، بأن تجعل في أفعالهم ، وهذا أشنع ما يكون .
[ونلعنهم كما لعنا أصحاب السبت] بأن يطردهم من رحمته ، ويعاقبهم
بجعلهم قردة ، كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت .
[فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين] .
[وكان أمر الله مفعولا] كقوله [إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول
له كن فيكون] .

* يخبر تعالى : أنه لا يغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين ، ويفغر
مادون ذلك ، من الذنوب ، صفاتها ، وكبائرها ، وذلك عند مشيئته
مغفرة ذلك ، إذا اقتضت حكمته مغفرته .

فالذنوب التي دون الشرك ، قد جعل الله لمغفرتها ، أسبابا كثيرة
كالחסنات الماحية ، والمصائب المكفرة في الدنيا ، والبرزخ ، ويوم القيامة ،
وكدعاء المؤمنين ، ، بعضهم لبعض ، وبشفاعة الشافعين .

ومن دون ذلك كله ، رحمته ، التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد .
وهذا بخلاف الشرك فإن الشرك ، قد سد على نفسه أبواب المغفرة ،
وأغلق دونه أبواب الرحمة ، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد ، ولا تفيده
المصائب شيئا .

[وما لهم يوم القيامة من شافعين * ولا صديق حميم^(١)].
ولهذا قال تعالى [ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً] أى : افترى
جرماً كبيراً .

وأى ظلم ، أعظم ، ممن سوى المخلوق — من تراب ، الناقص من جميع
الوجوه ، الفقير بذاته من كل وجه .

الذى لا يملك لنفسه — فضلاً عن عبده — نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً
ولا حياة ولا نشوراً — بالخالق لكل شيء الكامل من جميع الوجوه ،
الغنى بذاته ، عن جميع مخلوقاته ، الذى بيده النفع والضرر ، والعطاء والمنع ،
الذى ما من نعمة بالمخلوقين ، إلا منه تعالى .

فهل أعظم من هذا الظلم شيء ؟

ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب [إنه من
يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار] .

وهذه الآية الكريمة فى حق غير التائب .

وأما التائب ، فإنه يفر له الشرك فما دونه ، كما قال تعالى [قل يا عبادى
الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب
جميعاً] أى : لمن تاب إليه ، وأتاب .

(١) الآيتان ١٠٠ و ١٠١ بنصهما فى سورة الشعراء . والمؤلف أتى

بمعنى الآية الأولى لمناسبة سياق الكلام . وأتى بنص الآية الثانية .

﴿٤٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي
مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴿٥٠﴾

* هذا تعجب من الله لعباده ، وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم ، من اليهود والنصارى ، ومن نحا نحوم ، من كل من زكى نفسه ، بأمر ليس فيه .

وذلك أن اليهود والنصارى يقولون : [نحن أبناء الله وأحباؤه] .

ويقولون : [لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى] وهذا مجرد دعوى ، لا برهان عليها .

وإنما البرهان ، ما أخبر به في القرآن في قوله :

[بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون] .

فهؤلاء هم الذين زكاهم الله ، ولهذا قال هنا : [بل الله يزكى من يشاء] أى : بالإيمان والعمل الصالح ، بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة ، والتحلل بالصفات الجميلة .

وأما هؤلاء ، فهم - وإن زكوا أنفسهم بزعمهم ، أنهم على شيء ، وأن الثواب لهم وحدهم - فإنهم كذبة في ذلك ، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب ، بسبب ظلمهم وكفرهم ، لا يظلم من الله لهم ، ولهذا قال : [ولا يظلمون فتيلًا] .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ
بِالْجِبْتِ وَالطُّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَّا
بِالْبَاطِلِ وَأَلَّا هُمْ يُؤْمِنُونَ﴾

وهذا لتحقيق العموم ، أى : لا يظلمون شيئا ، ولا مقدار الفتيل الذى فى شق النواة ، أو الذى يقتل من وسخ اليد وغيرها .

قال تعالى : [انظر كيف يفترون على الله الكذب] أى : بتزكيتهم أنفسهم ، لأن هذا من أعظم الافتراء على الله .

لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم ، الإخبار بأن الله ، جعل ما هم عليه حقا ، وما عليه المؤمنون المسلمون ، باطلا .

وهذا أعظم الكذب ، وقلب الحقائق ، يجعل الحق باطلا ، والباطل حقا .

ولهذا قال : [وكفى به إثما مبينا] أى : ظاهرا بينا ، موجبا للعقوبة البليغة ، والعذاب الأليم .

* وهذا من قبائح اليهود ، وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، أن أخلاقهم الرذيلة ، وطبعهم الخبيث ، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت ، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله ، أو حكم بغير شرع الله .

فدخل فى ذلك ، السحر والكهانة ، وعبادة غير الله ، وطاعة الشيطان .

كل هذا من الجبت والطاغوت .

وكذلك حملهم الكفر والحسد ، على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله ، عبدة الأصنام ، على طريق المؤمنين فقال :

الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ
فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلَكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ

[ويقولون للذين كفروا] أى لأجلهم ، تملق لهم ومداهنة ،
وبغضا للإيمان :

[هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلاً] أى : طريقاً .

فما أسجهم ، وأشد عنادهم ، وأقل عقولهم !! .

وكيف سلكوا هذا المسلك الوحيم ، والوادي الذميم !! ؟

هل ظنوا أن هذا ، يروج على أحد من العقلاء ، أو يدخل عقل أحد

من الجهلاء .

فهل يفضل دين ، قام على عبادة الأصنام والأوثان ، واستقام على

تحريم الطيبات ، وإباحة الخبائث ، وإحلال كثير من المحرمات ، وإقامة

الظلم بين الخلق ، وتسوية الخالق بالخلق ، والكفر بالله ، ورسله ،

وكتبه ، على دين قام على عبادة الرحمن ، والإخلاص لله ، فى السر والإعلان

والكفر بما يعبد من دونه ، من الأوثان ، والأنداد ، والكاذبين ، وعلى

صلة الأرحام ، والإحسان ، إلى جميع الخلق ، حتى البهائم ، وإقامة العدل

والقسط بين الناس ، وتحريم كل خيىث وظلم ، ومصداق فى جميع الأقوال

والأعمال فهل هذا إلا من الهذيان .

وصاحب هذا القول ، إما من أجهل الناس ، وأضعفهم عقلاً ، وإما من

أعظمهم عنادا وتمرداً ، ومراغمة للحق .

وهذا هو الواقع ، ولهذا قال تعالى عنهم [أولئك الذين لعنهم الله]

أى : طردهم عن رحمته ، وأحل عليهم نقمته .

الْأَناسَ تَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ
فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مِّثْلًا
عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ

[ومن يلعن الله فلن تجده له نصيرا] أى : يتولاه ، ويقوم بمصالحة ،
ويحفظه عن المكاره ، هذا غاية الخذلان .

[أم لهم نصيب من الملك] أى : فيفضلون من شاءوا على من شاءوا ،
بمجرد أهوائهم ، فيكونون شركاء لله فى تدبير المملكة .

فلو كانوا كذلك ، لشحوا ومخلوا أشد البخل ، ولهذا قال :

[فإذا] أى : لو كان لهم نصيب من الملك [لا يؤتون الناس تقيرا]
أى : شيئا ، ولا قليلا . وهذا وصف لهم ، بشدة البخل ، على تقدير وجود
ملكهم ، المشارك لملك الله .

وأخرج هذا ، مخرج الاستفهام للتقرر إنكاره ، عند كل أحد .

* [أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله] أى : هل الحامل
لهم على قولهم ، كونهم شركاء لله ، فيفضلون من شاءوا ؟ أم الحامل لهم
على ذلك ، الحسد للرسول وللمؤمنين ، على ما آتاهم الله من فضله ؟
وذلك ليس ببدع ولا غريب ، على فضل الله .

[فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ميثقا عظيما]
وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته ، من النبوة ، والكتاب ، والملك
الذى أعطاه من أعطاه ، من أنبيائه كـ « داود » و « سليمان » .

سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلِمًا
فَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ

فإنعامه لم يزل مستمراً ، على عباده المؤمنين .

فكيف ينكرون إنعامه ، بالنبوة ، والنصر ، والملك ، لمحمد صلى الله
عليه وسلم ، أفضل الخلق ، وأجلهم ، وأعظمهم معرفة بالله ، وأخشاهم له !!

[فمنهم من آمن به] أى . بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فقال بذلك
السعادة الدنيوية ، والفلاح الأخرى .

[ومنهم من صد عنه] عناداً ، وبغياً ، وصداء ، فحصل لهم من شقاء
الدنيا ومصائبها ، ما هو بعض آثار معاصيهم .

[وكفى بجهنم سعيراً] تسرع على من كفر بالله ، وجدد نبوة أنبيائه ،
من اليهود ، والنصارى ، وغيرهم ، من أصناف الكفرة .

* ولهذا قال : [إن الذين كفروا بآياتنا ، سوف نصليهم ناراً]
أى : عظيمة الوقود ، شديدة الحرارة .

[كلما انضجت جلودهم^(١)] أى : احترقت [بدلتناهم جلوداً غيرها
ليذوقوا العذاب] أى : ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ .

(١) خص الجلود ، لأنها موضع الإحساس بالألم كما ثبت ذلك بالطب .

جَنَّتِ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ
مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

ولما تكرر منهم الكفر والعناد ، وصار وصفهم وسجية ؛ ككرر ،
عليهم العذاب جزاء وفاقا . ولهذا قال : [إن الله كان عزيزا حكيمًا]
أى : له العزة العظيمة ، والحكمة فى خلقه وأمره ، وثوابه وعقابه .

[والذين آمنوا] أى بالله ، وما أوجب الإيمان به [وعملوا الصالحات]
من الواجبات والمستحبات [سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار لهم
فيها أزواج مطهرة] أى : من الأخلاق الرذيلة ، والخلق الذميم ، وبما يكون
من نساء الدنيا ، من كل دنس وعيب (وندخلهم ظلا ظليلا)
أى : دائم الظل .

﴿٥٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا
وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا
يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

* الأمانات ، كل ما ائتمن عليه الإنسان ، وأمر بالقيام به .
فأمر الله عباده بأدائها أى : كاملة موفرة ، لا منقوصة ولا مبخوسة ،
ولا ممطولا بها .

ويدخل فى ذلك ، أمانات الولايات والأموال ، والأسرار ؛ والمأمورات
التي لا يطلع عليها إلا الله .

وقد ذكر الفقهاء ، أن من ائتمن أمانة ؛ وجب عليه حفظها ، فى
حرز مثلها .

قالوا : لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها ؛ فوجب ذلك .
وفى قوله تعالى (إلى أهلها) دلالة على أنها ، لاتدفع ، وتودى ، لغير
المؤتمن ، ووكيله بمنزلته ؛ فلو دفعها لغير ربها ، لم يكن مؤديا لها .

(وإذا حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل) وهذا يشمل الحكم بينهم
فى الدماء ، والأموال ، والأعراض ، القليل من ذلك ، والكثير ، على
القريب ، والبعيد ، والفاجر ، والولى ، والعدو .

والمراد بالعدل الذى أمر الله بالحكم به ، هو ما شرعه الله على لسان
رسوله ، من الحدود والأحكام ، وهذا يستلزم معرفة العدل ، ليحكم به .

ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة ، قال :

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ
فِي شَيْءٍ فَارْجِعُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

(إن الله نعمًا يعظكم به ، إن الله كان سميعًا بصيرًا) وهذا مدح من الله
لأوامره ونواهيه لاشتمالها على مصالح الدارين ، ودفع مضارها ، لأن شارعها
السميع البصير ، الذي لا تخفى عليه خافية ، ويعلم من مصالح العباد ، ما لا يعلمون .
ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله ، وذلك بامتنال أمرهما ، الواجب
والستحب ، واجتناب نهيهما .

وأمر بطاعة أولى الأمر ، وهم : الولاة على الناس ، من الأمراء ،
والحكام ، والفتين ، فإنه لا يستقيم للناس ، أمر دينهم ودنياهم ، إلا بطاعتهم
والاقتياد لهم ، طاعة لله ، ورغبة فيما عنده .

ولكن بشرط ، أن لا يأمرُوا بمعصية الله ، فإن أمرُوا بذلك ، فلا طاعة
لخلق ، في معصية الخالق .

ولعل هذا هو السر في حذف الفعل ، عند الأمر بطاعتهم ، وذكره
مع طاعة الرسول .

فإن الرسول ، لا يأمر إلا بطاعة الله ، ومن يطعه ، فقد أطاع الله .
وأما أولو الأمر ، فشرط الأمر بطاعتهم ، أن لا يكون معصية .

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه ؛ من أصول الدين وفروعه ، إلى
الله والرسول ، أي : إلى كتاب الله وسنة رسوله ؛ فإن فيهما الفصل في
جميع المسائل الخلافية ، إما بصريحهما ، أو عمومهما ؛ أو إيماء ، أو تنبيه ،
أو مفهوم ، أو عموم معنى ، يقاس عليه ما أشبهه .

﴿٦٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ
إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا
بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ

لأن كتاب الله وسنة رسوله ، عليهما بناء الدين ، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما .
فإلّا إلهما ، شرط في الإيمان ، فهذا قال : (إن كنتم تؤمنون بالله
واليوم الآخر .

فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة ،
بل مؤمن بالطاغوت ، كما ذكر في الآية بعدها .

[ذلك] أى : الرد إلى الله ورسوله [خير وأحسن تأويلاً] فإن حكم
الله ورسوله ، أحسن الأحكام وأعدلها ، وأصلحها للناس ، فى أمر دينهم ،
ودنياهم ، وعاقبتهم .

* يعجب تعالى عباده ، من حالة المنافقين .

[الذين يزعمون أنهم آمنوا] بما جاء به الرسول وبما قبله .
ومع هذا [يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت] وهو كل من حكم
بغير شرع الله فهو طاغوت .

والحال أنهم [قد أمروا أن يكفروا به] فكيف يجتمع هذا والإيمان؟
فإن الإيمان يقتضى الاقبياد لشرع الله وتحكيمه ، فى كل أمر من الأمور .
فمن زعم أنه مؤمن ، واختار حكم الطاغوت على حكم الله ، فهو كاذب
فى ذلك .

رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ
مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ
عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

وهذا من إضلال الشيطان إياهم ، ولهذا قال :

[ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً] عن الحق .

[فكيف] يكون حال هؤلاء الضالين [إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت

أيديهم] من المعاصي ، ومنها تحكيم الطاغوت؟! .

[ثم جاءوك] معتذرين لما صدر منهم ، و[يخلفون بالله إن أردنا إلا

إحساناً وتوفيقاً] أى : ما قصدنا فى ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين

والتوفيق بينهم ، وهم كذبة فى ذلك .

فإن الإحسان ، تحكيم الله ورسوله .

ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .

ولهذا قال :

[أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم] أى : من النفاق والقصد السيء .

[فأعرض عنهم] أى : لاتبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقترفوه .

[وعظهم] أى : بين لهم حكم الله تعالى ، مع الترغيب فى الاتقياء لله ،

والترهيب من تركه .

[وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً] أى : انصحهم سراً ، بينك وبينهم ،

﴿٦٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

فإنه أنجح لحصول المقصود ، وبالغ في زجرهم وقمعهم ، عما كانوا عليه .
وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي ، وإن أعرض عنه ، فإنه ينصح
سراً ، ويبالغ في وعظه ، بما يظن حصول المقصود به .

* يخبر تعالى خبراً ، في ضمنه الأمر ، والحث على طاعة الرسول ، والالتقياده .

وأن الغاية من إرسال الرسل ، أن يكونوا مطاعين ، يتقاد لهم المرسل
إليهم في جميع ما أمروا به ، ونهوا عنه ، وأن يكونوا معظمين ، تعظيم
المطاع من المطيع .

وفي هذا إثبات عصمة الرسل ، فيما يبلغونه عن الله ، وفيما يأمرون به
وينهون عنه .

لأن الله ، أمر بطاعتهم مطلقاً ، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون
ما هو خطأ ، لما أمر بذلك مطلقاً .

وقوله : [بإذن الله] أي : الطاعة من المطيع ، صادرة بقضاء الله وقدره .

ففيه إثبات القضاء والقدر ، والحث على الاستعانة بالله ، وبيان أنه
لا يمكن الإنسان — إن لم يعنه الله — أن يطيع الرسول .

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده ، ودعوته لمن اقرتوا السيئات —
أن يعترفوا ويتوبوا ، ويستغفروا الله فقال :

يُحْكُمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا
قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

[ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك] أى : معترفين بذنوبهم ،
باخمين بها .

[فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيمًا] أى لتاب
عليهم بمغفرته ظلمهم ، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها ، والثواب عليها .

س وهذا المجيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، مختص بحياته ، لأن
السياق يدل على ذلك ، لكون الاستغفار من الرسول ، لا يكون إلا في حياته .

وأما بعد موته ، فإنه لا يطلب منه شيء ، بل ذلك شرك .

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة ، أنهم لا يؤمنون ، حتى يحكموا رسوله ،
فيما شجر بينهم أى : في كل شيء يحصل فيه اختلاف .

بخلاف مسائل الإجماع ، فإنها لا تسكون إلا مستندة للكتاب والسنة .
ثم لا يكفي هذا التحكيم ، حتى ينتفى الحرج من قلوبهم والضييق ، وكونهم
يحكمونه على وجه الإغماض .

ثم لا يكفي هذا التحكيم ، حتى يساموا لحكمه تساماً ، بانسراح صدر ،
وطمأنينة نفس ، واثقياد بالظاهر والباطن .

فالتحكيم ، في مقام الإسلام ، وانتفاء الحرج ، في مقام الإيمان ، والتسليم
في مقام الإحسان .

فن استكمل هذه المراتب ، وكملها ، فقد استكمل مراتب الدين كلها .

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا
مِن دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ

ومن ترك هذا التحكيم المذكور ، غير ملتزم له ، فهو كافر .
ومن تركه — مع التزامه — فله حكم أمثاله من العصاة .
* يخبر تعالى ، أنه لو كتب على عباده ، الأوامر الشاقة على النفوس ،
من قتل النفوس ، والخروج من الديار ، لم يفعله إلا القليل منهم والناذر .
فليحمدوا ربهم ، وليشكروه ، على تيسير ما أمرهم به ، من الأوامر
التي تسهل على كل أحد ، ولا يشق فعلها .
وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي ، أن يلحظ العبد ، ضد ما هو فيه ،
من المكروهات ، لتخفف عليه العبادات ، ويزداد حمداً وشكراً لربه .
ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به ، أى : ما وُظف عليهم ، فى كل
وقت بحسبه ، فبذلوا همهم ، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله ، ولم تطمح
نفوسهم لما لم يصلوا إليه ، ولم يكونوا بصدده ، وهذا هو الذى ينبغى للعبد ،
أن ينظر إلى الحالة التى يلزمه القيام بها ، فيكملها ، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً ،
حتى يصل إلى ما قدر له ، من العلم والعمل ، فى أمر الدين والدنيا .
وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ، ولم يؤمر به بعد ،
فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق المهمة ، وحصول الكسل ،
وعدم النشاط .

ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به ، وهو أربعة أمور :
(أحدها) الخيرية فى قوله [لكن خيراً لهم] أى : لكانوا من الأخيار
المتصفين بأوصافهم ، من أفعال الخير ، التى أمروا بها .

لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَيْنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

أى : وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار ، لأن ثبوت الشيء ، يستلزم
نفي ضده .

(الثانى) حصول التثبيت والثبات وزيادته ، فإن الله يثبت الذين آمنوا
بسبب ما قاموا به من الإيمان ، الذى هو القيام بما وعظوا به .

فيثبتهم فى الحياة الدنيا ، عند ورود الفتن فى الأوامر ، والنواهي ، والمصائب .
فيحصل لهم ثبات ، يوفقون به لفعل الأوامر ، وترك الزواجر ، التى
تقتضى النفس فعلها ، وعند حلول المصائب ، التى يكرهها العبد .

فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا ، أو الشكر .

فينزل عليه معونة من الله ، للقيام بذلك ، ويحصل له الثبات على الدين ،
عند الموت وفى القبر .

وأيضاً فإن العبد التائم بما أمر به ، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية ،
حتى يألفها ، ويشتاق إليها وإلى أمثالها ، فيكون ذلك معونة له على الثبات
على الطاعات .

* (الثالث) قوله [وَإِذَا لَا تَيْنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا] أى فى العاجل
والآجل ، الذى يكون للروح والقلب ، والبدن ، ومن النعيم المقيم ، مما لا عين
رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

(الرابع) الهداية إلى صراط مستقيم .

وهذا عموم بعد خصوص ، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم ، من كونها

﴿٧٠﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ
وَحَسَنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

متضمنة للعلم بالحق ، ومحبة وإيثاره به ، والعمل به ، وتوقف السعادة والفلاح ،
على ذلك .

فن هدى إلى صراط مستقيم ، فقد وفق لكل خير ، واندفع عنه ،
كل شر وضير .

* أى : كل من أطاع الله ورسوله — على حسب حاله ، وقدر الواجب
عليه ، من ذكر وأتى وصغير وكبير .

[فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم] أى : النعمة العظيمة التى تقتضى
الكمال والفلاح ، والسعادة

[من النبیین] الذين فضلهم الله بوحيه ، واختصهم بتفضيلهم ، بإرسالهم
إلى الخلق ، ودعوتهم إلى الله تعالى .

[والصدیقین] وهم : الذين كمل تصديقهم ، بما جاءت به الرسل ، فعملوا
الحق ، وصدقوه بيقينهم ، وبالقيام به ، قولاً ، وعملاً ، وحالاً ، ودعوة إلى الله .

[والشهداء] الذين قاتلوا فى سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، فقتلوا .

[والصالِحین] الذين صلح ظاهرهم وباطنهم ، فصلحت أعمالهم .

فكل من أطاع الله تعالى ، كان مع هؤلاء فى صحبتهم .

[وحسن أولئك رفیقاً] بالاجتماع بهم ، فى جنات النعيم ، والإنس

بقرهم ، فى جوار رب العالمين .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَءَانْفِرُوا ثَبَاتٍ
أَوْ ءَانْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيَبْطُنَنَّ فَإِن أَصَبَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ

[ذلك الفضل] الذى نالوه [من الله] .

فهو الذى وقفهم لذلك ، وأعانهم عليه ، وأعطاهم من الثواب ، مالا
تبلغه أعمالهم .

[وكفى بالله علماً] ، يعلم أحوال عباده ، ومن يستحق منهم الثواب
الجزيل ، بما قام به ، من الأعمال الصالحة ، التى تواطأ عليها القلب والجوارح .

* يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين .

وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب ، التى بها يستعان على قتالهم ، ويستدفع
مكرهم وقوتهم ، من استعمال الحصون والخنادق ، وتعلم الرمي والركوب ،
وتعلم الصناعات التى تعين على ذلك ، وما به يعرف مداخلهم ، ومخارجهم ،
ومكرهم ، والنفير فى سبيل الله .

ولهذا قال : [فأنفروا ثبات] أى : متفرقين بأن تنفر سرية أو جيش
ويقيم غيرهم [أو انفروا جميعاً] .

وكل هذا ، تبع للمصلحة ، والنكاية ، والراحة للمسلمين فى دينهم .

وهذه الآية نظير قوله تعالى [وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة] .

ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال :

[وإن منكم] أى أيها المؤمنون [لمن ليبتئن] أى يتناقل عن الجهاد

فى سبيل الله ، ضعفاءً ، وخوراً ، وجبناً . هذا هو الصحيح .

قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ
فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِئْتَنِي

وقيل معناه : ليطئن غيره ، أى يزهده عن القتال ، وهؤلاء ، هم المنافقون
ولكن الأول أولى ، لوجهين :

أحدهما قوله [منكم] والخطاب للمؤمنين .

والثانى : قوله فى آخر الآية : [كأن لم تكن بينكم وبينه مودة] .

فإن الكفار ، من المشركين ، والمنافقين ، قد قطع الله بينهم ، وبين
المؤمنين المودة .

وأيضاً ، فإن هذا ، هو الواقع ، فإن المؤمنين على قسمين :

صادقون فى إيمانهم ، أوجب لهم ذلك ، كمال التصديق والجهاد .

وضعفاء ، دخلوا فى الإسلام ، فصار معهم إيمان ضعيف ، لا يقوى
على الجهاد .

كما قال تعالى [قالت الأعراب آمنوا ولكن قولوا أسلمنا]
إلى آخر الآيات .

ثم ذكر غايات هؤلاء المتثاقلين ، ونهاية مقاصدهم ، وأن معظم قصدهم ،
الدنيا وحطامها فقال :

[فإن أصابتكم مصيبة] أى : هزيمة ، وقتل ، وظفر الأعداء عليكم
فى بعض الأحوال ، لما لله فى ذلك من الحكم .

[قال] ذلك المتخلف [قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيداً] .

كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزُ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ

رأى — من ضعف عقله وإيمانه — أن التقاعد عن الجهاد — الذى فيه تلك المصيبة — نعمة .

ولم يدر أن النعمة الحقيقية ، هى التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة ، التى بها يقوى الإيمان ، ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران ، ويحصل له فيها ، عظيم الثواب ، ورضا الكريم الوهاب .

وأما القعود ، فإنه ، وإن استراح قليلا ، فإنه يعقبه تعب طويل ، وآلام عظيمة ، ويفوته ما يحصل للمجاهدين (أى من الأجر العظيم) .

ثم قال [ولئن أصابكم فضل من الله] أى : نصر وغنيمة .
ما يحصل للمجاهدين .

ثم قال [ولئن أصابكم فضل من الله] أى : نصر وغنيمة [ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً] .

أى : يتمنى أنه حاضر ، لينال من المغانم . ليس له رغبة ، ولا قصد ، فى غير ذلك .

كأنه ليس منكم ، يامعشر المؤمنين — ولا بينكم ، وبينه المودة الإيمانية ، التى من مقتضاها ، أن المؤمنين مشتركون فى جميع مصالحهم ، ودفع مضارهم ، يفرحون بحصولها ، ولو على يد غيرهم ، من إخوانهم المؤمنين ، وبألمون بفقدها ، ويسعون جميعاً ، فى كل أمر يصلحون به دينهم ودينامهم .

فهذا الذى يتمنى الدنيا فقط ، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة .

ومن لطف الله بعباده ، أن لا يقطع عنهم رحمته ، ولا يفلت عنهم أبوابها .

يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ
أَوْ يُغْلَبْ قَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

بل من حصل على غير ما يليق أمره ، دعاه إلى جبر نقصه ، وتكميل نفسه .

فلهذا أمر هؤلاء ، بالإخلاص ، والخروج في سبيله فقال :

* [فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة] .

هذا أحد الأقوال في هذه الآية ، وهو أصحها .

وقيل : إن معناه ، فليقاتل في سبيل الله ، المؤمنون الكاملو الإيمان ،

الصادقون في إيمانهم .

[الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة] أى يبيعون الدنيا ، رغبة عنها

بالآخرة ، رغبة فيها .

فإن هؤلاء الذين يوجه إليهم الخطاب ، لأنهم ، الذين قد أعدوا أنفسهم ،

ووطنوها على جهاد الأعداء لما معهم من الإيمان التام ، المقتضى لذلك .

وأما أولئك المتشاقلون ، فلا يعاب بهم ، خرجوا أو قعدوا .

فيكون هذا ، نظير قوله تعالى :

[قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ، إن الذين أتوا العلم من قبله إذا يتلى

عليهم يخرون للأذقان سجداً] إلى آخر الآيات .

وقوله [فإن يكفر بها هؤلاء ، فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين] .

وقيل : إن معنى الآية : فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار ، الذين يشرون

الحياة الدنيا بالآخرة .

فيكون على هذا الوجه « الذين » في محل نصب على المفعولية .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ ﴿٧٥﴾

[ومن يقاتل في سبيل الله] بأن يكون جهاداً ، قد أمر الله به ورسوله ، ويكون العبد مخلصاً لله فيه ، قاصداً وجه الله .

[فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً] زيادة في إيمانه ودينه ، وغنيمة ، وثناء حسناً ، وثواب المجاهدين في سبيل الله الذين أعد الله لهم في الجنة ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

* هذا حث من الله لعباده المؤمنين ، وتهيبج لهم على القتال في سبيله وأن ذلك ، قد تعين عليهم ، وتوجه اللوم العظيم عليهم ، بتركه فقال :

[وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله] والحال أن المستضعفين من الرجال ، والنساء ، والولدان ، الذين لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلاً ومع هذا ، فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم .

فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم ، بالكفر ، والشرك ، وللمؤمنين بالأذى ، والصد عن سبيل الله ، ومنعهم من الدعوة لدينهم ، والهجرة .

ويدعون الله ، أن يجعل لهم ولياً ونصيراً ، يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ قَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦)

فصار جهادكم على هذا الوجه ، من باب القتال ، والذب عن عيالاتكم^(١) وأولادكم ، ومحارمكم ، لأن باب الجهاد ، الذى هو الطمع فى الكفار فإنه ، وإن كان فيه فضل عظيم ، ويلازم المتخلف عنه أعظم اللوم . فالجهاد الذى فيه استنقاذ المستضعفين منكم ، أعظم أجراً ، وأكبر فائدة بحيث يكون من باب دفع الأعداء .

ثم قال [الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله] الآية .

* هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون فى سبيله [والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت] الذى هو الشيطان . فى ضمن ذلك عدة فوائد :

منها : أنه بحسب إيمان العبد ، يكون جهاده فى سبيل الله ، وإخلاصه ، ومتابعته .

فالجهاد فى سبيل الله ، من آثار الإيمان ، ومقتضياته ولو أزمه .

كما أن القتال فى سبيل الطاغوت ، من شعب الكفر ومقتضياته .

ومنها : أن الذى يقاتل فى سبيل الله ، ينبغى له ، ويحسن منه ، من

الصبر والجلد ، مالا يقوم به غيره .

(١) قوله (عيالاتكم) معناه الدفاع عن نساءكم وأطفالكم والمحافظة

عليهم بأن لا يتعرضوا للوقوع فى أيدي الأعداء .

فإذا كان أولياء الشيطان ، يصبرون ، ويقاتلون ، وهم على باطل ، فأهل الحق أولى بذلك ، كما قال تعالى في هذا المعنى :

[إن تكونوا تأمنون فإنهم يأمنون كما تأمنون ، وترجون من الله ما لا يرجون] الآية .

ومنها أن الذى يقاتل فى سبيل الله ، معتمداً على ركن وثيق ، وهو الحق ، والتوكل على الله .

فصاحب القوة ، والركن ، يطلب منه ، من الصبر والثبات ، والنشاط

ملا يطلب ممن يقاتل ، عن الباطل ، الذى لاحقيقة له ، ولاعاقبة حميدة .

فلهذا قال تعالى :

(فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) .

والكيد : سلوك الطرق الخفية ، الذى فيه إلحاق الضرر بالعدو .

فالشيطان ، وإن بلغ مكره مهما بلغ ، فإنه فى غاية الضعف ، الذى لا يقوم لأدنى شىء من الحق ، ولا لكيد الله لعباده المؤمنين .

﴿وَالَّذِينَ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ

* كان المسلمون — إذ كانوا بمكة — مأمورين بالصلاة والزكاة ، أى :
مواساة الفقراء ، لا الزكاة المعروفة ، ذات النصب والشروط ، فإنها لم
تفرض إلا بالمدينة ، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء ، لعدة فوائد :

منها : أن من حكمة البارئ تعالى ، أن يشرع لعباده ، الشرائع ، على
وجه لا يشق عليهم ؛ ويبدأ بالأهم ، والأسهل فالأسهل .

ومنها : أنه لو فرض عليهم القتال — مع قلة عددهم وعددهم ، وكثرة
أعدائهم — لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام .

فروعى جانب المصلحة العظمى ، على مادونها ، ولنغير ذلك
من الحكم .

وكان بعض المؤمنين ، يودون أن لو فرض عليهم القتال فى تلك الحال ،
غير اللائق فيها ذلك .

وإنما اللائق فيها ، القيام بما أمروا به فى ذلك الوقت ، من التوحيد ،
والصلاة ، والزكاة ونحو ذلك كما قال تعالى :

[ولوأنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا] .

فلما هاجروا إلى المدينة ، وقوى الإسلام ، كتب عليهم القتال ، فى
وقته المناسب لذلك .

قال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك ، خوفا من الناس ،
ضعفا وخورا : [ربنا لم كتبت علينا القتال ؟] .

يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ
عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلًا

وفي هذا تضرعهم ، واعتراضهم على الله .

وكان الذي ينبغي لهم ، ضد هذه الحال — التسليم لأمر الله ، والصبر
على أوامره .

فمكسوا الأمر المطلوب منهم ، فقالوا [لولا أخرتنا إلى أجل قريب]

أى : هلا أخرت فرض القتال ، مدة متأخرة عن الوقت الحاضر .

وهذه الحال ، كثيرا ما تعرض لمن هو غير رزين ، واستعجل في

الأمور قبل وقتها .

فالغالب عليه ، أنه لا يصبر عليها وقت حلولها ، ولا ينوء بحملها ، بل

يكون قليل الصبر .

ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال ، التي فيها التخلف عن القتال فقال :

[قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى] أى : التمتع ببلذات

الدنيا وراحتها ، قليل .

فتحمل الأثقال في طاعة الله ، في المدة القصيرة ، مما يسهل على النفوس

ويخف عليها .

لأنها ، إذا علمت أن المشقة التي تنالها ، لا يطول لبثها ، هان

عليها ذلك .

فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة ، وأن الآخرة خير منها ،

في ذاتها ، ولذاتها ، وزمانها .

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

فذاتها - كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الثابت عنه -
« أن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها » .

ولذاها ، صافية عن المكدرات ، بل كل ما خطر بالبال ، أو دار في
الفكر ، من تصور لذة - فإذة الجنة فوق ذلك كما قال تعالى .

[فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين] .

وقال الله على لسان نبيه « أعددت لعبادى الصالحين ، مالا عين رأت ،
ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وأما لذات الدنيا ، فإنها مشوبة بأنواع التنغيص ، الذى لو قوبل بين
لذاتها ، وما يقترن بها من أنواع الآلام ، والهجوم والغوم ، لم يكن لذلك
نسبة بوجه من الوجوه .

وأما زمانها ، فإن الدنيا منقضية ، وعمر الإنسان - بالنسبة إلى الدنيا -
شئ يسير .

وأما الآخرة ، فإنها دائمة النعيم ، وأهلها خالدون فيها .

فإذا فكر العاقل فى هاتين الدارين ، وتصور حقيقتهما حق التصور ،
عرف ما هو أحق بالإيثار ، والسعى له ، والاجتهاد لطلبه ، ولهذا قال :

[والآخرة خير لمن اتقى] أى : اتقى الشرك ، وسائر المحرمات .

[ولا تظلمون فتيلًا] أى : فسعيكم للدار الآخرة ، ستجدونه كاملاً

موفراً ، غير منقوص منه شيئاً .

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ
مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ
سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ

* ثم أخبر أنه لا يفتى حذر عن قدر ، وأن القاعد لا يدفع عنه قعوده
شيئا فقال :

[أينما تكونوا يدرِككم الموت] أى : فى أى زمان ، وأى مكان .
[ولو كنتم فى بروج مشيدة] أى : قصور منيعة ، ومنازل رفيعة .
وكل هذا حث على الجهاد فى سبيل الله ، تارة بالترغيب فى
فضله وثوابه . وتارة بالترهيب من عقوبة تركه ، وتارة بالإخبار أنه لا ينفذ
القاعدين قعودهم ، وتارة بتسهيل الطريق فى ذلك ، وقصرها .
ثم قال [وإن تصيبهم حسنة] الآية .

يخبر تعالى ، عن الذين لا يعلمون ، المعرضين عما جاءت به الرسل ،
المعارضين لهم : أنهم إذا جاءتهم حسنة ، أى : خصب وكثرة أموال ،
وتوفر أولاد وصحة ، قالوا .

[هذه من عند الله] وأنهم ، إن أصابتهم سيئة أى : جذب ، وقر ،
ومرض ، وموت أولاد وأحباب قالوا :

[هذه من عندك] أى : بسبب ما جئتنا به يا محمد .
تطيروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تطير أمثالهم برسول الله ،
كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم [إذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه وإن
تصيبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه] .
وقال قوم صالح [اطيننا بك وبمن معك] .

الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثَنَا ﴿٧٨﴾

وقال قوم ياسين لرسلمهم [إنا تطيرنا بكم ، لئن لم تنتهوا لترجنكم] الآية .
فلما تشابهت قلوبهم بالكفر ، تشابهت أقوالهم وأفعالهم .
وهكذا كل من نسب حصول الشر ، أو زوال الخير ، لما جاءت به
الرسل أو لبعضه ، فهو داخل في هذا الذم الوخيم .
قال الله في جوابهم [قل كل] أى من الحسنة والسيئة ، والخير والشر .
[من عند الله] أى : بقضائه وقدره ، وخلقه .
[فما لهؤلاء القوم] أى : الصادر منهم تلك المقالة الباطلة .
[لا يكادون يفقهون حديثاً] أى : لا يفهمون حديثاً بالكلية ، ولا يقربون
من فهمه ، أو لا يفهمون منه ، إلا فهما ضعيفا .
وعلى كل ، فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله ، وعن
رسوله ، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم .
وفى ضمن ذلك ، مدح من يفهم عن الله وعن رسوله ، والحث على
ذلك ، وعلى الأسباب المعينة على ذلك ، من الإقبال على كلامها وتدبره ،
وسلوك الطرق الموصلة إليه .
فلو فقهوا عن الله ، لعلموا أن الخير والشر ، والحسنات والسيئات ،
كلها بقضاء الله وقدره ، لا يخرج منها شيء عن ذلك .
وأن الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، لا يكونون سببا لشر يحدث ،
لام ، ولا ما جاءوا به ، لأنهم بعثوا بمصالح الدنيا والآخرة والدين .

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٧٩)

* ثم قال تعالى [ما أصابك من حسنة] أى : فى الدين والدنيا [فمن الله] هو الذى منَّ بها ويسرها بتيسير أسبابها .

[وما أصابك من سيئة] فى الدين والدنيا (فمن نفسك) أى : بذنوبك وكسبك ، وما يعفو الله عنه أكثر .

فإنه تعالى ، قد فتح لعباده أبواب إحسانه ، وأمرهم بالدخول لبره وفضله ، وأخبرهم أن المعاصى مانعة من فضله .

فإذا فعلها العبد ، فلا يلومن إلا نفسه ، فإنه المانع لنفسه ، عن وصول فضل الله وبره .

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فقال :
[وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا] على أنك رسول الله حقاً بما أيدك بنصره ، والمعجزات الباهرة ، والبراهين الساطعة ، فهى أكبر شهادة على الإطلاق .

كما قال تعالى : [قل أى شئ أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بينى وبينكم] .

فإذا علم أن الله تعالى ، كامل العلم ، وتام القدرة ، عظيم الحكمة ، وقد أيد الله رسوله بما أيدته ، ونصره نصراً عظيماً ، يتقن بذلك ، أنه رسول الله .

وإلا فلو تقول عليه بعض الأقاويل ، لأخذ منه بالبين ، ثم لقطع منه الوتين .

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ

* أى : كل من أطاع رسول الله فى أوامره ونواهيه (فقد أطاع الله) تعالى ، لكونه لا يأمر ولا ينهى ، إلا بأمر الله ، وشرعه ، ووحيه وتنزيله . وفى هذا عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الله أمر بطاعته مطلقاً . فلولا أنه معصوم فى كل ما يبلغ عن الله ، لم يأمر بطاعته مطلقاً ، ويمدح على ذلك .

وهذا من الحقوق المشتركة ، فإن الحقوق ثلاثة :
حق الله تعالى ، لا يكون لأحد من الخلق ، وهو عبادة الله ، والرغبة إليه ، وتوابع ذلك .

وقسم مختص بالرسول ، وهو التعزيز ، والتوقير ، والنصرة .
وقسم مشترك ، وهو الإيمان بالله ورسوله ، ومحبتهم وطاعتهم .
كما جمع الله بين هذه الحقوق فى قوله [لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً] .

فمن أطاع الرسول ، فقد أطاع الله ، وله من الثواب والخير ، مراتب على طاعة الله .

[ومن تولى] عن طاعة الله ورسوله ، فإنه لا يضر إلا نفسه ، ولا يضر الله شيئاً .

[فما أرسلناك عليهم حفيظاً] أى : تحفظ أعمالهم ، وأحوالهم ، بل أرسلناك مبلغاً ومبيناً وناصحاً .

بَيْتَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ
عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴿٢٠٠﴾

وقد أدبت وظيفتك ، ووجب أجرك على الله ، سواء اهتدوا ،
أم لم يهتدوا .

كما قال تعالى [فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر] الآية .
ولا بد أن تسكون طاعة الله ورسوله ، ظاهراً وباطناً ، في الحضرة
والغيب .

فأما من يظهر في الحضرة ، الطاعة والالتزام ، فإذا خلا بنفسه ، أو أبناء
جنسه ، ترك الطاعة ، وأقبل على ضدها ، فإن الطاعة التي أظهرها ، غير
نافعة ولا مفيدة ، وقد أشبه من قال الله فيهم :

[يقولون طاعة] أي : يظهرون الطاعة إذا كانوا عندك .

[فإذا برزوا من عندك] أي : خرجوا ، وخلوا في حالة لا يطلع
فيها عليهم .

[بيت طائفة منهم غير الذي تقول] أي : يتنوا ودبروا غير طاعتك
ولا ثم إلا العصية .

وفي قوله [بيت طائفة منهم غير الذي تقول] دليل على أن الأمر الذي
استقروا عليه ، غير الطاعة ، لأن التثبيت ، تدبير الأمر ليلاً ، على وجه
يستقر عليه الرأي .

ثم توعدهم على ما فعلوا فقال :

[والله يكتب ما يبيتون] أي : يحفظه عليهم ، وسيجازيهم عليه أتم

الجزاء ، فقيه وعيد لهم .

﴿١٨٢﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ
لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿١٨٢﴾

ثم أمر رسوله ، بمقابلتهم بالإعراض ، وعدم التعنيف ، فإنهم لا يضرونه شيئاً ، إذا توكل على الله ، واستعان به ، في نصر دينه ، وإقامة شرعه .
ولهذا قال [فأعرض عنهم وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلاً] .
* يأمر تعالى بتدبر كتابه ، وهو : التأمل في معانيه ، وتحديق الفكر فيه ، وفي مبادئه وعواقبه ، ولوازم ذلك .
فإن في تدبر كتاب الله مفتاحاً للعلوم والمعارف ، ويستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم .
وبه يزداد الإيمان في القلب ، وترسخ شجرته .
فإنه يعرف بالرب المعبود ، وماله من صفات الكمال ؛ وما يميزه عنه من سمات النقص .
ويعرف الطريق الموصلة إليه ، وصفة أهلها ، وما لهم عند القدوم عليه .
ويعرف العدو ، الذي هو العدو على الحقيقة ؛ والطريق الموصلة إلى العذاب ؛ وصفة أهلها ؛ وما لهم عند وجود أسباب العقاب .
وكما ازداد العبد تأملاً فيه ، ازداد علماً ، وعملاً ، وبصيرة .
ولذلك أمر الله بذلك ، وحث عليه ، وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن ، كما قال تعالى :
[كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب] .

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ أَلْحَافٍ أَذَاعُوا بِهِ
وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

وقال تعالى [أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها] .

ومن فوائد التدبر لكتاب الله : أنه بذلك ، يصل العبد إلى درجة اليقين ، والعلم بأنه كلام الله ، لأنه يراه ، يصدق بعضه بعضاً ، ويوافق بعضه بعضاً .

فترى الحكم والقصة والأخبار ، تعاد في القرآن ؛ في عدة مواضع ، كلها متوافقة متصادقة ، لا ينقض بعضها بعضاً .

فبذلك يعلم كمال القرآن ، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور .
فذلك قال تعالى [ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
اختلافاً كثيراً] .

أي : فلما كان من عند الله ؛ لم يكن فيه اختلاف أصلاً .

* هذا تأديب من الله لعباده ، عن فعلهم هذا ، غير اللائق .

وأنه ينبغي لهم ، إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة ، والمصالح العامة ، ما يتعلق بالأمن ، وسرور المؤمنين ، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم ، أن يتثبتوا ، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر .

بل يردونه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم ، أهل الرأي ، والعلم والنصح ، والعقل ، والرزانة ، الذين يعرفون الأمور ، ويعرفون المصالح وضدها .

يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨٣﴾

فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطا للمؤمنين ، وسرورا لهم ، وتحريزا
من أعدائهم ، فعلوا ذلك .

وإن رأوا مافيه مصلحة ، أو فيه مصلحة ، ولكن مضرته تزيد على
مصلحته ، لم يذيعوه .

ولهذا قال [لعلمه الذين يستنبطونه منهم] أى : يستخرجونه بفسكرهم
وآرائهم السديدة ، وعلومهم الرشيدة .

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية ، وهى أنه إذا حصل بحث فى أمر من
الأمر ، ينبغى أن يولى من هو أهل لذلك ، ويجعل إلى أهله ، ولا يتقدم
بين أيديهم ، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ .

وفيه النهى عن العجلة والتسرع ، لنشر الأمور ، من حين سماعها .
والأمر بالتأمل قبل الكلام ، والنظر فيه ، هل هو مصلحة ، فيقدم
عليه الإنسان ، أم لا ؟ فيحجم عنه ؟

ثم قال تعالى : [ولولا فضل الله عليكم ورحمته] أى فى توفيقكم ،
وتأديبكم ، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون .

[لاتبعتم الشيطان إلا قليلا] لأن الإنسان بطبعه ، ظالم جاهل ، فلا
تأمره نفسه إلا بالشر .

فإذا لجأ إلى ربه ، واعتصم به ، واجتهد فى ذلك ، لطف به ربه ، ووقفه
لكل خير ، وعصمه من الشيطان الرجيم .

﴿١٨٤﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ
الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا
وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿١٨٤﴾

* هذه الحالة، أفضل أحوال العبد، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله، من الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه.

وقد يعدم في العبد، الأمران أو أحدهما، فلهذا قال لرسوله :

[فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك] أى : ليس لك قدرة على غير نفسك ، فلن تكلف بفعل غيرك .

[وحرص المؤمنين] على القتال ، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين ، وقوة قلوبهم ، من تقويتهم ، والإخبار بضعف الأعداء ، وفشلهم ، وبما أعد للمقاتلين من الثواب ، وما على المتخلفين من العقاب .
فهذا وأمثاله ، كله يدخل في التحريض على القتال .

[عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا] أى : بقتالكم في سبيل الله ، وتحريض بعضكم بعضاً .

[والله أشد بأساً] أى : قوة وعزة [وأشد تنكيلاً] بالذنوب في نفسه ، وتنكيلاً لغيره ، فلو شاء تعالى ، لاتصمر من الكفار بقوته ، ولم يجعل لهم باقية .

ولكن - من حكته - يلو بعض عباده ببعض ، ليقوم سوق الجهاد ، ويحصل الإيمان النافع ، إيمان الاختيار ، لا إيمان الاضطرار والقهر ، الذى لا يفيد شيئاً .

﴿مَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (٨٥)

* المراد بالشفاعة هنا : المعاونة على أمر من الأمور .

فمن شفع غيره ، وقام معه على أمر من أمور الخير - ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم - كان له نصيب من شفاعته ، بحسب سعيه وعمله ، ونفعه ، ولا ينقص من أجر الأصيل أو المباشر ، شيء .

ومن عاون غيره على أمر من الشر ، كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه .

ففي هذا ، الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى ، ، والزجر العظيم ، عن التعاون على الإثم والعدوان .

وقرر ذلك بقوله :

[وكان الله على كل شيء مقتدياً] أى : شاهداً حفيظاً ، حسيباً على هذه الأعمال ، فيجازى كلا ، ما يستحقه .

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (١٨٦)

* التحية هي : اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين ، على وجه الإكرام
والدعاء ، وما يقترن بذلك اللفظ ، من البشاشة ونحوها .

وأعلى أنواع التحية ، ما ورد به الشرع ، من السلام ابتداء ورداً .

فأمر تعالى ، المؤمنين أنهم ، إذا حيوا بأى تحية كانت ، أن يردوها
بأحسن منها ، لفظاً ، وبشاشة ، أو مثلها في ذلك .

ومفهوم ذلك ، النهي عن عدم الرد بالكلية ، أو ردها بدونها .

ويؤخذ من الآية الكريمة ، الحث على ابتداء السلام والتحية ،

من وجهين :

أحدهما : أن الله أمر بردها ، بأحسن منها ، أو مثلها ، وذلك يستلزم
أن التحية ، مطلوبة شرعاً .

والثاني : ما يستفاد من أفضل التفضيل ، وهو « أحسن » الدال على
مشاركة التحية وردها ، بالحسن ، كما هو الأصل في ذلك .

ويستثنى من عموم الآية الكريمة ، من حيا بحال غير مأمور بها ،
كـ « على مشتغل بقراءة ، أو استماع خطبة ، أو مصل ونحو ذلك » فإنه
لا يطلب إجابة تحيته .

وكذلك يستثنى من ذلك ، من أمر الشارع بهجره ، وعدم تحيته ،
وهو العاصي غير التائب ، الذي يرتدع بالهجر ، فإنه يهجر ، ولا يحيا ،
ولا ترد تحيته ، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

ويدخل في رد التحية ، كل تحية اعتادها الناس ، وهي غير محظورة شرعا ، فإنه مأمور بردها وبأحسن منها .

ثم وعد تعالى وتوعد ، على فعل الحسنات والسيئات بقوله [إن الله كان على كل شيء حسيباً] فيحفظ على العباد ، أعمالهم ، حسناتها ، وسيئها ، صغيرها ، وكبيرها ، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله ، وحكمه الحمود .

* يخبر تعالى ، عن انفراده بالوحدانية ، وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو ، لكماله في ذاته وأوصافه ، ولا يكونه المنفرد بالخلق والتدبير ، والنعم الظاهرة والباطنة .

وذلك يستلزم الأمر بعبادته ، والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية .
لكونه المستحق لذلك وحده ، والمجازى للعباد ، بما قاموا به من عبوديته ، أو تركوه منها .

ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء — وهو يوم القيامة — فقال :
[ليجمعنكم] أي : أولكم وآخركم ، في مقام واحد .
[إلى يوم القيامة لا ريب فيه] أي : لا شك ولا شبهة ، بوجه من الوجوه ، بالدليل العقلي ، والدليل السمعي .

فالدليل العقلي ، ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها ، ومن وجود النشأة الأولى ، التي وقوع الثانية ، أولى منها بالإمكان .
ومن الحكمة التي يجزم^(١) ، بأن الله لم يخلق خلقه عبثاً ، يميون ثم يموتون .

(١) قوله (ومن الحكمة التي يجزم الخ) هكذا في الأصل المطبوع ، والعبارة قلقة والأوضح أن يقال : (ومن الحكمة التي يجب على الإنسان أن يجزم به ، أن الله لم يخلق خلقه عبثاً الخ) .

لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

وأما الدليل السمي ، فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك ، بل إقسامه عليه ، ولهذا قال :

[ومن أصدق من الله حديثاً] .

كذلك أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم عليه في غير موضع من القرآن ، كقوله تعالى :

[زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربي لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير] .

وفى قوله [ومن أصدق من الله حديثاً] ، [ومن أصدق من الله قيلاً] إخبار بأن حديثه وأخباره ، وأقواله في أعلى مراتب الصدق ، بل أعلاها . فكل ما قيل في العقائد والعلوم والأعمال ، مما يناقض ما أخبر الله به ، فهو باطل ، لمناقضته للخبر الصادق اليقين ، فلا يمكن أن يكون حقاً .

﴿١٨٨﴾ قَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَّ كَسْبُهُمْ بِمَا
كَسَبُوا أَلْتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ
تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٨٨﴾ وَذُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ
سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا

* المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم،
ولم يهاجروا مع كفرهم .

وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم ، فيهم اشتباه .
فبعضهم تخرج عن قتالهم ، وقطع موالاتهم ، بسبب ما أظهره
من الإيمان .

وبعضهم علم أحوالهم ، بقرائن أفعالهم ، فحكم بكفرهم .
فأخبر عنه تعالى ، أنه لا ينبغي لكم ، أن تشبهوا فيهم ولا تشكوا .
بل أمرهم واضح غير مشكل ، إنهم منافقون ، قد تكرر كفرهم ،
وودوا — مع ذلك — كفركم ، وأن تكونوا مثلهم .
فإذا تحققت ذلك منهم [فلا تتخذوا منهم أولياء] .
وهذا يستلزم عدم محبتهم ، لأن الولاية فرع المحبة .
ويستلزم أيضاً ، بغضهم ، وعداوتهم ، لأن النهي عن الشيء ،
أمر بضده .

وهذا الأمر موقت ، بهجرتهم .
فإذا هاجروا ، جرى عليهم ، ما جرى على المسلمين ، كما كان النبي

فُخِذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ
أَوْ جَاءَوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمَّ

صلى الله عليه وسلم يجرى أحكام الإسلام على كل^(١) من كان معه ،
وهاجر إليه ، سواء كان مؤمنا حقيقة ، أو ظاهر الإيمان .

وأنهم إن لم يهاجروا ، وتولوا عنها [فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم]
أى : فى أى وقت ، وأى محل كان .

وهذا من جملة الأدلة الدالة ، على نسخ القتال فى الأشهر الحرم ، كما هو
قول جمهور العلماء .

والمنازعون يقولون : هذه نصوص مطلقة ، محمولة على تقييد التحريم
فى الأشهر الحرم .

ثم إن الله ، استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ، ثلاث فرق :

فرفقتين أمر بتركهم ، وحتم على ذلك .

إحداها ، من يصل إلى قوم ، بينهم وبين المسلمين ، عهد وميثاق بترك

القتال ، فينضم إليهم ، فيكون له حكمهم ، فى حقن الدم والمال .

(١) فى الأصل (فكل من كان معه وهاجر إليه وسواء الخ)

والصواب أن يقال (على كل من كان معه وهاجر إليه سواء الخ) فلذلك

صححنا ما فى الأصل بحذف الفاء من كلمة (فكل) وحذف الواو من (وسواء)

كما ترى لينتظم الكلام ، ، ويتضح المعنى .

يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا بِكُمْ وَيَأْمِنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوْا
إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ

والفرقة الثانية قوم [حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم].
أى: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأجبا
ترك قتال الفريقين.

فهؤلاء أيضاً، أمر بتركهم، وذكر الحكمة في ذلك بقوله:
[ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم] فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:
إما أن يكونوا معكم، وقاتلوا أعداءكم. وهذا متعذر من هؤلاء.
فدار الأمر، بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو
أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم.
فأقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذى كف أيديهم عنكم، مع التمكن
من ذلك.

ف[هؤلاء إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم
عليهم سبيلاً].

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم.
وهم الذين قال الله فيهم [ستجدون آخرين] أى: من هؤلاء المنافقين.
[يريدون أن يأمنوكم] أى: خوفاً منكم [ويأمنوا قومهم كلما ردوا
إلى الفتنة أركسوا فيها] أى: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

الْسَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخَذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْفَتُمُوهُمْ
وَأَوْلَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

وكما عرض لهم عارض من عوارض الفتن ، أعمامهم ، ونكسهم على
رءوسهم ، وازداد كفرهم ونفاقهم .

وهؤلاء في الصورة — كالفرقة الثانية ، وفي الحقيقة ، مخالفة لها .

فإن الفرقة الثانية ، تركوا قتال المؤمنين ، احتراماً لهم ، لا خوفاً
على أنفسهم .

وأما هذه الفرقة ، فتركوه خوفاً ، لا احتراماً .

بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين ، فإنهم سيقدمون لانتهازها .

فهؤلاء إن لم يتبين منهم ، ويتضح اتضاعاً عظيماً ، اعتزال المؤمنين
وترك قتالهم ، فإنهم يقاتلون .

ولهذا قال [فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم] أي المسالمة والموادعة .

[ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث تقفتهموهم وأولئك جعلنا لكم
عليهم سلطاناً مبيناً] أي : حجة بينة واضحة ، لكونهم معتدين ظالمين
لكم تاركين للمسالمة ، فلا يلوموا إلا أنفسهم .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ

* وهذه الصيغة من صيغ الامتناع .

أى : يمتنع ويستحيل ، أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن أى : متعمداً .
وفى هذا ، الإخبار بشدة تحريمه ، وأنه منافع للإيمان ، أشد منافاة .
وإنما يصدر ذلك ، إما من كافر ، أو من فاسق ، قد نقص إيمانه نقصاً
عظيماً ، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك .

فإن الإيمان الصحيح ، يمنع المؤمن من قتل أخيه ، الذى قد عقد الله بينه
وبينه ، الأخوة الإيمانية ، التى من مقتضاها ، محبته وموالاته ، وإزالة
ما يعرض لأخيه من الأذى ، وأى أذى أشد من القتل ؟ .

وهذا يصدق قوله صلى الله عليه وسلم « لا ترجعوا بعدي كفاراً ، يضرب
بعضكم رقاب بعض » .

فعلم أن القتل من الكفر العملى ، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله .
ولما كان قوله [وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً] لفظاً عاماً ، لجميع
الأحوال ، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه ، بوجه من الوجوه ، استثنى تعالى
قتل الخطأ فقال :

[إلا خطأ] فإن الخطىء الذى لا يقصد القتل ، غير آثم ، ولا مجترىء
على محارم الله .

ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعاً ، وصورته كافية فى قبحه ، وإن
لم يقصده - أمر تعالى بالكفارة والدية فقال [ومن قتل مؤمناً خطأ] سواء

يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ

كان القاتل ذكراً أو أنثى ، حراً أو عبداً ، صغيراً أو كبيراً ، عاقلاً أو مجنوناً ، مسلماً أو كافراً ، كما يفيد لفظ « من » الدالة على العموم ، وهذا من أسرار الإتيان بـ « من » في هذا الموضع .

فإن سياق الكلام يقتضى أن يقول فإن قتله ، ولكن هذا لفظاً ، لا يشمل ما شمله « من » .

وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى ، صغيراً أو كبيراً ، كما يفيد التنكير في سياق الشرط .

فإن على القاتل [تحرير رقبة مؤمنة] كفارة لذلك ، تكون في ماله ، ويشمل ذلك الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، والصحيح والمعيب ، في قول بعض العلماء .

ولكن الحكمة ، تقتضى أن لا يجزىء عتق المعيب في الكفارة . لأن المقصود بالعتق ، نفع العتيق ، وملكه منافع نفسه .

فإذا كان يضع بعتمه ، وبقاؤه في الرق أنفع له ، فإنه لا يجزىء عتقه . مع أن في قوله « تحرير رقبة » ما يدل على ذلك .

فإن التحرير : تخليص من استحققت منافعها لغيره ، أن تكون له .

فإذا لم يكن فيه منافع ، لم يتصور وجود التحرير .

فتأمل ذلك ، فإنه واضح .

أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

وأما الدية ، فإنها تجب على عاقلة القاتل ، في الخطأ ، وشبه العمد .
[مسلاة إلى أهله] جبراً لقلوبهم .

والمراد بأهله هنا ، هم ورثته ، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت .
فالدية داخلة فيما ترك ، وللذرية تفاصيل كثيرة ، مذكورة في كتب الفقه .
وقوله [إلا أن يصدقوا] أى يتصدق ورثة القتيل بالعبء عن الدية ،
فإنها تسقط .

وفي ذلك حث لهم على العفو ، لأن الله سماها صدقة ، والصدقة مطلوبة
في كل وقت .

[فإن كان] للمقتول [من قوم عدو لكم] أى : من كفار حربيين
[وهو مؤمن فتحريرو رقبة مؤمنة] أى : وليس عليكم لأهله دية ، لعدم
احترامهم في دماهم وأموالهم .

[وإن كان] للمقتول [من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلاة إلى أهله
وتحريرو رقبة مؤمنة] وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق .

[فمن لم يجد] رقبة ولا ثمنها ، بأن كان معسرا بذلك ، ليس عنده
ما يفضل عن مؤنته وحواله الأصلية ، شىء يفي بالرقبة .

[فصيام شهرين متتابعين] أى : لا يفطر بينهما من غير عذر .

فإن أفطر لعذر ، فإن العذر لا يقطع التتابع ، كالمرض ، والحيض ونحوهما .

وإن كان لعذر ، انقطع التتابع ، ووجب عليه استئناف الصوم .

[توبة من الله] أى هذه الكفارات التى أوجبها الله على القاتل ،
توبة من الله على عباده ، ورحمة بهم ، وتكفيراً لما عساه أن يحصل منهم ،
من تقصير ، وعدم احتراز ، كما هو الواقع كثيراً للقاتل خطأ .

[وكان الله عليا حكيما] أى : كامل العلم ، كامل الحكمة ، لا يخفى
عليه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ، ولا أكبر ،
فى أى وقت كان ، وأى محل كان .

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع ، شىء .

بل كل ما خلقه وشرعه ، فهو متضمن لغاية الحكمة .

ومن علمه وحكمته ، أن أوجب على القاتل ، كفارة مناسبة لما
صدر منه .

فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة ، وأخرجها من الوجود إلى العدم .
فناسب أن يعق رقبة ، ويخرجها من رق العبودية للخلق ، إلى
الحرية التامة .

فإن لم يجد هذه الرقبة ، صام شهرين متتابعين .
فأخرج نفسه من رق الشهوات ، واللذات الحسية القاطعة للعبد
عن سعادته الأبدية ، إلى التعمد لله تعالى بتركها ، تقرباً إلى الله .

ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة فى عددها ، ووجوب التابع
فيها ، ولم يشرع الإطعام ، فى هذه المواضع ، لعدم المناسبة .

بخلاف الظهار ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

ومن حكمته ، أن أوجب فى القتل ، الدية ، ولو كان خطأ ، لتسكون

رأفة ، وكافة عن كثير من القتل ، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك (١) ومن حكمته أن أوجبت على العاقلة في قتل الخطأ ، بإجماع العلماء ، لكون القاتل ، لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة .
فناسب أن يقوم بذلك ، من بينه وبينهم ، المعاونة ، والمنصرة ، والمساعدة على تحصيل المصالح ، وكف المفسد .
ولعل ذلك من أسباب منعهم ، لمن يعقلون عنه من القتل ، حذار تحميلهم .
ويخف عليهم بسبب توزيعه عليهم ، بقدر أحوالهم وطاقتهم .
وخفت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين .
ومن حكمته وعلمه ، أن جبر أهل القتل عن مصيبتهم ، بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل .

(١) وليكون أيضاً سداً لباب الاحتيال والكذب فيدعى القاتل أنه إنما صدر القتل منه خطأ ، وفي الواقع أنه تعمد القتل لحد في نفسه على المقتول ، ولكن ليست هناك بينة تكشف كذبه .
فمن حكمة الشارع : أن ألزم الدية على من قتل خطأ ، سداً لتلك الذرائع ، وقمماً للنفوس التي ترتكب الجريمة وتتذرع بأوهى الأسباب خصوصاً في زماننا هذا ، الذي عم فيه الكذب معظم الناس .

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾

* تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن ، وأن القتل من الكفر العملى .

وذكر هنا ، وعيد القاتل عمداً ، وعيداً ترجف له القلوب ، وتنصدع له الأفئدة ، وينزعج منه أولو العقول .

فلم يرد فى أنواع الكبائر ، أعظم من هذا الوعيد ، بل ولا مثله .

ألا : وهو الإخبار ، بأن جزاءه جهنم .

أى : فهذا الذنب العظيم ، قد انتهض وحده ، أن يجازى صاحبه بجهنم ، بما فيها من العذاب العظيم ، والخزى المهين ، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح ، وحصول الخيبة والخسار .

فعياداً بالله ، من كل سبب يبعد عن رحمته .

وهذا الوعيد ، له حكم أمثاله من نصوص الوعيد ، على بعض الكبائر والمعاصى ، بالخلود فى النار ، أو حرمان الجنة .

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله ، فى تأويلها ، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة ، الذين يخلدونهم فى النار ، ولو كانوا موحدين .

والصواب فى تأويلها ، ما قاله الإمام المحقق « شمس الدين ابن القيم رحمه الله فى «المدارج»^(١) فإنه قال - بعد ما ذكر تأويلات الأئمة فى ذلك وابتدأها فقال :

(١) يعنى كتاب « مدارج السالكين » .

وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

وقالت فرقة : إن هذه النصوص وأمثالها ، مما ذكر فيه المقتضى للعقوبة ، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده ، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه .

وغاية هذه النصوص ، الإعلام بأن كذا ، سبب للعقوبة ومقتضى لها . وقد قام الدليل على ذكر الموانع ، فبعضها بالإجماع ، وبعضها بالنص . فالتوبة ، مانع بالإجماع .

والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة ، التي لا مدفع لها .
والحسنات العظيمة الماحية ، مانعة .

والمصائب الكبار المكفرة ، مانعة .

وإقامة الحدود في الدنيا ، مانع بالنص .

ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص ، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين .

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات ، اعتباراً لمقتضى العقاب وموانعه ، وإعمالاً لأرجحها .

قالوا : وعلى هذا ، بناء مصالح الدارين ومفاسدهما .

وعلى هذا ، بناء الأحكام الشرعية ، والأحكام القدرية ، وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود ، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها ، خلقاً وأمرأ .

وقد جعل الله سبحانه لكل ضدًا يدافعه ، ويقاومه ، ويكون

الحكم للأغلب منهما .

فالقوة ، مقتضية للصحة والعافية .
وفساد الأخلاط وبغيها ، مانع من عمل الطبيعة .
وفعل القوة ، والحكم ، للغالب منهما وكذلك قوى الأدوية والأمراض .
والعبد يكون فيه مقتضى للصحة ، ومقتضى للعطب .
وأحدهما ، يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه .
فإذا ترجح عليه وقهره ، كان التأثير له .
ومن هنا يعلم ، انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ، ولا يدخل
النار ، وعكسه .
ومن يدخل النار ثم يخرج منها ، ويكون مكته فيها ، بحسب ما فيه
من مقتضى المكث ، في سرعة الخروج ، وبطئه .
ومن له بصيرة منورة ، يرى بها كل ما أخبر الله به في كتابه ، من أمر
العاد وتفاصيله ، حتى كأنه يشاهده رأى العين .
ويعلم أن هذا مقتضى إلهيته سبحانه ، وربوبيته ، وعزته ، وحكمته ،
وأنه مستحيل عليه خلاف ذلك .
ونسبة ذلك إليه ، نسبة ما لا يليق به إليه .
فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته ، كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره .
وهذا يقين الإيمان ، وهو الذي يحرق السيئات ، كما تحرق النار الحطب .
وصاحب هذا المقام من الإيمان ، يستحيل إصراره على السيئات .
وإن وقعت منه وكثرت ، فإن ما معه من نور الإيمان ، يأمره بتجديد
التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه ، وهذا من أحب الخلق إلى الله .
انتهى كلامه ، قدس الله روحه ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا
وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ

* يأمر تعالى عباده المؤمنين ، إذا خرجوا جهادا في سبيله ، وابتغاء
رضاته - أن يتبينوا ، ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة .

فإن الأمور قسمان : واضحة وغير واضحة .

فالواضحة البينة ، لا تحتاج إلى تثبت وتبين ، لأن ذلك ، تحصيل حاصل

وأما الأمور المشككة غير الواضحة ، فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها

والتبين ، هل يقدم عليها أم لا ؟ .

فإن التثبت في هذه الأمور ، يحصل فيه من الفوائد الكثيرة ، والكف

عن شرور عظيمة ، فإن به يعرف دين العبد ، وعقله ، ورزاقته .

بخلاف المستعجل للأمر في بدايتها ، قبل أن يتبين له حكمها ، فإن ذلك

يؤدي إلى ما لا ينبغي .

كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية ، لما لم يتثبتوا ، وقتلوا من

سلم عليهم ، وكان معه غنيمة له أو مال غيره ، ظنا أنه يستكفي ^(١) بذلك

قتلهم ، وكان هذا خطأ في نفس الأمر ، فلهذا عاتبهم بقوله :

[وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ] .

أي : فلا يحملكم العرض الفاني القليل ، على ارتكاب ما لا ينبغي ،

(١) يستكفي يعني : يدفع عند القتل .

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي ، فما عند الله خير وأبقى .
وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له ، إذ رأى دواعي نفسه مائلة
إلى حالة له فيها هوى ، وهى مضرة له - أن يذكرها ، ما أعد الله لمن نهى
نفسه عن هواها ، وقدم مرضاة الله على رضا نفسه ، فإن فى ذلك ترغيباً
للنفس ، فى امتثال أمر الله ، وإن شق ذلك عليها .

ثم قال تعالى - مذكراً لهم بمجالهم الأولى ، قبل هدايتهم إلى الإسلام .
[كذلك كنتم من قبل فن الله عليكم] أى : فكما هداكم بعد
ضلالكم ، فكذلك يهدى غيركم .

وكما أن الهداية حصلت لكم شيئاً فشيئاً ، فكذلك غيركم .
فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة ، ومعاملته لمن كان على مثلها ،
بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى ، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة -
من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه .

ولهذا أعاد الأمر بالتبين فقال [فتبينوا] .

فإذا كان من خرج للجهاد فى سبيل الله ، ومجاهدة أعداء الله ، واستعد
بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم ، مأموراً بالتبين لمن ألقى إليه السلام ،
وكانت القرينة قوية ، فى أنه إنما سلم تعوداً من القتل ، وخوفاً على نفسه -
فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت ، فى كل الأحوال التى يقع فيها
نوع اشتباه ، فيتثبت فيها العبد ، حتى يتضح له الأمر ، ويتبين الرشد والصواب .

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾

[إن الله كان بما تعملون خبيراً] فيجازى كلا ، ماعمله ونواه ، بحسب ماعمله من أحوال عباده ونياتهم .

* أى : لا يستوى من جاهد من المؤمنين ، بنفسه وماله ، ومن لم يخرج للجهاد ، ولم يقاتل أعداء الله .

ففيه الحث على الخروج للجهاد ، والترغيب فى ذلك ، والترهيب من التكاثر ، والتعود عنه ، من غير عذر .

وأما أهل الضرر ، كالمرضى ، والأعمى ، والأعرج ، والذى لا يجد ما يتجهز به ، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين ، من غير عذر .

فمن كان من أولى الضرر ، راضياً بقعوده ، لا ينوى الخروج فى سبيل الله ، لولا وجود المانع ، ولا يحدث نفسه بذلك ، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر .

ومن كان عازماً على الخروج فى سبيل الله ، لولا وجود المانع ، يتمنى ذلك ، ويحدث به نفسه ، فإنه بمنزلة من خرج للجهاد .

لأن النية الجازمة ، إذا اقترن بها مقدورها ، من القول ، أو الفعل - ينزل صاحبها منزلة الفاعل .

ثم صرح تعالى ، بتفضيل المجاهدين على القاعدين ، بالدرجة أى : الرفة ، وهذا تفضيل على وجه الإجمال .

ثم صرح بذلك على وجه التفصيل ، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم والرحمة التى تشتمل على حصول كل خير ، واندفاع كل شر .

وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ

والدرجات التي فصلها النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث الثابت عنه في الصحيحين ، أن في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض ، أعدها الله للمجاهدين في سبيله .

وهذا الثواب ، الذي رتبته الله على الجهاد ، نظير الذي في سورة الصف في قوله :

[يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم] إلى آخر السورة .

وتأمل حسن هذا الانتقال ، من حالة إلى أعلى منها .

فإنه نفي التسوية أولاً ، بين المجاهد وغيره .

ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة .

ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة ، والرحمة ، والدرجات .

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل ، والمدح ، أو النزول من حالة إلى مادونها ، عند القدح والذم - أحسن لفظاً ، وأوقع في النفس .

وكذلك إذا فضل تعالى ، شيئاً على شيء ، وكل منهما له فضل ، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين ، لثلاث يتوهم أحد ، ذم الفضل عليه كما

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَعِيدِينَ دَرَجَةً وَكَلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى
وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَعِيدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِّنْهُ
وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

قال هنا [وكلا وعد الله الحسنى] .

وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصف في قوله : [وبشر المؤمنين]

وكما في قوله تعالى [لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل] .
أى : ممن لم يكن كذلك .

ثم قال : [وكلا وعد الله الحسنى] .

وكما قال تعالى [ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما] .

فينبغي لمن يبحث في التفضيل بين الأشخاص ، والطوائف ، والأعمال ،
أن يفتن لهذه النسكته .

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات ، ذكر ما تجتمع فيه ، عند
تفضيل بعضها على بعض ، لثلا يتوهم أن المفضل ، قد حصل له الكمال .

كما إذا قيل : النصارى خير من المجوس ، فليقل - مع ذلك - وكل
منهما كافر .

والقتل أشنع من الزنا ، وكل منهما معصية كبيرة ، حرما الله ورسوله
وزجر عنها .

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين
[الغفور الرحيم] ختم هذا الآية بهما فقال [وكان الله غفورا رحيما] .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ

* هذا الوعيد الشديد ، لمن ترك الهجرة ، مع قدرته عليها ، حتى مات .

فإن الملائكة الذين يقبضون روحه ، يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم ، ويقولون لهم [فيم كنتم] أى : على أى حال كنتم ؟ وبأى شيء تميزتم عن المشركين ؟ بل كنتم سوادهم ، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين ، وفانكم الخير الكثير ، والجهاد مع رسوله ، والسكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم .

[قالوا كنا مستضعفين في الأرض] أى : ضعفاء مهبورين مظلومين ، ليس لنا قدرة على الهجرة .

وهم غير صادقين في ذلك ، لأن الله وبخهم ، وتوعدهم ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

واستثنى المستضعفين حقيقة ، ولهذا قالت لهم الملائكة [ألم تكن أرض الله واسعة فهاجروا فيها] وهذا استفهام تقرير ، أى : قد تقرر عند كل أحد ، أن أرض الله واسعة .

فحيثما كان العبد في محل ، لا يتمكن فيه من إظهار دينه ، فإن له متسعا وفسحة من الأرض ، يتمكن فيها من عبادة الله كما قال تعالى :

[يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون] .

قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم [فأولئك مأواهم جهنم وساءت

مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ

مصيرا] وهذا كما تقدم ، فيه ذكر بيان السبب الموجب ، فقد يترتب عليه ، مقتضاه ، مع اجتماع شروطه ، وانتفاء موانعه ، وقد يمنع من ذلك مانع .

وفي الآية دليل على أن الهجرة ، من أكبر الواجبات ، وتركها ، من المحرمات ، بل من أكبر الكبائر .

وفي الآية دليل على أن كل من توفى ، فقد استكمل واستوفى ، ما قدر له من الرزق ، والأجل ، والعمل ، وذلك مأخوذ من لفظ « التوفى » فإنه يدل على ذلك .

لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك ، لم يكن متوفيا .

وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم ، لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم ، على وجه التقرير والاستحسان منهم ، وموافقته لمحلّه .

ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة ، الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه فقال : [ولا يهتدون سبيلا] .

فهؤلاء قال الله فيهم :

[فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفورا] .

و « عسى » ونحوها ، واجب وقوعها من الله تعالى ، بمقتضى كرمه وإحسانه .

وفي الترجية بالثواب ، لمن عمل بعض الأعمال ، فائدة .

وهو أنه قد لا يوفيه حق توفيته ، ولا يعمل على الوجه اللائق

الذى ينبغي .

لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ
أَنْ يَغْفُرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾

بل يكون مقصرا ، فلا يستحق ذلك الثواب . والله أعلم .
وفي الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن الأمور ، من واجب
وغيره ، فإنه معذور ، كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد :
[ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج] .
وقال في عموم الأوامر [فاتقوا الله ما استطعتم] .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر ، فاتوا منه
ما استطعتم » .
ولكن لا يبعد الإنسان إلا إذا بذل جهده ، وانسدت عليه أبواب
الحيل لقوله : [لا يستطيعون حيلة] .
وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة ، ونحوهما — مما يحتاج
إلى سفر — من شروط الاستطاعة .

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَآغِمًا ^(١) ﴾

* هذا في بيان الحث على الهجرة ، والترغيب ، وبيان ما فيها من المصالح ، فوعد الصادق في وعده ، أن من هاجر في سبيله ، ابتغاء مرضاته ، أنه يجد مراغما في الأرض وسعة ، فالمرغم مشتمل على مصالح الدين والسعة على مصالح الدنيا .

وذلك أن كثيرا من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتا بعد الألفة ، وفقرا بعد الغنى ، وذلا بعد العز ، وشدة بعد الرخاء .

والأمر ليس كذلك ، فإن المؤمن ، مادام بين أظهر المشركين ، فدينه في غاية النقص ، لافي العبادات القاصرة عليه ، كالصلاة ونحوها ، ولافي العبادات المتعدية ، كالجهاد بالقول والفعل ، وتوابع ذلك ، لعدم تمكنه من ذلك ، وهو بصدد أن يفتن عن دينه ، خصوصا ، إن كان مستضعفا .

فإذا هاجر في سبيل الله ، تمكن من إقامة دين الله ، وجهاد أعداء الله ، ومراغمتهم .

فإن المراعمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله ، من قول وفعل .

وكذلك ما يحصل له سعة في رزقه ، وقد وقع كما أخبر الله تعالى .

واعتبر ذلك بالصحابة رضي الله عنهم ، فإنهم لما هاجروا في سبيل الله

(١) قال في القاموس : المرغم : المذهب والمهرب والحصن والمضطرب اه ومثله في المختار من الصحاح ، والمعنى : يجد في الأرض متسعا ومجالات كثيرة واسعة .

كثيْرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾

وتركوا ديارهم ، وأولادهم ، وأموالهم لله ، كمل بذلك إيمانهم ، وحصل لهم
من الإيمان التام ، والجهاد العظيم ، والنصر لدين الله ، ما كانوا به أئمة
لن بعدهم .

وكذلك حصل لهم ، ما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم ،
ما كانوا به أغنى الناس .

وهكذا كل من فعل فعلهم ، يحصل له ما حصل لهم ، إلى يوم القيامة .
ثم قال [ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله] أى : قاصداً ربه ،
ورضاه ، ومحبه لرسوله ، ونصراً لدين الله ، لا لغير ذلك من القاصد .
[ثم يدركه الموت] بقتل أو غيره .

[فقد وقع أجره على الله] أى : فقد حصل له أجر المهاجر ، الذى أدرك
مقصوده بضمن الله تعالى .

وذلك ، لأنه نوى وجزم ، وحصل منه ابتداء ، وشروع فى العمل .
فمن رحمة الله به وبأمثاله ، أن أعطاهم أجرهم كاملاً ، ولو لم يكملوا العمل
وغفر لهم ، ما حصل منهم من التقصير فى الهجرة وغيرها .

ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال :
[وكان الله غفوراً رحيماً] يغفر للمؤمنين ، ما اقترفوه من الخطيئات ،
خصوصاً ، التائبين النيبين إلى ربهم .

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ

[رحميا] بجميع الخلق ، رحمة أوجدتهم وعاقبتهم ، ورزقتهم من المال والبنين والقوة ، وغير ذلك .

رحميا بالمؤمنين ، حيث وفقهم للإيمان ، وعلمهم من العلم ، ما يحصل به الإيقان ، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح ، وما به يدركون غاية الأرباح .

وسيروا من رحمته وكرمه ، ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فنسأل الله ، أن لا يحرمنا خيره ، بشر ما عندنا .

* هاتان الآيتان ، أصل في رخصة القصر ، وصلاة الخوف .

يقول تعالى [وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ] أى : فى السفر ، وظاهر الآية ، أنه يقتضى الترخيص فى أى سفر كان ، ولو كان سفر معصية ، كما هو مذهب أبى حنيفة رحمه الله ، وخالف فى ذلك الجمهور ، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم ، فلم يجوزوا الترخيص فى سفر المعصية ، تخصيصا للآية بالمعنى والمناسبة ، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده ، إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا .

والعاصى بسفره ، لا يناسب حاله التخفيف .

وقوله [فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة] أى : لاجرح ولا إثم عليكم فى ذلك .

الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ

ولا ينافي ذلك ، كون القصر هو الأفضل ، لأن نفي الحرج ، إزالة
لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس .

بل ولا ينافي الوجوب ، كما تقدم ذلك في سورة البقرة ، في قوله [إن
الصفاء والمروة من شعائر الله] إلى آخر الآية .

وإزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة ، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين ،
وجوبها على هذه الصفة التامة ، ولا يزال هذا عن نفوس أكثرهم ،
إلا بذكر ما ينافيه .

ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران .

أحدهما : ملازمة النبي صلى الله عليه وسلم على القصر في جميع أسفاره .
والثاني : أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد .

والله تعالى يجب أن تؤتى رخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته .

وقوله [أن تقصروا من الصلاة] ولم يقل أن تقصروا الصلاة ،
فيه فائدتان .

إحداها : أنه لو قال أن تقصروا الصلاة ، لكان القصر غير منضبط
بحد من الحدود .

فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة ، وجعلها ركعة واحدة ، لأجزأه .

فإتيانه بقوله [من الصلاة] ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط ،

مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

الثانية أن « من » تفيد التبويض ، ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات

المفروضات ، لا جميعها .

فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا آسَلِحَتَهُمْ

فإن الفجر والمغرب ، لا يقصران ، وإنما الذى يقصر ، الصلاة الرباعية من أربع ، إلى ركعتين .

فإذا تقرر أن القصر فى السفر ، رخصة ، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا فى هذا القيد ، وهو قوله :

[إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا] الذى يدل ظاهره ، أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأمرين كليهما ، السفر مع الخوف .

ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله [أن تقصروا] قصر العدد فقط ؟ أو قصر العدد والصفة ؟

فالإشكال ، إنما يكون على الوجه الأول .

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حتى سأل عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، ما لنا تقصر الصلاة وقد أمنا ؟ أى والله يقول [إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا] . فقال رسول الله صل الله عليه وسلم : « صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته » أو كما قال .

فعلى هذا يكون هذا القيد أتى به ، نظراً لغالب الحال ، التى كان النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه عليها .
فإن غالب أسفاره أسفار ، جهاد .

وفيه فائدة أخرى ، وهى بيان الحكمة والمصلحة ، فى مشروعية رخصة القصر .

فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ

فبين في هذه الآية أنهى^(١) ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة ، وهي اجتماع السفر والخوف .

ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده ، الذي هو مظنة المشقة .
وأما على الوجه الثاني ، وهو أن المراد بالقصر : قصر العدد والصفة ،
فإن القيد على بابه .

فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد ، وقصر الصفة .

وإذا وجد السفر وحده ، جاز قصر العدد فقط .

أو الخوف وحده ، جاز قصر الصفة .

ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله [وإذا كنت فيهم فأقت

لم الصلاة] أي : صليت بهم صلاة تقيمها ، وتم ما يجب فيها ، ويلزم فعلهم
ما ينبغى لك ولهم ، فعله .

ثم فسر ذلك بقوله [فلتقم طائفة منهم معك] أي : وطائفة قائمة بإزاء

العدو ، كما يدل على ذلك ما يأتي :

[فإذا سجدوا] أي : الذين معك أي : أكلوا صلاتهم ، وعبر

عن الصلاة بالسجود ، ليدل على فضل السجود ، وأنه ركن من أركانها ،
بل هو أعظم أركانها .

(١) أنهى . أي : غاية ما يتصور الخ .

يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

[فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى ، لم يصلوا] وهم الطائفة الذين قاموا بإزاء العدو [فليصلوا معك] .

ودل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى ، منتظراً للطائفة الثانية ، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته ثم جلس ينتظرهم ، حتى يكملوا صلاتهم ، ثم يسلم بهم ، وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف .

فإنها صحت عن النبي صلى الله عليه من وجوه كثيرة ، كلها جائزة . وهذه الآية ، تدل على أن صلاة الجماعة ، فرض عين من وجهين :

أحدهما : أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة ، وقت اشتداد الخوف من الأعداء ، وحذر مهاجمتهم .

فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة ، فأيجابها في حالة الطمأنينة والأمن ، من باب أولى وأحرى .

والثاني : أن المصلين صلاة الخوف ، يتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم ، ويعنى فيها ، عن كثير من الأفعال المبطللة في غيرها ، وما ذاك إلا لتأكيد وجوب الجماعة ، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب .

فلولا وجوب الجماعة ، لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها .

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل ، أن يصلوا بإمام واحد .

ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء ، لا يخل به لو صلوا بعدة أمم ، وذلك

لأجل اجتماع كلمة المسلمين ، واتفاقهم ، وعدم تفرق كلمتهم ، ون يكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم .

لَوْ تَعْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ
أَنْ تَضُمُّوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾

وأمر تعالى ، بأخذ السلاح ، والحذر في صلاة الخوف .

وهذا ، وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة ، فإن فيه مصلحة راجحة ، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد ، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص ، على الإيقاع بالمسلمين ، والميل عليهم وعلى أمتعتهم ولهذا قال تعالى :

[ود الذين كفروا لو تعفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة] .

ثم إن الله عذر من له عذر ، من مرض ، أو مطر ، أن يضع سلاحه ، ولكن مع أخذ الحذر فقال :

[ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا] .

ومن العذاب المهين ، ما أمر الله به حزبه المؤمنين ، وأنصار دينه الموحدين ، من قتلهم وقتالهم ، حيثما تقفونهم ، ويأخذونهم ، ويحصرهم ، ويقعدوا لهم كل مرصد ، ويحذرونهم في جميع الأحوال ، ولا يقفلوا عنهم ، خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم .

فله أعظم حمد وثناء ، على ما من به على المؤمنين ، وأيدهم بمعونته
وتعاليمه ، التي لو سلكوها على وجه الكمال ، لم تهزم لهم راية ، ولم يظهر
عليهم عدو ، في وقت من الأوقات .

وقوله [فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم] يدل على أن هذه
الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين .

وأن الرسول صلى الله عليه وسلم يثبت منتظرا للطائفة الأخرى قبل
السلام ، لأنه أولا ، ذكر أن الطائفة تقوم معه ، فأخبر عن مصاحبتهم له .
ثم أضاف الفعل بعد ، إليهم دون الرسول ، فدل ذلك على ما ذكرناه .
وفي قوله [فلتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك] دليل على أن
الطائفة الأولى قد صلوا .

وأن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة ، في ركعتهم
الأولى ، وحكما في ركعتهم الأخيرة .

فيستلزم ذلك ، انتظار الإمام إليهم ، حتى يكملوا صلاتهم . ثم يسلم بهم ،
وهذا ظاهر للمتأمل .

﴿ فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةَ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا ﴾

* أى : فإذا فرغتم من صلاتكم ، صلاة الخوف وغيرها ، فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم . ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائده . منها : أن القلب صلاحه وفلاحه ، وسعادته ، بالإجابة إلى الله تعالى ، في المحبة ، وامتلاء القلب من ذكره ، والشاء عليه .

وأعظم ما يحصل به هذا المقصود ، الصلاة ، التي حقيقتها : أنها صلة بين العبد وبين ربه .

ومنها : أن فيها من حقائق الإيمان ، ومعارف الإيقان ، ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة .

ومن المعلوم أن صلاة الخوف ، لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة ، بسبب اشتغال القلب ، والبدن ، والخوف ، فأمر بجزئها بالذكر بعدها .

ومنها : أن الخوف ، يوجب قلق القلب وخوفه ، وهو مظنة لضعفه .

وإذا ضعف القلب ، ضعف البدن عن مقاومة العدو .

والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب .

ومنها : أن الذكر لله تعالى — مع الصبر والثبات — سبب للفلاح والظفر بالأعداء .

كما قال تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] .

فأمر بالإكثار منه في هذه الحال ، إلى غير ذلك من الحكم .

وقوله [فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ] أى : إذا أطمئنتم من الخوف ،

وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ
عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴿١٠٣﴾

واطمأنت قلوبكم وأبدانكم ، فأقيموا صلاتكم على الوجه الأكمل ، ظاهرا
وباطنا ، بأركانها وشروطها ، وخشوعها ، وسائر مكملاتها .
[إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا] أى : مفروضا
فى وقته .

فدل ذلك على فرضيتها ، وأن لها وقتاً ، لا تصح إلا به ، وهو هذه
الأوقات ، التى قد تقررت عند المسلمين ، صغيرهم ، وكبيرهم ، عالمهم
وجاهلهم ، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : « صلوا
كما رأيتمونى أصلى » .

ودل قوله [على المؤمنين] على أن الصلاة ميزان الإيمان ، وعلى حسب
إيمان العبد ، تكون صلاته ، وتتم وتكمل .

ويدل ذلك ، على أن الكفار — وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين
كأهل الذمة — أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة ، ولا يؤمرون بها ،
بل ولا تصح منهم ، ما داموا على كفرهم ، وإن كانوا يعاقبون عليها ،
وعلى سائر الأحكام ، فى الآخرة .

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ
فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٠٤)

* أى : لا تضعفوا ولا تكسلوا ، فى ابتغاء عدوكم من الكفار ،
أى : فى جهادهم ، والرابطة على ذلك فإن وهن القلب ، مستدع لوهن البدن ،
وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء .

بل كونوا أقوياء ، نشيطين فى قتالهم .

ثم ذكر ما يقوى قلوب المؤمنين ، فذكر شيتين .

الأول : أن ما يصيبكم من الألم ، والتعب ، والجراح ونحو ذلك ، فإنه
يصيب أعداءكم .

فليس من المروءة الإنسانية ، والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف
منهم ، وأنتم وهم ، وقد تساويتم فيما يوجب ذلك .
لأن العادة الجارية ، أن لا يضعف ، إلا من توالى عليه الآلام وانتصر
عليه الأعداء على الدوام .

لا من يدال له مرة ، ويدال عليه أخرى .

الأمر الثانى : أنكم ترجون من الله ما لا يرجون .

فترجون الفوز بثوابه ، والنجاة من عقابه .

بل خواص المؤمنين ، لهم مقاصد عالية ، وآمال رفيعة ، من نصر دين الله ،
وإقامة شرعه ، واتساع دائرة الإسلام ، وهداية الضالين ، وقع أعداء الدين .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾

فهذه الأمور ، توجب للمؤمن المصدق ، زيادة القوة ، وتضاعف النشاط ، ، والشجاعة التامة .

لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوى ، إن ناله ، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية ، والفوز برضوان الله وجنته .

فسبحان من فaut بين العباد ، وفرق بينهم بعلمه وحكمته .

ولهذا قال : [وكان الله عليا حكيمًا] كامل العلم ، كامل الحكمة .

* يخبر تعالى ، أنه أنزل على عبده ورسوله ، الكتاب بالحق ، أى : محفوظا فى إنزاله من الشياطين ، أن يتطرق إليه منهم باطل .

بل نزل بالحق ، ومشتملا أيضاً على الحق .

فأخباره صدق ، وأوامره ونواهيه ، عدل [وتمت كلمة ربك

صدقا وعدلا] .

وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس .

وفى الآية الأخرى [وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم] .

فيحتمل أن هذه الآية ، فى الحكم بين الناس ، فى مسائل النزاع

والاختلاف .

وتلك فى تبين جميع الدين ، وأصوله ، وفروعه .

ويحتمل أن الآيتين كليهما ، معناهما واحد .

فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم فى الدماء والأعراض

والأموال وسائر الحقوق وفى العقائد ، وفى جميع مسائل الأحكام .

بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ

وقوله [بما أراك الله] أى : لابهواك ، بل بما علمك الله وأهلك .
كقوله تعالى [وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى] .
وفى هذا دليل على عصمته صلى الله عليه وسلم ، فيما يبلغ عن الله من
جميع الأحكام وغيرها .
وأنة يشترط فى الحكم ، العلم والعدل لقوله [بما أراك الله] ولم يقل :
بما رأيت .

ورتب أيضاً ، الحكم بين الناس على معرفة الكتاب .
ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط ، نهاه عن
الجور والظلم ، الذى هو ضد العدل فقال :
[ولا تكن للخائنين خصيماً] أى : لاتخاصم عن من عرفت خيائته ،
من مدع ما ليس له ، أو منكر حقاً عليه ، سواء علم ذلك ، أو ظنه .
ففى هذا ، دليل على تحريم الخصومة فى باطل ، والنيابة عن المبطل ،
فى الخصومات الدينية ، والحقوق الدنيوية .
ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول فى نيابة الخصومة لمن لم يعرف
منه ظلم .

[واستغفر الله] مما صدر منك ، إن صدر .
[إن الله كان غفوراً رحيماً] أى : يفر الزنب العظيم ، لمن استغفره ،
وتاب إليه وأتاب ، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك ، الموجب لثوابه ،
وزوال عقابه .

أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ
مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ

[ولا يجادل عن الذين يختانون أنفسهم] .

« الاختيان » و « الخيانة » بمعنى الجناية ، والظلم ، والإثم ، وهذا يشمل
النهي عن المجادلة ، عن من أذنب وتوجه عليه عقوبة ، من حد أو تعزير ،
فإنه لا يجادل عنه ، بدفع ما صدر منه من الخيانة ، أو بدفع ما ترتب على
ذلك من العقوبة الشرعية .

[إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً] أى : كثير الخيانة والإثم .

وإذا اتقى الحب ، ثبت ضده ، وهو البغض ، وهذا كالتعليل ،
للنهي المتقدم .

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم [يستخفون من الناس ولا يستخفون
من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول] .

وهذا من ضعف الإيمان ، ونقصان اليقين ، أن تكون مخافة الخلق
عندهم ، أعظم من مخافة الله فيحرضون بالطرق المباحة والمحرمة ، على عدم
الفضيحة عند الناس ، وهم — مع ذلك — قد بارزوا الله بالعظام ، ولم
يبالوا بنظره واطلاعه عليهم .

وهو معهم بالعلم ، في جميع أحوالهم ، خصوصاً في حال تبويتهم ما لا يرضيه
من القول ، من تبرئة الجاني ، ورمى البريء بالجناية ، والسعى في ذلك
لرسول صلى الله عليه وسلم ، ليفعل ما يتوه .

فقد جمعوا بين عدة جنایات ، ولم يراقبوا رب الأرض والسماوات ،
المطلع على سرائرهم وضمائرهم ، ولهذا توعدهم تعالى بقوله :

مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَاتَمٌ هَوْلَاءُ
جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

[وكان الله بما يعملون محيطا] أى : قد أحاط بذلك علما .

ومع هذا ، لم يعاجلهم بالعقوبة بل استأنى بهم ، وعرض عليهم التوبة
وحذرهم من الإصرار على ذنبهم ، الموجب للعقوبة البليغة .

* [ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم
القيامة أم من يكون عليهم وكيفا] .

أى : هبكم جادلتم عنهم فى هذه الحياة الدنيا ، ودفع عنهم جدالكم
بعض ما يحذرون من العار والفضيحة ، عند الخلق .

فإذا يعنى عنهم وينفعهم ؟ ومن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين
تتوجه عليهم الحجة ، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا
يعملون ؟ « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو
الحق المبين » .

فمن يجادل عنهم ، من يعلم السر وأخفى ، ومن أقام عليهم من الشهود
ملا يسكن معه الإنكار ؟ .

وفى هذه الآية ، الإرشاد إلى القابلة ، بين مايتوهم من مصالح الدنيا
المرتبة على ترك أوامر الله ، أو فعل مناهيه .

وبين ما يفوت من ثواب الآخرة ، أو يحصل من عقوباتها .

فيقول من أمرته نفسه بترك أمر الله :

ها أنت ، تركت أمره كسلا وتفريطا ، فما النفع الذى انتفعت به ؟

أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ
نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبِ

وماذا فأتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء
والحرمان والخيبة والخسران؟
وكذلك إذا دعت نفسه إلى ما تشبیه من الشهوات المحرمة ،
قال لها :

هيك فعلت ما اشتيت ، فإن لذته تنقضي ، ويعقبها من الموم ،
والغموم ، والحسرات ، وفوات الثواب ، وحصول العقاب — ما بعضه
يكفى العاقل في الإحجام عنها .

وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره ، وهو خاصة ، العقل الحقيقي .

بخلاف من يدعى العقل ، وليس كذلك .

فإنه — يجهله وظلمه — يؤثر اللذة الحاضرة ، والراحة الراهنة ،

ولو ترتب عليها ما ترتب . والله المستعان .

ثم قال تعالى: [ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله
غفورا رحيمًا] .

أى : من تجرأ على المعاصي ، واتفحم على الإثم ، ثم استغفر الله استغفاراً
تاماً ، يستلزم الإقرار بالذنب ، والندم عليه ، والإقلاع ، والعزم على
أن لا يعود .

فهذا^(١) قد وعده من لا يخلف الميعاد ، بالمغفرة والرحمة .

(١) قوله [فهذا الخ] جواب (من) في قوله (من تجرأ الخ) .

إِنَّمَا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ

فيفقر له ما صدر منه من الذنب ، ويزيل عنه ، ما ترتب عليه من النقص والعيب ، ويعيد إليه ، ما تقدم من الأعمال الصالحة ، ويوقفه فيما يستقبله من عمره ، ولا يجعل ذنبه حائلا عن توفيقه ، لأنه قد غفره ، وإذا غفره ، غفر ما يترتب عليه .

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق ، يشمل سائر المعاصي ، الصغيرة ، والكبيرة .

وسمى « سوءا » لسكونه يسوء عامله بعقوبته ، ولسكونه - في نفسه - سيئا ، غير حسن .

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق ، يشمل ظلمها بالشرك ، فما دونه . ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر ، قد يفسر كل واحد منهما ، بما يناسبه .

فيفسر عمل السوء هنا ، بالظلم الذى يسوء الناس ، وهو ظلمهم ، فى دمائهم ، وأموالهم وأعراضهم .

ويفسر ظلم النفس ، بالظلم والمعاصي ، التى بين الله وبين عبده .

وسمى ظلم النفس « ظلما » لأن نفس العبد ، ليست ملكا له ، يتصرف فيها بما يشاء .

وإنما هى ، ملك لله تعالى ، قد جعلها أمانة عند العبد وأمره أن يقيمها على طريق العدل ، بإلزامها الصراط المستقيم ، علما وعملا ، فيسعى فى تعليمها ما أمر به ، ويسعى فى العمل بما يجب .

يَكْسِبُ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِي بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا

فسعيه في غير هذا الطريق ، ظلم لنفسه ، وخيانة ، وعدول بها عن العدل ،
الذى ضده ، الجور والظلم .

ثم قال : [ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه] وهذا يشمل ، كل
ما يؤثم ، من صغير وكبير .

فمن كسب سيئة ، فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية ، على نفسه ،
لاتتعداها إلى غيرها ، كما قال تعالى : [ولا تزر وازرة وزر أخرى] .

لكن إذا ظهرت السيئات ، فلم تنسكرك ، عمت عقوبتها ، وشمل إثمها ،
فلا تخرج أيضاً ، عن حكم هذه الآية الكريمة ، لأن من ترك الإنكار
الواجب ، فقد كسب سيئة .

وفي هذا ، بيان عدل الله وحكمته ، أنه لا يعاقب أحداً بذنب أحد ،
ولا يعاقب أحداً ، أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه ، ولهذا قال :

[وكان الله عليماً حكيماً] أى : له العلم الكامل ، والحكمة التامة .

ومن علمه وحكمته ، أنه يعلم الذنب ، ومن صدر منه ، والسبب الداعي
لفعله ، والعقوبة المترتبة على فعله .

ويعلم حالة المذنب ، أنه إن صدر منه الذنب ، بغلبة دواعي نفسه الأمانة
بالسوء ، مع إنابته إلى ربه ، في كثير من أوقاته ، أنه سيغفر له ،
ويوقفه للتوبة .

وإن صدر بتجرؤه على المحارم ، استخفافاً بنظر ربه ، وتهاوناً بعقابه ،
فإن هذا بعيد من المغفرة ، بعيد من التوفيق للتوبة .

ثم قال [ومن يكسب خطيئةً] أى : ذنباً كبيراً [أو إثماً] مادون ذلك .

وَإِنَّمَا مُبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ

[ثم يرم به] أى : يتهم بذنبه [بريثا] من ذلك الذنب ، وإن كان مذنباً .

[فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً] أى : فقد حمل فوق ظهره ، بهتاناً للبريء وإثماً ظاهراً بيناً .

وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب ، وموبقاتها .

فإنه قد جمع عدة مفساد : كسب الخطيئة ، والإثم .

ثم رمى من لم يفعلها بفعلها .

ثم الكذب الشنيع ، بتبرئة نفسه ، واتهام البريء .

ثم ما يترتب على ذلك ، من العقوبة الدنيوية ، تندفع عن وجبت عليه ، وتقام على من لا يستحقها .

ثم ما يترتب على ذلك أيضاً ، من كلام الناس فى البريء ، إلى غير ذلك من المفساد ، التى نسال الله العافية منها ، ومن كل شر .

ثم ذكر منته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضلّه فقال :

[ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك] .

وذلك أن هذه الآيات الكريمات ، قد ذكر المفسرون ، أن سبب نزولها ، أن أهل بيت ، سرقوا فى المدينة .

فلما اطلع على سرتهم ، خافوا الفضيحة ، وأخذوا سرتهم ، فرموها

ببيت من هو برىء من ذلك .

مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ

واستعان السارق بقومه ، أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ويطلبوا منه أن يبرئ أصحابهم ، على رؤوس الناس .

وقالوا : إنه لم يسرق ، وإنما الذى سرق ، من وجدت السرقة بيته ،
وهو البرىء .

فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يبرئ أصحابهم .

فأنزل الله هذه الآيات ، تذكيراً ، وتبييناً لتلك الواقعة ، وتحذيراً
لرسول صلى الله عليه وسلم ، من المحاصمة عن الخائنين ، فإن المحاصمة عن
المبطل ، من الضلال ، فإن الضلال نوعان :

ضلال فى العلم ، وهو الجهل بالحق ، وضلال فى العمل ، وهو : العمل
بغير ما يجب .

ففظ الله رسوله ، عن هذا النوع من الضلال ، كما حفظه عن الضلال
فى الأعمال .

وأخبر أن كيدهم ومكرهم ، يعود على أنفسهم ، كحالة كل ما كر ،
فقال :

[وما يضلون إلا أنفسهم] لكون ذلك المكر ، وذلك التحيل ، لم
يحصل لهم ، فيه مقصودهم ، ولم يحصل لهم إلا الخيبة والحرامات ، والإثم ،
والخسران .

وهذه نعمة كبيرة ، على رسوله صلى الله عليه وسلم ، تتضمن النعمة
بالعمل ، وهو : التوفيق لفعل ما يجب ، والعصمة له عن كل محرم .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ
وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال : [وأنزل الله عليك الكتاب
والحكمة] .

أى : أنزل عليك هذا القرآن العظيم ، والذكر الحكيم ، الذى فيه
تبيان كل شيء ، وعلم الأولين والآخرين .

والحكمة : إما السنة ، التى قد قال فيها بعض السلف : إن السنة تنزل
عليه ، كما ينزل القرآن .

وإما : معرفة أسرار الشريعة الزائدة ، على معرفة أحكامها ، وتنزيل
الأشياء منازلها ، وترتيب كل شيء بحسبه .

[وعلمك ما لم تكن تعلم] وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى .
فإنه صلى الله عليه وسلم ، كما وصفه الله قبل النبوة بقوله [ما كنت
تدرى ما الكتاب ولا الإيمان] ، [ووجدك ضالا فهدى] .

ثم لم ينزل يوحى الله إليه ، ويعلمه ، ويكمله ، حتى ارتقى مقاما من العلم ،
يتعذر وصوله على الأولين والآخرين .

فكان أعلم الخلق على الإطلاق ، وأجمعهم لصفات الكمال ،
وأكملهم فيها .

ولهذا قال [وكان فضل الله عليك عظيما] فضله على الرسول محمد
صلى الله عليه وسلم ، أعظم من فضله على كل الخلق .

وأجناس الفضل التى قد فضله الله به ، لا يمكن استقصاؤها ولا
يتيسر إحصاؤها .

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ﴾

* أى : لا خير فى كثير ، مما يتناجى به الناس ويتخاطبون .
وإذا لم يكن فيه خير ، فإما لا فائدة فيه ، كفضول الكلام المباح .
وإما شر ، ومضرة محضة ، كالكلام المحرم بجميع أنواعه .
ثم استثنى تعالى فقال : [إلا من أمر بصدقة] من مال ، أو علم ،
أو أى نفع كان .

بل لعله ، يدخل فيه العبادات القاصرة ، كالتسبيح ، والتحميد ، ونحوه .
كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل
تكبيرة صدقة ، وكل تهليل صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن
المنكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة » الحديث .

[أو معروف] وهو الإحسان والطاعة ، وكل ما عرف فى الشرع
والعقل حسنه .

وإذا أطلق الأمر بالمعروف ، من غير أن يقرن بالنهى عن المنكر ،
دخل فيه النهى عن المنكر .

وذلك لأن ترك المنهيات ، من المعروف .
وأيضاً لا يتم فعل الخير ، إلا بترك الشر .
وأما عند الاقتران ، فيفسر المعروف ، بفعل المأمور ، والمنكر ،
بترك المنهى .

[أو إصلاح بين الناس] والإصلاح ، لا يكون إلا بين متنازعين
متخاصمين .

أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

والنزاع ، والخصام ، والتفاضب ، يوجب من الشر والفرقة ،
ما لا يمكن حصره .

فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس ، في الدماء ، والأموال
والأعراض .

بل وفي الأديان ، كما قال تعالى :

[واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا] .

وقال تعالى: [وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فإن
بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله] الآية .

وقال تعالى : « والصالح خير » .

والساعي في الإصلاح بين الناس ، أفضل من القانت بالصلاة ،
والصيام ، والصدقة .

والمصلح ، لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله .

كما أن الساعي في الإفساد ، لا يصلح الله عمله ، ولا يتم له مقصوده
كما قال تعالى :

[إن الله لا يصلح عمل المفسدين] .

فهذه الأشياء ، حينما فعلت ، فهي خير ، كما دل على ذلك ، الاستثناء .

ولكن كمال الأجر وتمامه ، بحسب النية والإخلاص ، ولهذا قال :

[ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً] .

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ
وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُضَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ

فلهذا ينبغي للعبد ، أن يقصد وجه الله تعالى ، ويخلص العمل لله ، في كل وقت ، وفي كل جزء من أجزاء الخير ، ليحصل له بذلك ، الأجر العظيم ، وليتعود الإخلاص ، فيكون من المخلصين ، وليتم له الأجر ، سواء تم مقصوده أم لا ، لأن النية حصلت ، واقترن بها ، ما يمكن من العمل .

* أى : ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعانده فيما جاء به [من بعد ما تبين له الهدى] بالدلائل القرآنية ، والبراهين النبوية .

[ويتبع غير سبيل المؤمنين] وسبيلهم هو : طريقهم في عقائدهم وأعمالهم .
[نوله ما تولى] أى : تركه وما اختاره لنفسه ، ونخذه ، فلا نوقه للخير ، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه .

فجزاؤه من الله عدلا ، أن يبقية في ضلاله حائراً ، ويزداد ضلالاً إلى ضلاله .
كما قال تعالى [فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم] وقال تعالى [وتقلب أئنتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة] .

ويدل مفهومها ، على أن من لم يشاقق الرسول ، ويتبع سبيل المؤمنين ، بأن كان قصده وجه الله ، واتباع رسوله ، ولزوم جماعة المسلمين ، ثم صدر منه ، من الذنوب أو الهم بها ، ما هو من مقتضيات النفوس ، وغلبات الطباع ، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه ، بل يتداركه بلطفه ، ويمن عليه ، بحفظه ، ويعصمه من السوء كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام :

[كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين] .

مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ

أى : بسبب إخلاصه ، صرفنا عنه السوء ، وكذلك كل مخلص ، كما يدل عليه ، عموم التعليل .

وقوله [ونصه جهنم] أى : نعذبه فيها عذاباً عظيماً .

[وساءت مصيراً] أى : مرجعاً له وما آلا .

وهذا الوعيد ، المترتب على الشقاق ، ومخالفة المؤمنين ، مراتب ، لا يحصيها إلا الله ، بحسب حالة الذنب ، صغراً وكبراً .
فنه ما يخلد فى النار ، ويوجب جميع الخذلان .

ومنه ، ما هو دون ذلك ، فلعل الآية الثانية ، كالتفصيل لهذا المطلق .

وهو : أن الشرك ، لا يفره الله تعالى ، لتضمنه القدح فى رب العالمين ، ووحدانيته ، وتسوية المخلوق ، الذى لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، بمن هو مالك النفع والضر ، الذى ما من نعمة إلا منه ، ولا يدفع النقم إلا هو ، الذى له الكمال للمطلق من جميع الوجوه ، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبار .

فن أعظم الظلم ، وأبعد الضلال ، عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته ، وصرف شىء منها للمخلوق ، الذى ليس له من صفات الكمال شىء ، ولاله من صفات الغنى شىء ، بل ليس له إلا العدم .

عدم الوجود ، وعدم الكمال ، وعدم الغنى من جميع الوجوه .

وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصى ، فهو تحت المشيئة .

إن شاء الله غفره برحمته وحكمته .

لَمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

وإن شاء عذب عليه ، وعاقب بعذله وحكمته .

وقد استدل بهذه الآية السكريمية ، على أن إجماع هذه الأمة ، حجة ،
وأنها معصومة من الخطأ .

ووجه ذلك : أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين ، بالخذلان والنار .
وسبيل المؤمنين مفرد مضاف ، يشمل سائرما المؤمنون عليه ، من العقائد
والأعمال .

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء ، أو استحبابه ، أو تحريمه ، أو كراهته ،
أو إباحتها — فهذا سبيلهم .

فمن خالفهم في شيء من ذلك ، بعد انعقاد إجماعهم عليه ، فقد اتبع
غير سبيلهم .

ويدل على ذلك قوله تعالى :

[كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ]
ووجه الدلالة منها ، أن الله تعالى ، أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة ،
لا يأمرون إلا بالمعروف .

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء ، أو استحبابه ، فهو مما أمروا به .

فيتعين — بنص الآية — أن يكون معروفاً ، ولا شيء بعد المعروف ،
غير المنكر .

وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء ، فهو مما نهوا عنه ، فلا يكون
إلا منكراً .

ومثل ذلك ، قوله تعالى [وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس] .

فأخبر تعالى ، أن هذه الأمة ، جعلها الله وسطاً أي : عدلاً خياراً ، ليكونوا شهداء على الناس ، أي : في كل شيء .

فإذا شهدوا على حكم ، بأن الله أمر به ، أو نهى عنه ، أو أباحه ، فإن شهادتهم معصومة ، لكونهم عالمين بما شهدوا به عادلين في شهادتهم . فلو كان الأمر بخلاف ذلك ، لم يكونوا عادلين في شهادتهم ، ولا عالمين بها . ومثل ذلك قوله تعالى [فإن تنازعتم في شيء ، فردوه إلى الله والرسول] . يفهم منها ، أن ما لم يتنازعو فيه ، بل اتفقوا عليه ، أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة .

وذلك لا يكون إلا موافقاً للكتاب والسنة ، فلا يكون مخالفاً . فهذه الأدلة ونحوها ، تفيد القطع ، أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة . ولهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله : إن يدعون من دونه إلى (محيصة) .

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا

أى : ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إناثاً ، أى : أوثاناً
وأصناماً ، مسميات بأسماء الإناث ، كـ « العزى » و « مناة » ونحوهما .

ومن المعلوم ، أن الاسم دال على المسمى .

فإذا كانت أسماؤها ، أسماء مؤنثة ناقصة ، دل ذلك ، على نقص
المسميات بتلك الأسماء ، وفقدتها لصفات الكمال .

كما أخبر الله تعالى ، فى غير موضع من كتابه ، أنها لا تخلق ، ولا ترزق ،
ولا تدفع عن عابديها ، بل ولا عن نفسها ؛ نفعاً ولا ضرراً ، ولا تنصر أنفسها
من يريد لها بسوء ، وليس لها أسمع ، ولا أبصار ، ولا أفئدة .

فكيف يعبد ، من هذا وصفه ، ويترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى ،
والصفات العليا والمجد والكمال ، والمجد ، والجلال ، والعز ، والجمال ،
والرحمة ، والبر ، والإحسان ، والافتراء بالخلق والتدبير ، والحكمة العظيمة
فى الأمر والتقدير !!؟

هل هذا إلا من أقبح القبيح ، الدال على نقص صاحبه ، وبلوغه
من الخسة والدناءة ، أدنى ما يتصوره متصور ، أو يصفه واصف ؟ !! .

ومع هذا فعبادتهم ، إنما صورتها فقط ، لهذه الأوثان الناقصة .

وبالحقيقة ، ما عبدوا غير الشيطان ، الذى هو عدوهم ، الذى يريد
إهلاكهم ، ويسعى فى ذلك بكل ما يقدر عليه ، الذى هو فى غاية البعد
من الله ، لعنه الله وأبعده عن رحمته .

فكما أبعده الله من رحمته ، يسعى فى إبعاد العباد عن رحمة الله .

شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَ لَا تَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ وَلَا مُرْسِمَهُمْ فَلْيَتَّسِكُنَّ إِذَانَ

[إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير] .

ولهذا أخبر الله عن سعيه ، في إغواء العباد ، وتزيين الشر لهم والفساد ،
وأنه قال لربه مقسماً .

[لا تتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً] أى : مقدراً .

علم اللعين ، أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله ، وأن عباد الله
المخلصين ، ليس له عليهم سلطان .

وإنما سلطانه ، على من تولاه ، وآثر طاعته على طاعة مولاة .

وأقسم في موضع آخر ليفوبينهم فقال : [لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك
منهم المخلصين] .

فهذا الذى ظنه الخبيث وجزم به ، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله :

[ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ، فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين] .

وهذا النصيب المفروض ، الذى أقسم ليتخذنه منهم ، ذكر ما يريد

بهم ، وما يقصده لهم بقوله :

[ولأضلنهم] أى : عن الصراط المستقيم ، ضلالاً فى العلم ،

وضلالاً فى العمل .

[ولأمنينهم] أى : مع الإضلال ، لأمنينهم أن ينالوا ، ما ناله

المهتدون .

وهذا هو الغرور بعينه .

الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا

فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ، ما هم فيه من الضلال .
وهذا زيادة شر إلى شرهم ، حيث عملوا أعمال أهل النار ، الموجبة
للعقوبة ، وحسبوا أنها موجبة للجنة .

واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم ، فإنهم كما حكى الله عنهم .
[وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانتهم
وكذلك زيننا لكل أمة عملهم] ، [قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين
ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنفاً] الآيات :
وقال تعالى عن المنافقين أنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين :

[ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم
وغرتمكم الأمانى حتى جاء أمر الله وقررتم بالله الغرور] .

وقوله [ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام] أى : بتطبيع آذانها ،
وذلك كالبجيرة ، والسائبة والوصيلة ، والحام ، فنبه ببعض ذلك على جميعه :
وهذا نوع من الإضلال ، يقتضى تحريم ما أحل الله ، أو تحليل
ما حرم الله .

ويلتحق بذلك ، من الاعتقادات الفاسدة ، والأحكام الجائرة ، ما هو
من أكبر الإضلال .

[ولآمرنهم فليغيرن خلق الله] وهذا يتناول الخلقة الظاهرة ، بالوشم ،
والوشر ، والنمص ، والتفليج للحسن ، ونحو ذلك ، مما أغواهم به الشيطان
فغيروا خلقه الرحمن .

مَنْ دُونَ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ

وذلك يتضمن التسخط من خلقه ، والتدح في حكمته ، واعتقاد أن ما يصنعونه بأيديهم ، أحسن من خلقه الرحمن ، وعدم الرضا بتقديره وتدييره .

ويتناول أيضاً تغيير الحلقة الباطنة .

فإن الله تعالى خلق عباده ، حنفاء مفلطين ، على قبول الحق ، وإثارة لجأتهم الشياطين ، فأجتالهم عن هذا الخلق الجميل ، وزينت لهم الشر والشرك ، والكفر ، والنسوق ، والعصيان .

فإن كل مولود يولد على الفطرة ، ولكن أبواه ، يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه ، ونحو ذلك ، مما يغيرون به ، ما فطر الله عليه العباد . من توحيده ، وجهه ومعرفته .

فافتستهم الشياطين في هذا الموضع ، افتراس السبع والذئب ، للغنم المنفردة .

ولولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين ، لجرى عليهم ، ما جرى على هؤلاء المفتونين ، فحسروا الدنيا والآخرة ، ورجعوا بالخيبة والصفة الخاسرة وهذا الذي جرى عليهم ، من توليهم عن ربهم وفاطرم ، وتوليهم لعدوهم المرید لهم الشر ، من كل وجه .

ولهذا قال [ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله ، فقد خسر خسرانا مبيناً] .

وأى خسار أبين وأعظم ، ممن خسر دينه ودنياه ، وأوبقته معاصيه وخطاياها !!؟

وَمَا يَـعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ
وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

فصل له الشقاء الأبدى ، وفاته النعيم السرمدى .
كما أن من تولى مولاه ، وآثر رضاه ، ربح كل الربح ، وأفلق كل
الفلاح ، وفاز بسعادة الدارين ، وأصبح قور العين .
اللهم ، فلا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت .
اللهم تولنا فيمن توليت ، وعافنا فيمن عافيت .
ثم قال [يعدم ويمنيهم] أى : يمد الشيطان من يسعى فى إضلالهم .
والوعد ، يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى [الشيطان يمدكم الفقر] .
فإنه يعدم — إذا أنفقوا فى سبيل الله ، افتقروا .
ويخوفهم إذا جاهدوا ، بالقتل وغيره كما قال تعالى :
[إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه] الآية .
ويخوفهم عند إثار مرضاة الله ، بكل ما يمكن ، وبما لا يمكن ، مما يدخله
فى عقولهم ، حتى يكسلوا عن فعل الخير .
وكذلك يمنيهم الأمانى الباطلة ، التى هى — عند التحقيق — كالسراب
الذى لا حقيقة له .
ولهذا قال [وما يعدم الشيطان إلا غرورا . أولئك ماؤاهم جهنم]
أى : من انقاد للشيطان ، وأعرض عن ربه ، وصار من أتباع إبليس
وحزبه ، مستترهم النار .
[ولا يجدون عنها محيصا] أى : مخلصاً ولا ملجأ ، بل هم خالدون فيها
أبد الآباد .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ

ولما بين مآل الأشقياء ، أولياء الشيطان ، ذكر مآل السعداء أوليائه
قال : والذين آمنوا : الآية .

* أى : [آمنوا] بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ،
والقدر ، خيره وشره ، على الوجه الذى أمروا به ، علماً ، وتصديقاً ،
وإقراراً .

[وعملوا الصالحات] الناشئة عن الإيمان .

وهذا يشمل سائر المأمورات ، من واجب ، ومستحب ، الذى على
القلب ، والذى على اللسان ، والذى على بقية الجوارح .
كل له ، من الثواب المرتب على ذلك ، بحسب حاله ومقامه ، وتسكيه
للإيمان والعمل الصالح .

ويقويه ، مارتب على ذلك ، بحسب ما أخل به من الإيمان والعمل .
وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته .

وكذلك وعده الصادق ، الذى يعرف من تتبع كتاب الله
وسنة رسوله .

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله :

[سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار] فيها مالا عين رأت ،
ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من أنواع المآكل ، والمشرب
اللذيذة ، والمناظر العجيبة ، والأزواج الحسنة ، والقصور ، والغرف المزخرفة
والأشجار للتدلية ، والفواكه المستفربة ، والأصوات الشجية ، والنعم السابقة

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ
أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

وتزاور الإخوان ، وتذكروهم ما كان منهم ، في رياض الجنات .
وأعلى من ذلك وأجل ، رضوان الله عليهم ، وتمتع الأرواح بقربه ،
والعيون برؤيته ، والأسماع بخطابه ، الذي ينسيهم كل نعيم وسرور .
ولولا الثبات من الله لهم ، لطاروا ، وماتوا من الفرح والحبور .
فله ما أحلى ذلك النعيم ، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم ، وما حصل
لهم ، من كل خير وبهجة ، لا يصفه الواصفون .
وتمام ذلك وكاله ، الخلود الدائم ، في تلك المنازل العاليات ،
ولهذا قال :

[خالدين فيها أبدا . وعد الله حقاً ، ومن أصدق من الله قبيلاً] .
فصدق الله العظيم ، الذي بلغ قوله وحديثه في الصدق ، أعلى ما يكون .
ولهذا لما كان كلامه صدقا ، وخبره صدقا — كان ما يدل عليه ،
مطابقة ، وتضمناً ، وملازمة ، كل ذلك مراد من كلامه .
وكذلك كلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، لكونه لا يخبر إلا بأمره
ولا ينطق إلا عن وحيه .

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ
سَوْءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣)

* أى : [ليس] الأمر والنجاة والتزكية [بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب] .

والأمانى : أحاديث النفس المجردة عن العمل ، المقترن بها ، دعوى مجردة ، لو عورضت بمثلها ، لكانت من جنسها .
وهذا عام فى كل أمر .

فكيف بأمر الإيمان ، والسعادة الأبدية؟! .!

فإن أمانى أهل الكتاب ، قد أخبر الله بها ، أنهم قالوا :

[لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيتهم]
وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ، ولا رسول ، من باب أولى وأحرى .
وكذلك أدخل الله فى ذلك من ينتسب إلى الإسلام ، لكامل العدل والإنصاف .

فإن مجرد الانتساب إلى أى دين كان ، لا يفيد شيئاً ، إن لم يأت الإنسان ببرهان ، على صحة دعواه .

فالأعمال تصدق الدعوى ، أو تكذبها ، ولهذا قال تعالى : [من يعمل سوءاً يجز به] وهذا شامل لجميع الماملين .

لأن السوء شامل ، لأى ذنب كان ، من صفائر الذنوب ، وكبائرها .
وشامل أيضاً ، لكل جزاء ، قليل ، أو كثير ، دنيوى ، أو أخروى .
والناس فى هذا المقام درجات ، لا يعلمها إلا الله ، فستقل ومستكثر .

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

فمن كان عمله كله سوءاً ، وذلك لا يكون إلا كافراً .

فإذا مات من دون توبة ، جوزى بالخلود في العذاب الأليم .

ومن كان عمله صالحاً ، وهو مستقيم في غالب أحواله ، وإنما يصدر
منه أحيانا بعض الذنوب الصغار ، فما يصيبه من الهم ، والغم ، والأذى ،
وبعض الآلام ، في بدنه ، أو قلبه ، أو حبيبه ، أو ماله ، ونحو ذلك —
فإنها مكفرات للذنوب ، لطفاً من الله بعباده .

وبين هذين الحالين مراتب كثيرة .

وهذا الجزاء ، على عمل السوء العام ، مخصوص في غير التائبين .

فإن التائب من الذنب ، كمن لا ذنب له ، كما دلت على ذلك
النصوص .

وقوله [ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً] لإزالة بعض ما لعله
يتوهم ، أن من استحق المجازاة على عمله ، قد يكون له ولي ، أو ناصر ،
أو شافع ، يدفع عنه ما استحقه .

فأخبر تعالى ، بانتفاء ذلك ، فليس له ولي ، يحصل له المطلوب ، ولا نصير
يدفع عنه المرهوب ، إلا ربه ومليكه .

[ومن يعمل من الصالحات] دخل في ذلك ، سائر الأعمال

القلبية والبدنية .

ودخل أيضا ، كل عامل ، من إنس ، أو جن ، صغير ، أو كبير ،
ذكر ، أو أنثى .

ولهذا قال [من ذكر أو أنثى وهو مؤمن] وهذا شرط لجميع الأعمال
لاتكون صالحة ، ولا تقبل ، ولا يترتب عليها الثواب ، ولا يندفع بها
العقاب ، إلا بالإيمان .

فالأعمال بدون الإيمان ، كأغصان شجرة ، قطع أصلها ، وكبناء ،
بني على موج الماء .

فالإيمان ، هو الأصل والأساس ، والقاعدة ، التي يبني عليها
كل شيء .

وهذا القيد ، ينبغى التفطن له ، في كل عمل مطلق ، فإنه مقيد به .

[فأولئك] أى : الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح .

[يدخلون الجنة] المشتملة على ما تشتهى الأنفس ، وتلد الأعين .

[ولا يظلمون تقيرا] أى : لا قليلا ولا كثيرا ، مما عملوه من الخير .

بل يجدونه كاملا موفرا ، مضاعفاً أضعافاً كثيرة .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (١٢٥)

* أى : لا أحد أحسن من دين ، من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو: إسلام الوجه لله ، الدال على استسلام القلب وتوجهه ، وإنابته ، وإخلاصه وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله .

[وهو] مع هذا الإخلاص والاستسلام [محسن] أى : متبع لشريعة الله ، التى أرسل الله بها رسله ، وأنزل كتبه ، وجعلها طريقاً لخواص خلقه وأتباعهم .

[واتبع ملة إبراهيم] أى : دينه وشرعه [حنيفاً] أى : مائلاً عن الشرك إلى التوحيد ، وعن التوجه للخلق ، إلى الإقبال على الخالق .

[واتخذ الله إبراهيم خليلاً] والخلة أعلى أنواع المحبة .

وهذه المرتبة ، حصلت للنخيلين ، محمد ، وإبراهيم ، عليهما الصلاة والسلام . وأما المحبة من الله ، فهى لعموم المؤمنين .

وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، لأنه وفى بما أمر به ، وقام بما ابتلى به . فجعله الله إماماً للناس ، واتخذ خليلاً ، ونوه بذكره فى العالمين .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ (١٢٦)

* وهذه الآية الكريمة ، فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء .

فأخبر أنه له [ما في السموات وما في الأرض]

أى : الجميع ملكه وعبيده .

فهم الملوكون ، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم .

وقد أحاط علمه بجميع المعلومات ، وبصره بجميع البصرات ، وسمعه

بجميع السموعات ، ونفذ مشيئته وقدرته ، بجميع الموجودات ، ووسعت

رحمته أهل الأرض والسموات ، وقهر بعزه وقهره ، كل مخلوق ، ودانت له

جميع الأشياء .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ

* الاستفتاء : طلب السائل من المسئول ، بيان الحكم الشرعى فى ذلك
المسئول عنه .

فأخبر عن المؤمنين ، أنهم يستفتون الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى حكم
النساء المتعلق بهم فتولى الله هذه الفتوى بنفسه فقال :

[قل الله يفتيكم فيهن] فاعملوا على ما أفتاكم به ، فى جميع شئون النساء ،
من القيام بحقوقهن ، وترك ظلمهن ، عموماً وخصوصاً .

وهذا أمر عام ، يشمل جميع ما شرع الله ، أمراً ، ونهياً ، فى حق النساء ،
الزوجات وغيرهن ، الصغار والكبار .

ثم خص — بعد التعميم — الوصية بالضعاف ، من اليتامى ، والولدان ،
إتباعاً بهم ، وزجراً عن التفريط فى حقوقهم فقال :

[وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء] أى : ويفتيكم أيضاً ،
بما يتلى عليكم فى الكتاب ، فى شأن اليتامى من النساء .

[اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن] .

ودذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة فى ذلك الوقت .

فإن اليتيمة ، إذا كانت تحت ولاية الرجل ، بنحسها حتمها ، وظلها ،
إما بأكل مالها الذى لها ، أو بعضه ، أو منعها من الزواج ، لينتفع بما لها ،
خوفاً من استخراجها من يده ، إن زوجها ، أو يأخذ من صهرها ، الذى تزوج
به ، بشرط أو غيره ، هذا إذا كان راعياً عنها .

لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ
تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ
عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال ، ولا يقسط في مهرها ، بل يعطيها
دون ما تستحق .

فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص ، ولهذا قال : [وترغبون أن
تنكحوهن] أي : ترغبون عن نكاحهن ، أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيلاً .

[والمستضعفين من الولدان] أي : ويفتيكم في المستضعفين من الولدان
الصغار ، أن تعطوهم حقهم ، من الميراث ، وغيره ، وأن لا تستولوا على
أموالهم ، على وجه الظلم والاستبداد .

[وأن تقوموا لليتامى بالقسط] أي : بالعدل التام .

وهذا يشمل القيام عليهم ، بإلزامهم أمر الله ، وما أوجبه على عباده ،
فيكون الأولياء ، مكلفين بذلك ، يلزمونهم بما أوجبه الله .

ويشمل القيام عليهم ، في مصالحهم الدنيوية ، بتنمية أموالهم ، وطلب
الأحظ لهم فيها ، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن .

وكذلك لا يجابون فيهم ، صديقا ولا غيره ، في تزوج وغيره ، على وجه
المهضم لحقوقهم

وهذا من رحمته تعالى بعباده ، حيث حث غاية الحث ، على القيام بمصالح ،
من لا يقوم بمصلحة نفسه ، لضعفه ، وفقد أبيه .

﴿ وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ

ثم حث على الإحسان عموماً ، فقال :

[وما تفعلوا من خير] لليتامى ولغيرهم ، سواء كان الخير متعدياً ،
أو لازماً .

[فإن الله كان به عليماً] أى : قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير ، قلة
وكثرة ، حسناً وضده ، فيجازى كلا بحسب عمله .

* أى : إذا خافت المرأة نشوز زوجها ، أى ترفعه عنها ، وعدم رغبته
فيها ، وإعراضه عنها ، فالأحسن فى هذه الحالة ، أن يصلحا بينهما صلحاً ،
بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها ، على وجه تبقى مع زوجها .
إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة ، أو الكسوة ، أو المسكن ،
أو القسم ، بأن تسقط حقها منه .

أو تهب يومها وليلتها ، لزوجها ، أو لضررتها .
فإذا انفقا على هذه الحالة ، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها ، لا عليها ،
ولا على الزوج .

فيجوز حينئذ لزوجها ، البقاء معها على هذه الحال ، وهى خير من الفرقة .
ولهذا قال : [والصلح خير] .

ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى ، أن الصلح بين من بينهما حق
أو منازعة فى جميع الأشياء ، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه ،
لما فيه من الإصلاح ، وبقاء الألفة ، والاتصاف بصفة السماح .

الْأَنْفُسُ الشَّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴿١٢٨﴾

وهو جائز في جميع الأشياء ، إلا إذا أحل حراماً ، أو حرم حلالاً ،
فإنه لا يكون صلحاً ، وإنما يكون جوراً .

واعلم أن كل حكم من الأحكام ، لا يتم ، ولا يكمل ، إلا بوجود
مقتضيه ، وانتفاء موافقه .

فمن ذلك ، هذا الحكم الكبير ، الذي هو الصلح .

فذكر تعالى مقتضى ذلك ، ونبه على أنه خير ، والخير كل عامل يطلبه ،
ويرغب فيه .

فإن كان — مع ذلك — قد أمر الله به ، وحث عليه ازداد المؤمن
طلباً له ، ورغبة فيه .

وذكر المانع بقوله [وأحضرت الأنفس الشح] [أى : جبلت النفوس
على الشح ، وهو : عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان ، والحرص على الحق
الذى له .

فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً .

أى ينبى لىكم ، أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنىء ، من نفوسكم ،
وتستبدلوا به ، ضده وهو : الساحة ، وهو بذل الحق الذى عليك ، والاعتناع
ببعض الحق الذى لك .

فتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن ، سهل — حينئذ — عليه الصلح
بينه وبين خصمه ومعامله ، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب .

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾

بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه ، فإنه يمسر عليه الصلح والموافقة ، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله ، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه .

فإن كان خصمه مثله ، اشد الأمر .

ثم قال : [وإن تحسنوا وتتقوا] أى : تحسنوا فى عبادة الخالق ، بأن يعبد العبد ربه ، كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فإنه يراه .

وتحسنوا إلى الخلق ، بجميع طرق الإحسان ، من نفع بال ، أو علم ، أو جاه ، أو غير ذلك .

[وتتقوا] الله ، بفعل جميع الأمور ، وترك جميع المحظورات .

أو تحسنوا بفعل المأمور ، وتتقوا بترك المحظور .

[فإن الله كان بما تعملون خبيراً] قد أحاط به ، علماً وخبراً ، بظاهره وبباطنه ، فيحفظه لكم ، ويجازيكم عليه ، أتم الجزاء .

* يخبر تعالى : أن الأزواج لا يستطيعون ، وليس فى قدرتهم العدل التام بين النساء .

وذلك ، لأن العدل : يستلزم وجود المحبة على السواء ، والداعى على السواء ، والميل فى القلب إليهن على السواء ، ثم العمل بمقتضى ذلك .

وهذا متعذر غير ممكن ، فلذلك عفا الله ، عما لا يستطيع^(١) ونهى عما هو ممكن بقوله :

(١) فى الأصل (لا يستطيع) وهو خطأ ، فأصلحناه كما ترى لينتظم الكلام .

فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمَلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا
فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾

[فلا تميلوا كل الميل فتدروها كالمعلقة] أى : لا تميلوا ميلا كثيرا ،
بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة .

بل افعلوا ما هو باستطاعتكم في العدل .

فالفنقة والكسوة ، والقسم ونحوها ، عليكم أن تعدلوا بينهم فيها .
بخلاف الحب ، والوطاء ونحو ذلك ، فإن الزوجة ، إذا ترك زوجها ،
ما يجب لها ، صارت كالمعلقة ، التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزوج ،
ولا ذات زوج ، يقوم بحقوقها .

[وإن تصلحوا] ما بينكم وبين زوجاتكم .

ويجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس ، احتساباً وقياماً
بحق الزوجة .

وتصلحوا أيضا ، فيما بينكم وبين الناس .

وتصلحوا أيضا بين الناس ، فيما تنازعوا فيه .

وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقا كما تقدم .

[وتتقوا] الله بفعل الأمور وترك المحظور ، والصبر على المقدور .

[فإن الله كان غفورا رحيمًا] يغفر ما صدر منكم ، من الذنوب ،

والتقصير في الحق الواجب ، ويرحمكم كما عطقتكم على أزواجكم ورحمتهم .

﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ
وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ (١٣٠)

* هذه الحالة الثالثة بين الزوجين ، إذا تعذرا للاتفاق ، فإنه لا بأس بالفراق .

فقال (١) [وإن يتفرقا] أى : بطلاق ، أو فسخ ، أو خلع ، أو غير ذلك .
[يغن الله كلا] من الزوجين [من سعته] أى : من فضله ، وإحسانه
الواسع الشامل .

فيغنى الزوج بزوجة ، خير له منها ، ويغنيها من فضله .

وإن انقطع نصيبها من زوجها ، فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع
الخلق ، القائم بمصالحهم ، ولعل الله يرزقها ، زوجها خيرا منه .

[وكان الله واسعا] أى : كثير الفضل ، واسع الرحمة .

وصلت رحمته وإحسانه ، إلى حيث وصل إليه علمه .

وكان — مع ذلك — [حكيمًا] أى : يعطى بحكمته ، ويمنع لحكمته .

[فإذا اقتضت حكمته منع بعض عباده ، من إحسانه ، بسبب في العبد ،
لا يستحق معه الإحسان — حرمة ، عدلا وحكمة .

(١) قوله (فقال) الأحسن أن يقال (ولذا قال) لأن المقام مقام تعليل .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ

* يخبر تعالى ، عن عموم ملكه العظيم الواسع ، المستلزم تدييره ، بجميع أنواع التدبير ، وتصرفه بأنواع التصريف ، قدرا ، وشرعا .

فتصرفه الشرعى ، أن وصى الأولين والآخرين ، أهل الكتب السابقة واللاحقة - بالتقوى المتضمنة للأمر والنهى ، وتشريع الأحكام ، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية ، بالثواب ، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها ، بأليم العذاب . ولهذا قال [وإن تكفروا] بأن تركوا تقوى الله ، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ، فإنكم لا تضررون بذلك ، إلا أنفسكم ، ولا تضررون الله شيئاً ، ولا تنقصون ملكه .

وله عبيد خير منكم ، وأعظم ، وأكثر ، مطيعون له ، خاضعون لأمره . ولهذا رتب على ذلك قوله [وإن تكفروا فإن لله ما فى السماوات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً] له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته ، التى لا ينقصها الإنفاق ، ولا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار .

لو اجتمع أهل السماوات ، وأهل الأرض ، أولهم وآخرهم ، فسأل كل واحد منهم ، ما بلغت أمانيه ، ما نقص من ملكه شيئاً .

ذلك بأنه جواد واجد ماجد ، عطاؤه كلام ، وعذابه كلام .
إنما أمره لشيء إذا أراد شيئاً ، أن يقول له كن فيكون .
ومن تمام غناه ، أنه كامل الأوصاف .

تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا

إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه ، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال .

بل ، له كل صفة كمال ، ومن تلك الصفة كمالها .

ومن تمام غناه ، أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولا شريكاً في ملكه ، ولا ظهيراً ، ولا معاوئاً له على شيء ، من تدابير ملكه .

ومن كمال غناه ، افتقار العالم العلوي والسفلي ، في جميع أحوالهم وشئونهم ، إليه ، وسؤالهم إياه ، جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة .

فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة ، وأغنامهم وأقنابهم ، ومن عليهم بلطفه ، وهداهم .

وأما الحميد ، فهو من أسماء الله تعالى الجليلة ، الدال على أنه هو المستحق لكل حمد ، ومحبة ، وثناء وإكرام .

وذلك لما اتصف به من صفات الحمد ، التي هي صفة الجمال والجلال ، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال ، فهو الم محمود على كل حال .

وما أحسن اقتران عذرين الاسمين الكريمين [الغنى الحميد] !!

فإنه غنى محمود ، فله كمال من غناه ، وكمال من حمده ، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر .

ثم كرر إحاطة ملكه ، لما في السموات والأرض ، وأنه على كل شيء وكيل .

حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
وَكَيْلًا ﴿١٣٢﴾

أى : عالم قائم بتدبير الأشياء ، على وجه الحكمة ، فإن ذلك ، من تمام الوكالة .

فإن الوكالة تستلزم العلم ، بما هو وكيل عليه ، والتوّة ، والقدرة على تنفيذه وتدييره وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة .

فما نقص من ذلك ، فهو لنقص بالوكيل .

والله تعالى منزّه عن كل نقص .

أى : هو الغنى الحميد الذى له القدرة الكاملة والمشيئة النافذة فيكم .

﴿١٣٣﴾ إِنَّ يَشَأُ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخِرِينَ وَكَانَ اللَّهُ
عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴿١٣٤﴾

* [إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين] غيركم ، هم أطوع لله منكم
وخير منكم .

وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم ، وإعراضهم عن ربهم ،
فإن الله لا يعبا بهم شيئاً ، إن لم يطيعوه ، ولكنه يمهل ، ويملى ، ولا يهمل .
ثم أخبر أن من كانت همته وإرادته دنية ، غير متجاوزة ثواب
الدنيا ، وليس له إرادة في الآخرة ، فإنه قد قصر سعيه ونظره ، ومع ذلك
فلا يحصل له من ثواب الدنيا ، سوى ما كتب الله له منها .
فإنه تعالى ، هو المالك لكل شيء ، الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة ،
فليطلبها منه ، وليستعن به عليهما .

فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته ، ولا تدرك الأمور الدينية والدنيوية
إلا بالاستعانة به ، والافتقار إليه على الدوام .

وله الحكمة تعالى ، في توفيق من يوفقه ، وخذلان من يخذله ، وفي
إعطائه ومنعه .

ولهذا قال [وكان الله سميعاً بصيراً] .

ثم قال تعالى [يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين] الآيتين .

يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ
لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا

* يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا [قوامين بالقسط شهداء لله] .
والقوام ، صيغة مبالغة ، أى : كونوا فى كل أحوالكم ، قائمين
بالقسط ، الذى هو العدل فى حقوق الله ، وحقوق عباده .
فالقسط فى حقوق الله ، أن لا يستعان بنعمه على معصيته ، بل تصرف
فى طاعته .

والقسط فى حقوق الآدميين ، أن تؤدى جميع الحقوق التى عليك ، كما
تطلب حقوقك .

فتؤدى النفقات الواجبة ، والديون ، وتعامل الناس بما تحب أن
يعاملوك به ، من الأخلاق والمكافأة ، وغير ذلك .

ومن أعظم أنواع القسط ، القسط فى المقالات والقائلين .
فلا يحكم لأحد القولين ، أو أحد المتنازعين ، لا نتسابه أو ميله لأحدهما .
بل يجعل وجهته ، العدل بينهما .

ومن القسط أداء الشهادة ، التى عندك على أى وجه كان ، حتى على
الأحباب ، بل على النفس ، ولهذا قال : [شهداء لله ولو على أنفسكم
أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما] .

أى : فلا تراعوا الغنى لغناه ، ولا الفقير — بزعمكم — رحمة له .
بل اشهدوا بالحق ، على من كان .

والقيام بالقسط ، من أعظم الأمور ، وأدلها على دين القائم به ،
وورعه ومقامه فى الإسلام .

قَالَ اللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا
أَوْ تُعْرِضُوا فإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

فيتعين على من نصح نفسه ، وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام ،
وأن يجعله نصب عينيه ، ومحل إرادته ، وأن يزيل عن نفسه ، كل مانع
وعائق يعوقه ، عن إرادة القسط ، أو العمل به .

وأعظم عائق لذلك ، اتباع الهوى ، ولهذا ، نبه تعالى ، على إزالة هذا
لمانع بقوله :

[فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا] أى : فلا تتبعوا شهوات أنفسكم
المعارضة للحق .

فإنكم — إن اتبعتموها ، عدلتم عن الصواب ، ولم توفقوا للعدل .
فإن الهوى ، إما أن يعنى بصيرة صاحبه ، حتى يرى الحق باطلا ،
والباطل حقاً .

وإما أن يعرف الحق ويتركه ، لأجل هواه .

فمن سلم من هوى نفسه ، وفق للحق ، وهدى إلى الصراط المستقيم .
ولما بين أن الواجب ، القيام بالقسط ، نهى عن ما يصاد ذلك ،
وهو لي اللسان عن الحق ، فى الشهادات وغيرها ، وتحريف النطق ، عن
الصواب المقصود من كل وجه ، أو من بعض الوجوه .

ويدخل فى ذلك ، تحريف الشهادة ، وعدم تكميلها ، أو تأويل الشاهد
على أمر آخر .

فإن هذا ، من اللى ، لأنه الانحراف عن الحق .

يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ

[أو تعرضوا] أى : تتركوا القسط المنوط بكم ، كترك الشاهد لشهادته وترك الحاكم لحكمه ، الذى يجب عليه القيام به .
[فإن الله كان بما تعملون خبيراً] أى : محيطاً بما فعلتم ، يعلم أعمالكم ، خفيها وجليها .

وفى هذا تهديد شديد ، للذى يلوى أو يعرض .
ومن باب أولى ، الذى يحكم بالباطل ، أو يشهد بالزور ، لأنه أعظم جرماً .

لأن الأولين ، تركا الحق ، وقام هو بالباطل .
* اعلم أن الأمر ، إما أن يوجه إلى من لم يدخل فى الشيء ولم يتصف بشيء منه . فهذا يكون أمراً له ، فى الدخول فيه .

وذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان كقوله تعالى :
[يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لا معكم] الآية .
وإما أن يوجه إلى من دخل فى الشيء ، فهذا يكون أمره ليصحح ما وجد منه ويحصل ما لم يوجد .

ومنه ما ذكره الله فى هذه الآية ، من أمر المؤمنين بالإيمان .
فإن ذلك يقتضى أمرهم بما يصحح إيمانهم ، من الإخلاص والصدق ، وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات .

ويقتضى أيضاً ، الأمر بما لم يوجد من المؤمن ، من علوم الإيمان وأعماله .
فإنه كلما وصل إليه نص ، وفهم معناه ، واعتقده ، فإن ذلك من الأمور به .

الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِيرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

وكذلك سائر الأعمال الظاهرة ، والباطنة ، كلها من الإيمان ، كما
دلت على ذلك النصوص الكثيرة ، وأجمع عليه سلف الأمة .
ثم الاستمرار على ذلك ، والثبات عليه إلى المات كما قال تعالى :
[يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم
مسلمون] .

وأمر هنا بالإيمان به ، وبرسوله ، وبالقرآن ، وبالكتب المتقدمة .
فهذا كله من الإيمان الواجب ، الذي لا يكون العبد مؤمنا إلا به .
إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله ، وتفصيلاً فيما علم من ذلك بالتفصيل .
فمن آمن هذا الإيمان للمأمور به ، فقد اهتدى وأنجح .
[ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل
ضلالاً بعيداً] .

وأى ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم ، وسلك
الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم !!؟
واعلم أن الكفر بشيء من هذه الأمور المذكورة ، كالكفر بجميعها ،
لتلازمها ، وامتناع وجود الإيمان ببعضها ، دون بعض .
ثم قال [إن الذين آمنوا ثم كفروا] الآية .

﴿١٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا

ثُمَّ ءَزْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴿١٣٧﴾

* أى : من تكرر منه الكفر بعد الإيمان ، فاهتدى ، ثم ضل وأبصر ، ثم عى وآمن ، ثم كفر واستمر على كفره ، وازداد منه ، فإنه بعيد من التوفيق والهداية ، لأقوم الطريق ، وبعيد عن المغفرة ، لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها .

فإن كفره ، يكون عقوبة وطبعاً ، لا يزول كما قال تعالى [فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم] .

[وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة] .

ودلت الآية : أنهم ، إن لم يزدادوا كفراً ، بل رجعوا إلى الإيمان ، وتركوا ما هم عليه من الكفران ، فإن الله يغفر لهم ، ولو تكررت منهم الردة .

وإذ كان هذا الحكم فى الكفر ، فغيره — من المعاصى التى دونه — من باب أولى أن العبد لو تكررت منه ، ثم عاد إلى التوبة ، عاد الله له بالمغفرة .

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨) الَّذِينَ

* البشارة ، تستعمل في الخير^(١) ، وتستعمل في الشر بقيد ، كما في هذه الآية .

يقول تعالى [بشر المنافقين] أى : الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، بأقبح بشارة وأسوأها ، وهو العذاب الأليم .

(١) قوله (وتستعمل البشارة في الخير ، وتستعمل في الشر بقيد)
أى : لنكتة بلاغية وهى إرادة السخرية بهؤلاء المجرمين على حد قوله تعالى
(هذا نزلهم يوم الدين) .

ومعلوم أن النزل هو البيت الذى يكرم فيه الأضياف كالفنادق ونحوها
ولاشك أن تسمية (جهنم) التى هى مأوى العصاة — نزلا لتزيد حسراتهم
ويتضاعف عذابهم ، لأنهم لم يسلكوا سبيل المؤمنين .

ومراد القول فى استقصاء الكلام فى هذا الموضوع ، وإيراد الشواهد
من القرآن وكلام العرب — فسيح ، ومجاله واسع ، لاتسع له هذه العجالة .
ومن أراد الاستقصاء ، فليرجع إلى تفسير الزمخشري المعروف بالكشاف
وإلى تفسير الألوسى .

والمقصود أن استعمال البشارة فى الشر استعمال مجازى بدليل التيد
المشروط فيه ، والقيود لا يفتقر إليها إلا المجاز .

قال فى الصحاح : البشارة المطلقة لا تكون إلا بخير ، وإنما تكون بالشر
إذا كانت مقيدة ، كقوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) ١٥٠ .

يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَتُّغُونَ عِنْدَهُمُ
الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

وذلك بسبب محبتهم الكفار ، وموالاتهم ، ونصرتهم ، وتركهم
لموالاة المؤمنين .

فأى شيء حملهم على ذلك ؟ أليتغون عندهم العزة ؟ .

وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين .

ساء ظنهم بالله ، وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين .

ولحظوا بعض الأسباب ، التي عند الكافرين ، وقصر نظرهم عما
وراء ذلك .

فاتخذوا الكافرين أولياء ، يتعززون بهم ، ويستنصرون .

والحال أن العزة لله جميعاً ، فإن نواصي العباد بيده ، ومشيتته
نافذة فيهم .

وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين ، ولو تخلل ذلك بعض
الامتحان لعباده المؤمنين .

وإدالة العدو عليهم ، إدالة ، غير مستمرة ، فإن العاقبة والاستقرار ،
للمؤمنين .

وفي هذه الآية ، الترهيب العظيم من موالاته الكافرين ؛ وترك موالاته
المؤمنين ، وأن ذلك ، من صفات المنافقين .

وأن الإيمان يقتضى محبة المؤمنين وموالاتهم ، وبغض الكافرين
وعداوتهم .

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَتَعَدُّوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ﴾

* أى : وقد بين الله لكم — فيما أنزل عليكم — حكمه الشرعى عند حضور مجالس الكفر والمعاصى [أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها] أى : يستهان بها .
وذلك أن الواجب على كل مكلف فى آيات الله ، الإيمان بها ، وتعظيمها وإجلالها ، وتفخيمها .

وهذا هو المقصود بإزالتها ، وهو الذى خلق الله الخلق لأجله .

فصد الإيمان ، الكفر بها ، وصد تعظيمها ؛ الاستهزاء بها واحتقارها .
ويدخل فى ذلك ، مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم .

وكذلك المبتدعون ، على اختلاف أنواعهم .

فإن احتجاجهم على باطلهم ، يتضمن الاستهانة بآيات الله ، لأنها لا تدل إلا على الحق ، ولا تستلزم إلا صدقا .

بل وكذلك يدخل فيه ، حضور مجالس المعاصى والفسوق ، التى يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه ، وتقتحم حدوده التى حدها لعباده .

ومنتهى هذا النهى عن القعود معهم [حتى يخوضوا فى حديث غيره]
أى : غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها .

فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ
مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ
قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْهُوَِّمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ

[إنكم إذا] أى : إن قعدتم معهم فى الحال المذكور [مثلهم] لأنكم
رضيتم بكفرهم واستهزأهم ، والراضى بالمعصية ، كالفاعل لها .
والحاصل أن من حضر مجلساً ، يعصى الله به (١) ، فإنه يتعين عليه الإنكار
عليهم ، مع القدرة ، أو القيام مع عدمها .

[إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً] كما اجتمعوا على
الكفر والموالاة .

ولا ينفع المنافقين مجرد كونهم — فى الظاهر — مع المؤمنين كما
قال تعالى :

[يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ، انظرونا نقتبس من
نوركم] إلى آخر الآيات .

ثم ذكر تحقيق موالاة المنافقين للكافرين ، ومعاداتهم للمؤمنين فقال :

[الذين يتربصون بكم] أى : ينتظرون الحالة التى تصيرون عليها ،
وتنتهون إليها ، من خير أو شر ، قد أعدوا لكل حالة جواباً بحسب نفاقهم .
[فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم] .

فيظهرون أنهم مع المؤمنين ، ظاهراً وباطناً ، ليسلموا من القدرح والظعن
عليهم ، وليشر كوهم فى الغنيمة والنقء ، ولينتصروا بهم .

يَنبِتْكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

[وان كان للكافرين نصيب] ولم يقل فتح ، لأنه لا يحصل لهم فتح ،
يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة .

بل غاية ما يكون ، أن يكون لهم نصيب غير مستقر ، حكمة من الله .
فإذا كان ذلك [قالوا ألم نستحوذ عليكم] أى : نستولى عليكم [ونمنعكم
من المؤمنين] .

أى : يتصنعون عندهم ، بكف أيديهم عنهم ، مع القدرة ، ومنعهم من
المؤمنين ، بجميع وجوه المنع فى تنزيهم ، وتزهيدهم فى القتال ، ومظاهرة
الأعداء عليهم ، وغير ذلك ، مما هو معروف منهم .

[فالله يحكم بينكم يوم القيمة] فيجازى المؤمنين ، ظاهراً وباطناً ،
بالجنة ، ويعذب المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات .

[ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً] أى : تسلطاً واستيلاءً
عليهم .

بل لاتزال طائفة من المؤمنين على الحق منصوره ، لا يضرهم من خذلهم
ولا من خالفهم .

ولا يزال الله ، يحدث من أسباب النصر للمؤمنين ، ودفع تسلط
الكافرين ، ما هو مشهود بالعيان .

حتى إن بعض المسلمين ، الذين تحكهم الطوائف الكافرة ، قد بقوا
محترمين لا يتعرضون لأديانهم ، ولا يكونون مستضعفين عندهم .

بل لهم العز التام من الله ، فله الحمد ، أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً .

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا

* يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه ، من قبيح الصفات ،
وشنائع السمات .

وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى ، أى : بما أظهره من الإيمان ،
وأبطنوه من الكفران .

ظنوا أنه يروج على الله ، ولا يعلمه ، ولا يبيده لعباده ، والحال أن
الله خادعهم .

فجرد وجود هذه الحال منهم ، ومشيمهم عليها ، خداع لأنفسهم .
وأى خداع أعظم ، ممن يسعى سعياً ، يعود عليه بالهوان والذل
والحرمان؟! .

ويدل — بمجرد — على نقص عقل صاحبه ، حيث جمع بين المعصية ،
ورآها حسنة ، وظنها من العقل والمكر .

فله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه!! .

ومن خداعه لهم يوم القيامة ، ما ذكره الله فى قوله :

[يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم
قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة
وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم] إلى آخر الآيات .

ومن صفاتهم أنهم [إذا قاموا إلى الصلاة] التى هى أكبر الطاعات
العملية ، إن قاموا [قاموا كسالى] متناقلين لها ، متبرمين من فعلها .

قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

والكسل ، لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم .
فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله ، وإلى ما عنده ، عادمة للإيمان ،
لم يصدر منهم الكسل .
[يراءون الناس] أى : هذا الذى انطوت عليه سرائرهم ، وهذا
مصدر أعمالهم ، مراعاة الناس .
يقصدون رؤية الناس ، وتعظيمهم ، واحترامهم ، ولا يخلصون لله .
فهذا [لا يذكرون الله إلا قليلا] لامتلاء قلوبهم من الرياء .
فإن ذكر الله تعالى ، وملازمته ، لا يكون إلا من مؤمن ، ممتلىء
قلبه ، بحجة الله وعظمته .

[مذبدبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء] .
أى : مترددين ، بين فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين .
فلا من المؤمنين ظاهراً وباطناً ، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً .
أعطوا باطنهم للكافرين ، وظاهرهم للمؤمنين ، وهذا أعظم ضلال يقدر .
ولهذا قال [ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً] أى : لن تجد طريقاً
لهدأته ، ولا وسيلة لترك غوايته ، لأنه انفلق عنه باب الرحمة ، وصار بدله ،
كل نقمة .

فهذه الأوصاف المذمومة ، تدل — بتنبئها — على أن المؤمنين ،
متصفون بضدها ، من الصدق والإخلاص ، ظاهراً وباطناً .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰكُمْ سُلْطَانًا
مُبِينًا ﴿١٤٤﴾

وأنهم لا يجهل ما عندهم ، من النشاط ^(١) في صلاتهم ، وعباداتهم ،
وكمثرة ذكركم لله تعالى .

وأنهم قد هدام الله ، ووقفهم للصرط المستقيم .
فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين ، وليختار أيهما أولى به ،
والله المستعان .

* لما ذكر أن من صفات المنافقين ، اتخاذ الكافرين أولياء من
دون المؤمنين ، نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة ، وأن
يشابهوا المنافقين ، فإن ذلك موجب لأن [تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً]
أى : حجة واضحة على عقوبتكم .

فإنه قد أذرنا وحذرنا منها ، وأخبرنا بما فيها من المفسد .
فسلوها — بعد هذا — موجب للعقاب .
وهذه الآية ، دليل على كمال عدل الله ، وأن الله لا يعذب أخداً ؛ قبل
قيام الحجة عليه .

وفيه التحذير من المعاصي ؛ فإن فاعلها يجعل الله عليه سلطاناً مبيناً .

(١) في الأصل المطبوع « نشاطهم » وهو خطأ نحوى فلذلك أصلحناها

بـ « من النشاط » لأن « ما » تحتاج إلى بيان ، و « من » بيان لها .

﴿١٤٥﴾ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ

* يخبر تعالى ، عن مآل المنافقين ، أنهم في أسفل الدرجات من العذاب ، وأشر الحالات من العقاب .

فهم تحت سائر الكفار ، لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ، ومعاداة رسله . وزادوا عليهم ، المكر والخديعة ، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين ، على وجه لا يشعر به ولا يحس .

ورتبوا على ذلك ، جريان أحكام الإسلام عليهم ، واستحقاق ما لا يستحقونه .

فبذلك ونحوه ، استحقوا أشد العذاب .

وليس لهم منقذ من عذابه ، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه .

وهذا عام لكل منافق ، إلا من من الله عليهم بالتوبة من السيئات .

[وأصلحوا] له الظواهر والبواطن [واعتصموا بالله] والتجأوا إليه ،

في جلب منافعهم ، ودفع المضار عنهم .

[وأخلصوا دينهم] الذي هو الإسلام ، والإيمان والإحسان [لله] .

فقصدوا وجه الله ، بأعمالهم الظاهرة والباطنة ، وسلموا من الرياء والنفاق .

فمن اتصف بهذه الصفات [فأولئك مع المؤمنين] أى : في الدنيا ،

والبرزخ ، ويوم القيامة .

[وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً] لا يعلم كنهه إلا الله ، مما

لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأَوْلَىٰ لَكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص ، بالذكر ، مع دخولها في قوله :

[وأصلحوا] لأن الاعتصام والإخلاص ، من جملة الإصلاح ، لشدة الحاجة إليهما ، خصوصا في هذا المقام الحرج ، الذي تمكن فيه النفاق من القلوب .

فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله ، ودوام اللجأ والافتقار إليه ، في دفعه ، وكون الإخلاص منافيا كل المناقاة للنفاق .

فذكرها لفضلها ، وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما ، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما .

وتأمل كيف — لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين — لم يقل (وسوف يؤتيهم أجرا عظيما ، مع أن السيئات فيهم . بل قال [وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما] .

لأن هذه القاعدة الشريفة — لم يزل الله يبدىء فيها ويعيد ، إذا كان السياق في بعض الجزئيات ، وأراد أن يرتب عليه ثواباً أو عقاباً وكان ذلك مشتركا بينه وبين الجنس الداخل فيه .

رتب^(١) الثواب ، في مقابلة الحكم العام ، الذي تندرج تحته ، تلك القضية وغيرها .

(١) قوله (رتب إلخ) جواب (إذا) في قوله المتقدم (إذا كان السياق . إلخ) .

الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ
وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

ولئلا يتوهم اختصاص الحكم ، بالأمر الجزئي ، فهذا من أسرار
القرآن البديعة .

فالتائب من المنافقين ، مع المؤمنين ، وله ثوابهم .

* ثم أخبر تعالى ، عن كمال غناه ، وسعة حلمه ، ورحمته ؛ وإحسانه فقال :

[ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم] والحال أن الله شاكر عليم .

يعطى المتحملين لأجله ؛ الأثقال ، الدائنين في الأعمال ؛ جزيل الثواب

وواسع الإحسان .

ومن ترك شيئاً لله ، أعطاه الله خيراً منه .

ومع هذا ، يعلم ظاهركم وباطنكم ، وأعمالكم ، وما تصدر عنه من إخلاص

وصدق ، وضد ذلك .

وهو يريد التوبة والإجابة منكم والرجوع إليه .

فإذا أنبتم إليه ، فأى شيء يفعل بعذابكم ؟

فإنه لا يتشفى بعذابكم ، ولا ينتفع بعقابكم .

بل العاصي لا يضر إلا نفسه ، كما أن عمل المطيع ، لنفسه .

والشكر هو : خضوع القلب ، واعترافه بنعمة الله ، وثناء اللسان على

المشكور .

وعمل الجوارح بطاعته ، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه .

﴿١٤٨﴾ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ
وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تَعْفُوا
عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴿١٤٩﴾

* يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، أى : يبغض ذلك ويمقته ، ويعاقب عليه .

ويشمل ذلك ، جميع الأقوال السيئة ، التى تسوء وتحزن ، كالسب ، والتذف ، والسب ونحو ذلك فإن ذلك كله ، من المنهى عنه ، الذى يبغضه الله .

ويدل مفهومها ، أنه يجب الحسن من القول ، كالذكر ، والكلام الطيب اللين .

وقوله [إلا من ظلم] أى : فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه ، ويشتمى منه ، ويجهر بالسوء لمن جهر له به ، من غير أن يكذب عليه ، ولا يزيد على مظالمه ، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه .

ومع ذلك ، فعفوه ، وعدم مقابلته ، أولى كما قال تعالى : [فن عفا وأصلح فأجره على الله] .

[وكان الله سميعاً عليماً] ولما كانت الآية ، قد اشتملت على الكلام السئ ، والحسن ، والمباح ، أخبر تعالى ، أنه سميع ، فيسمع أقوالكم ، فاحذروا أن تتكلموا بما يبغض ربكم فيعاقبكم .

* وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن [عليماً] بنياتكم ومصدر أقوالكم .

ثم قال تعالى [إن تبدوا خيراً أو تخفوه] وهذا يشمل كل خير ، قولى ، وفعلى ، ظاهر ، وباطن ، من واجب ، ومستحب .

﴿١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ

[أو تعفوا عن سوء] أى : عن أساء إليكم^(١) فى أبدانكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، فتسمحوا عنه ، فإن الجزاء من جنس العمل . فمن عفا الله ، عفا الله عنه ، ومن أحسن ، أحسن الله إليه ، فلهذا قال : [فإن الله كان عفواً قديراً] أى : يعفو عن زلات عباده ، وذنوبهم العظيمة ، فيسدل عليهم سترة ، ثم يعاملهم بعفوه التام ، الصادر عن قدرته . وفى هذه الآية ، إرشاد إلى التدبر^(٢) فى معانى أسماء الله وصفاته ، وأن الخلق والأمر ، صادر عنها ، وهى مقتضية له ، ولهذا يعلل الأحكام ، بالأسماء الحسنى ، كما فى هذه الآية .

لما ذكر عمل الخير والعفو عن السيء ، رتب على ذلك ، بأن أحوالنا على معرفة أسمائه ، وأن ذلك يغنيننا عن ذكر ثوابها الخاص قال [إن الذين يكفرون] إلى [وكان الله غفوراً رحيماً] .

* هنا قسمان ، قد وضحا لكل أحد : مؤمن بالله ، وبرسوله كلهم ، وكتبه ، وكافر بذلك كله .

وبقى قسم ثالث : وهو : الذى يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل ، دون بعض ، وأن هذا سبيل ينجيهِ من عذاب الله ، إن هذا إلا مجرد أمانى . فإن هؤلاء ، يريدون التفريق بين الله وبين رسله .

فإن من تولى الله حقيقة ، تولى جميع رسله ، لأن ذلك من تمام توليه . ومن عادى أحداً من رسله ، فقد عادى الله ، وعادى جميع رسله كما قال تعالى :

(١) فى الأصل المطبوع « ساءكم » وهو خطأ لنوى .

(٢) فى الأصل « التفقد » وهو خطأ .

وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ
يُؤْتِيهِمُ أَجْرَهُمُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

[من كان عدوا لله] الآيات .

وكذلك من كفر برسول ، فقد كفر بجميع الرسل ، بل بالرسول ،
الذي يزعم أنه به مؤمن ، ولهذا قال : [أولئك هم الكافرون حقا] .

وذلك لثلاث يتوهم أن مرتبتهم متوسطة ، بين الإيمان والكفر .

ووجه كونهم كافرين — حتى بمن زعموا الإيمان به — أن كل دليل
دلهم على الإيمان بمن آمنوا به ، موجود هو أو مثله ، أو ما هو فوقه للنبي
الذي كفروا به .

وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به ، موجود
مثلا ، أو أعظم منها ، فيمن آمنوا به .

فلم يبق بعد ذلك ، إلا التشهي والهوى ، ومجرد الدعوى ، التي يمكن
كل أحد أن يقابلها بمثلا .

ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقا ، ذكر عقاباشاملا لهم ، ولكل
كافر فقال :

[وأعدنا للكافرين عذابا مهينا] كما تكبروا عن الإيمان بالله ،
أهانهم بالعذاب الأليم المحزى .

يَسْتَلِكُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ
السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهُ جَهْرَةً
فَأَخَذْتَهُمُ الصَّعِقَةَ يُظْلِمُهُم مُّمٌّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا

[والذين آمنوا بالله ورسله] وهذا يتضمن الإيمان ، بكل ما أخبر
الله به عن نفسه ، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام .

[ولم يفرقوا بين أحد منهم] بل آمنوا بهم كلهم .

فهذا هو الإيمان الحقيقي ، واليقين المبني على البرهان .

[أولئك سوف يؤتوهم أجورهم] أى : جزاء إيمانهم ، وماترتب عليه ،
من عمل صالح ، وقول حسن ، وخلق جميل ، كل على حسب حاله .

ولعل هذا ، هو السر في إضافة الأجور إليهم .

[وكان الله غفوراً رحيمًا] يفر السيئات ويقبل الحسنات .

* هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب ، للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ،
على وجه العناد والاقتراح ، وجعلهم هذا السؤال . يتوقف عليه تصديقهم ،
أو تكذيبهم .

وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة ، كما نزلت
التوراة والإنجيل .

وهذا غاية الظلم منهم ، فإن الرسول ، بشر عبد ، مدبر ، ليس في يده
من الأمر شيء ، بل الأمر كله لله .

فَوَقَّهَمُ الطُّورَ بِمِثْقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الأبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ
لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِثْقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا تَقَضَّيْتُمْ
مِثْقَهُمْ وَكَفَرْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ

وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده ، كما قال تعالى عن الرسول ،
لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين عليه صلى الله عليه وسلم .

[قل سبحان ربي هل كنت إلا بشر رسولاً] .

وكذلك جعلهم الفارق ، بين الحق والباطل ، مجرد إنزال الكتاب
جملة ، أو مفروقاً ، مجرد دعوى ، لا دليل عليها ، ولا مناسبة ، بل ولا شبهة .
فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء ، أن الرسول الذي يأتيكم
بكتاب ، نزل مفروقاً ، فلا تؤمنوا به ، ولا تصدقوه ؟

بل نزول القرآن مفروقاً بحسب الأحوال ، مما يدل على عظمته ، واعتناء
الله بمن أنزل عليه كما قال تعالى :

[وقالوا لولا نزل هذا القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك
ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً] .

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد ، أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم .

بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ، ما هو أعظم مما سلكوا مع الرسول ،
الذي يزعمون أنهم آمنوا به ، من سؤالهم له ، رؤية الله عياناً ، واتخاذهم
العجل إلهاً يبدونه ، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ، ما لم يره غيرهم .

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم ، وهو التوراة ، حتى رفع
الطور من فوق رؤوسهم ، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا ، أسقط عليهم ،

قُلُوبَنَا غَلَفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْنَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾
وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا
الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن

قبولوا ذلك على وجه الإغماض ، والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري .

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية ، التي أمروا بدخولها سجداً
مستغفرين ، يخالفوا القول والفعل .

ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت ، فعاقبه الله تلك
العقوبة الشنيعة .

وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم ، فنبذوه وراء ظهورهم ، وكفروا بآيات
الله ، وقتلوا رسله بغير حق .

ومن قولهم : إنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه .
والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه ، بل شبه لهم غيره ، فقتلوا غيره وصلبوه .
وادعائهم أن قلوبهم غلغ ، لا تفقه ما تقول لهم ، ولا تفهمه .
وبصدم الناس عن سبيل الله ، فصدوهم عن الحق ، ودعوتهم إلى ما هم
عليه من الضلال والغي .

وبأخذهم السحت ، والربا ، مع نهى الله لهم عنه ، والتشديد فيه .
فالذين فعلوا هذه الأفاعيل ، لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً ،
أن ينزل عليهم كتاباً من السماء .

وهذه الطريقة ، من أحسن الطرق ، لمحااجة الخصم المبطل .

شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ
إِلَّا اتَّبَاعِ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ

وهو : أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ، ما جعله شبهة له
ولغيره ، في رد الحق ، أن يبين من حاله الخبيثة ، وأفعاله الشنيعة ، ما هو
من أقبح ما صدر منه ، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادى
الخبثيس ، وأن له مقدمات يجعل هذا معها .

وكذلك كل اعتراض يعترضون به ، على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ،
يمكن أن يقابل بمثله ، أو ما هو أقوى منه ، في نبوة من يدعون لإيمانهم
به ، ليكتفى بذلك شرهم ، وينتفع باطلهم .

وكل حجة سلكوها ، في تقريرهم لنبوة من آمنوا به ، فإنها ونظيرها ،
وما هو أقوى منها ، دالة ومقررة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة ، لم
يسطها في هذا الموضع ، بل أشار إليها ، وأحال على مواضعها ، وقد بسطها
في غير هذا الموضع في المحل اللائق بسطها .

وقوله [وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته] .

يحتمل أن الضمير هنا في قوله [قبل موته] يعود إلى أهل الكتاب .

فيكون — على هذا — كل كتابي يحضره الموت ، ويعاين الأمر

حقيقة ، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام ، ولكنه إيمان لا ينفع ، لأنه
إيمان اضطرار .

مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ قَبُضُومٌ مِّنَ الَّذِينَ
هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ

فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد ، أن لا يستمروا على هذه
الحال ، التي سيندمون عليها قبل مماتهم فكيف يكون حالهم يوم حشرهم
وقيامهم ؟ !!

ويحتمل أن الضمير في قوله [قبل موته] راجع إلى عيسى عليه السلام .
فيكون المعنى : وما من أحد من أهل الكتاب ، إلا ليؤمنن بالمسيح
عليه السلام قبل موت المسيح ، وذلك يكون عند اقتراب الساعة ، وظهور
علاماتها الكبار .

فإنها تكاثرت الأحاديث في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة .
يقتل الدجال ، ويضع الجزية ، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين .
ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً ، يشهد عليهم بأعمالهم ، وهل
هي موافقة لشرع الله أم لا ؟ .
وحيث لا يشهد إلا ببطلان كل ما هم عليه ، مما هو مخالف
لشريعة القرآن .

ولما دعاهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم علمنا بذلك ، لعلمنا بكمال عدالة
المسيح عليه السلام ، وصدقه ، وأنه لا يشهد إلا بالحق .

إلا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الحق ، وما عداه ، فهو
ضلال وباطل .

كثيراً ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴿١٦١﴾ ﴿١٦٠﴾

ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب ، كثيراً من الطيبات ،
التي كانت حلالاً عليهم .

وهذا تحريم عقوبة ، بسبب ظلمهم واعتدائهم ، وصددهم الناس
عن سبيل الله ، ومنعهم إياهم من الهدى ، وبأخذهم الربا ، وقد نهوا عنه .
فمنعوا المحتاجين ، ممن يبايعونه عن العدل .

فعاقبتهم الله من جنس فعلهم ، فمنعهم من كثير من الطيبات ، التي
كانوا بصددها ، لكونها طيبة .

وأما التحريم الذي على هذه الأمة ، فإنه تحريم ، تنزيها لهم عن الخبائث
التي تضرهم ، في دينهم ودنياهم .

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ
بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ
وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ
سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٦٢)

* لما ذكر معايب أهل الكتاب ، ذكر المدوحين منهم فقال :

[لكن الراسخون في العلم] أى : الذين ثبت العلم في قلوبهم ، ورسخ
الإيقان في أفئدتهم ، فأثمر لهم الإيمان التام العام [بما أنزل إليك وما أنزل
من قبلك] .

وأثمر لهم الأعمال الصالحة ، من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ،
الذين ها أفضل الأعمال .

وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود ، والإحسان إلى العبيد .

وآمنوا باليوم الآخر ، فخافوا الوعيد ، ورجو الوعد .

[أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً] لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان ،
والعمل الصالح ، والإيمان بالكتب ، والرسل السابقة واللاحقة .

﴿١٦٣﴾ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ
مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ
زُبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ

* يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله ، من الشرع العظيم ، والأخبار
الصادقة ، ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، وفي هذا
عدة فوائد :

منها أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، ليس بيدع من الرسل ، بل أرسل
الله قبله من المرسلين ، العدد الكثير ، والجم الغفير ، فاستغراب رسالته
لا وجه له إلا الجهل والعناد .

ومنها : أنه أوحى إليه ، كما أوحى إليهم ، في الأصول ، والعدل
الذي اتقوا عليه ، وأن بعضهم يصدق بعضاً ، ويوافق بعضهم بعضاً .

ومنها : أنه من جنس هؤلاء الرسل ، فليعتبره المعتبر ، بإخوانه المرسلين .
فدعوته ، دعوتهم ؛ وأخلاقهم ؛ متفقة ؛ ومصدرهم واحد ؛
وغايتهم واحدة .

فلم يقرنه بالجهولين ؛ ولا بالكذابين ، ولا بالملوك الظالمين .

ومنها : أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم ، من التنويه بهم ، والثناء
الصادق عليهم ، وشرح أحوالهم ، مما يزداد به المؤمن ، إيمانا بهم ، ومحبة
لهم ، واقتداء بهديهم ، واستئناسنا بسنتهم ، ومعرفة بحقوقهم ، ويكون ذلك
مصادقا لقوله .

تَقْصُصُهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

[سلام على نوح في العالمين — سلام على إبراهيم — سلام على موسى
وهرون — سلام على إيلياسين . إنا كذلك نجزي المحسنين] .
فكل محسن ، له من الثناء الحسن بين الأنام ، بحسب إحسانه .
والرسل — خصوصاً هؤلاء المسمون — في المرتبة العليا من الإحسان .
ولما ذكر اشتراكهم بوحيه ، ذكر تخصيص بعضهم .

فذكر أنه : آتى داود الزبور ، وهو الكتاب المعروف ، المزبور الذي
خص الله به داود عليه السلام ، لفضله وشرفه .

وأنه كلم موسى تكليماً ، أى : مشافهة منه إليه ، لا بواسطة ، حتى
اشتهر بهذا عند العالمين ، فيقال « موسى كلم الرحمن » .

وذكر أن الرسل ، منهم من قصه الله على رسوله ، ومنهم من لم
يقصه عليه .

وهذا يدل على كثرتهم ، وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله
واتبعهم ، بالسعادة الدنيوية والأخروية ، ومنذرين من عصى الله ، وخالفهم
بشقاوة الدارين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا :

[ما جاءنا من بشير ولا نذير . قل قد جاءكم بشير ونذير] .

فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل تترى ، يبينون لهم أمر
دينهم ، ومراضى ربهم ومساخطه ، وطرق الجنة وطرق النار .

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ
وَأَلْمَلَيْكَ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١٦٦)

فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه .
وهذا من كمال عزته تعالى ، وحكمته ، أن أرسل إليهم الرسل ، وأنزل
عليهم الكتب .

وذلك أيضاً من فضله وإحسانه ، حيث كان الناس مضطرين إلى
الأنبياء ، أعظم ضرورة تقدر ، فأزال هذا الاضطراب ، فله الحمد والشكر .
ونسأله ، كما ابتداء علينا نعمته بإرسالهم ، أن يتمها بالتوفيق ، لسلك
طريقهم . إنه جواد كريم .

* لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أوحى
إلى إخوانه من المرسلين ، أخبر هنا ، بشهادته تعالى على رسالته وصحة
ما جاء به .

و [أنزل بعلمه] يحتمل أن يكون المراد ، أنزله مشتملاً على علمه ،
أى : فيه من العلوم الإلهية ، والأحكام الشرعية ، والأخبار الغيبية ،
ما هو من علم الله تعالى ، الذي علم به عباده .

ويحتمل أن يكون المراد : أنزله ، صادراً عن علمه .

ويكون في ذلك إشارة وتنبية ، على وجه شهادته .

وأن المعنى : إذا كان تعالى ، أنزل هذا القرآن ، المشتمل على الأوامر
والنواهي ، وهو يعلم ذلك ، ويعلم حالة الذي أنزله عليه ، وأنه دعا الناس
إليه ، فمن أجابه وصدق ، كان وليه ، ومن كذبه وعاداه ، كان عدوه ،

﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا
ضَلًّا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ

واستباح ماله ودمه ، والله تعالى يمكنه ، وبوالى نصره ، ويحيب دعواته ،
ويخذل أعداءه ، وينصر أوليائه .

فهل ^(١) توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر ؟ !!

ولا يمكن القدح فى هذه الشهادة ، إلا بعد القدح بعلم الله ، وقدرته ،
وحكمته ، وإخباره تعالى ، بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله ، لكمال
إيمانهم ، وجلالة هذا الشهود عليه .

فإن الأمور العظيمة ، لا يشهد عليها ، إلا الخواص ، كما قال تعالى
فى الشهادة على التوحيد : [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم
قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم] وكفى بالله شبيداً .

* لما أخبر عن رسالة الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وأخبر
برسالة خاتمهم محمد ، وشهد بها ، وشهدت ملائكته — لزم من ذلك ،
ثبوت الأمر المقرر ، والشهود به ، فوجب تصديقهم ، والإيمان
بهم واتباعهم .

ثم توعدهم من كفرهم فقال : [إن الذين كفروا وصدوا عن
سبيل الله] .

أى جمعوا بين الكفر بأنفسهم ، وصدوا الناس عن سبيل الله .

وهؤلاء ، أئمة الكفر ، ودعاة الضلال [قد ضلوا ضللاً بعيداً] .

(١) قوله (فهل) الخ جواب (إذا) فى قوله المتقدم [وأن المعنى إذا كان] .

لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

وأى : ضلال ، أعظم من ضلال من ضل بنفسه ، وأضل غيره ، فباء
بالإيمين ، ورجع بالخسارتين ، وفاته الهدايتان ، ولهذا قال :

[إن الذين كفروا وظلموا] وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم ،
وإلا فالكفر — عند إطلاق الظلم — يدخل فيه .

والمراد بالظلم هنا ، أعمال الكفر والاستغراق فيه .

فهؤلاء بعيدون من المغفرة ، والهداية للصرط المستقيم .

ولهذا قال : [لم يكن الله ليغفر لهم ولا يهديهم طريقاً إلا طريق جهنم] .

وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية ، لأنهم استمروا في طغيانهم ،
وازدادوا في كفرهم ، فطبع على قلوبهم ، وانسدت عليهم طرق الهداية ،
بما كسبوا .

[وما ربك بظلام للعبيد] .

[وكان ذلك على الله يسيراً] أى : لا يبالي الله بهم ، ولا يعاباً ، لأهم

لا يصلحون للخير ، ولا يليق بهم ، إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم .

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٧٠﴾

* يأمر تعالى جميع الناس ، أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

وذكر السبب الموجب للإيمان به ، والفائدة في الإيمان والمضرة ، في عدم الإيمان به .

فالسبب الموجب ، هو : إخباره بأنه جاءهم بالحق .

فجئته نفسه حق ، وما جاء به من الشرع حق .

فإن العاقل ، يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون ، وفي كفرهم يترددون ، والرسالة قد انقطعت عنهم ، غير لائق بحكمة الله ورحمته .

فن حكمته ورحمته العظيمة ، نفس إرسال الرسول إليهم ، ليعرفهم الهدى من الضلال ، والقي من الرشد .

فجرد النظر في رسالته ، دليل قاطع على صحة نبوته .

وكذلك النظر إلى ما جاء به ، من الشرع العظيم ، والصراف المستقيم .

فإنه فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية ، والخبر عن الله ، وعن اليوم الآخر - مالا يعرفه أحد إلا بالوحي والرسالة .

وما فيه من الأمر ، بكل خير وصلاح ، ورشد ، وعدل ، وإحسان ،

وصدق ، وبر ، وصلة ، وحسن خلق ، ومن النهى عن الشر والفساد ،
والبغى والظلم ، وسوء الخلق ، والكذب والعقوق ، مما ^(١) يقطع به أنه
من عند الله .

وكما ازداد به العبد بصيرة ، ازداد إيمانه وبقينه ، فهذا السبب
الداعى للإيمان .

وأما الفائدة فى الإيمان ، فأخبر أنه [خيرا لكم] والخير ، ضد الشر .

فالإيمان ، خير للمؤمنين ، فى أبدانهم ، وقلوبهم ، وأرواحهم ،
ودنياهم ، وأخراهم .

وذلك لما يترتب عليه ، من المصالح والفوائد .

فكل ثواب ، عاجل وآجل ، فن ثمرات الإيمان .

فالنصر ، والهدى ، والعلم ، والعمل الصالح ، والسرور ، والأفراح ،
والجنة ، وما اشتملت عليه ، من النعيم - كل ذلك ، سبب عن الإيمان .

كما أن الشقاء الدنيوى ، والأخروى ، من عدم الإيمان ،
أو نقصه .

وأما مضرة عدم الإيمان به صلى الله عليه وسلم ، فيعرف بضد ما يترتب
على الإيمان .

(١) قوله (مما يقطع) جملة فعلية واقعة فى محل رفع خبر عن المبتدأ الذى

هو قوله (وما فيه أخ) .

يَسْأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ

وأن العبد لا يضر إلا نفسه ، والله تعالى ، غنى عنه ، لاتضره
معصية العاصين .

ولهذا قال : [فإن لله مافى السموات والأرض] أى : الجميع خلقه
وملكه ، وتحت تدييره وتصريفه [وكان الله علما] بكل شيء [حكما]
فى خلقه وأمره .

فهو العليم بمن يستحق الهداية والغواية ، الحكيم فى وضع الهداية
والغواية ، موضعهما .

* ينهى تعالى ، أهل الكتاب عن الغلو فى الدين ، وهو : مجاوزة الحد ،
والقدر المشروع ، إلى ما ليس بمشروع .

وذلك كقول النصارى ، فى غلوهم بعيسى عليه السلام ، ورفعهم عن مقام
النبوة ، والرسالة إلى مقام الربوبية الذى لا يليق بغير الله
فكما أن التقصير والتفريط ، من المنهيات ، فالغلو كذلك .

ولهذا قال [ولا تقولوا على الله إلا الحق] وهذا الكلام ، يتضمن
ثلاثة أشياء .

أمرين منهى عنهما ، وهما قول الكذب على الله ، والقول بلا علم ، فى
أسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وشرعه ، ورسله .

والثالث : مأمور وهو : قول الحق فى هذه الأمور .

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية ، وكان السياق فى شأن عيسى عليه

أَلْقَبَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحَ مَنَّهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً

السلام ، نضا على قول الحق فيه ، المخالف للطريقة اليهودية والنصرانية قال :

[إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله] أى : غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال ، أعلى حالة تكون للمخلوقين ، وهى درجة الرسالة ، التى هى أعلى الدرجات ، وأجل الثوبات .

وأنه [كلمته ألقاها إلى مريم] أى : كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى ، ولم يكن تلك الكلمة ، وإنما كان بها ، وهذا من باب إضافة التشرىف والتكريم .

وكذلك قوله [وروح منه] أى : من الأرواح التى خلقها ، وكلمها بالصفات الفاضلة ، والأخلاق الكاملة .

أرسل الله روحه ، جبريل عليه السلام ، فنفخ فى فرج مريم عليهما السلام .

فحملت بإذن الله ، بعيسى عليه السلام .

فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام ، أمر أهل الكتاب بالإيمان به ، وبرسوله ، ونهاهم أن يجعلوا الله ، ثالث ثلاثة ، أحدهم عيسى ، والثانى مريم فهذه مقالة النصارى ، قبحهم الله .

فأمرهم أن ينتهوا ، وأخبر أن ذلك ، خير لهم ، لأنه الذى يتعين ، أنه سبيل النجاة ، وما سواه ، فهو طرق الهلاك .

أَتْتَهُمْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

ثم نزه نفسه عن الشريك والولد فقال :

[إنما الله إله واحد] أى : هو المنفرد بالألوهية ، الذى لا تنبغى
العبادة إلا له .

[سبحانه] أى : تنزهه وتقدس [أن يكون له ولد] لأن : [له ما فى
السموات وما فى الأرض] فالكل مملوكون له ، مفتقرون إليه ، فمحال أن
يكون له شريك منهم ، أو ولد .

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي ، أخبر أنه قائم بمصالحهم
الدينيوية والأخروية وحافظها ، ومجازيها فقال تعالى : [لن يستنكف
المسيح] إلى قوله [ولياً ولا نصيراً] .

﴿١٧٢﴾ لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ
وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ
فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

* لما ذكر تعالى غلو النصارى فى عيسى عليه السلام ، وذكر أنه عبده
ورسوله ، ذكر هنا ، أنه لا يستنكف عن عبادة ربه ، أى : لا يمتنع عنها
رغبة عنها لا هو [ولا الملائكة المقربون] .
فزرهم عن الاستنكاف ، وتنزيههم عن الاستكبار ، من باب أولى .
ونفى الشيء فيه إثبات ضده .

أى : فعيسى والملائكة المقربون ، قد رغبوا فى عبادة ربهم ، وأحبوها
وسعوا فيها ، بما يليق بأحوالهم ، فأوجب لهم ذلك ، الشرف العظيم ،
والفوز العظيم .

فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لربوبيته ، ولا لإلهيته ، بل يرون افتقارهم
لذلك ، فوق كل افتقار .

ولا يظن أن رفع عيسى ، أو غيره من الخلق ، فوق مرتبته ، التى أنزله
الله فيها ، وترفعه عن العبادة كالا ، بل هو النقص بعينه ، وهو محل الذم
والعقاب ، ولهذا قال :

[ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً]
أى : فسيحشر الخلق كلهم إليه ، المستنكفين ، والمستكبرين وعباده المؤمنين ،
فيحكم بينهم ، بحكمه العدل ، وجزائه الفصل .

فَيُؤْفِقُهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا
وَأَسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

ثم فصل حكمه فيهم فقال : [فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات]
أى : جمعوا بين الإيمان بالمأمور به ، وعمل الصالحات ، من واجبات ،
ومستحبات ، فى حقوق الله ، وحقوق عباده .

[فيؤفقيهم أجورهم] أى : الأجر الذى رتبها على الأعمال ، كل بحسب
إيمانه وعمله .

[ويزيدهم من فضله] من الثواب ، الذى لم تنله أعمالهم ، ولم تصل إليه
أفعالهم ، ولم يخطر على قلوبهم .

ودخل فى ذلك ، كل ما فى الجنة ، من الماء كل ، والمشارب ، والمناكح
والمناظر ، والسرور ، ونعيم القلب والروح ، ونعيم البدن .
بل يدخل فى ذلك ، كل خير ، دنى ، ودنيوى ، رتب على الإيمان ،
والمعمل الصالح .

[وأما الذين استنكفوا واستكبروا] أى عن عبادة الله تعالى [فيعذبهم
عذاباً أليماً] وهو سخط الله وغضبه ، والنار الموقدة ، التى تطلع على الأفتدة .
[ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً] أى : لا يجدون أحداً
من الخلق ، يتولاهم ، فيحصل لهم المطلوب ، ولا من ينصرهم ، فيدفع
عنهم المرهوب .

بل قد تحلى عنهم ، أرحم الراحمين ، وتركهم فى عذابهم خالدين .
وما حكم به تعالى ، فلا راد لحكمه ، ولا مغير لقضائه .

يَسْأَلُهَا النَّاسُ فَذَعَبًا كَمْ بُرْهَنَ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا
إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا

* يمتن تعالى ، على سائر الناس ، بما أوصل إليهم ، من البراهين القاطعة ،
والأنوار الساطعة ، ويقم عليهم الحجة ، ويوضح لهم المحجة فقال :
[يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم] أى حجج قاطعة على الحق ،
تبينه وتوضحه ، وتبين ضده

وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية الآيات الأفقية ، والنفسية [سئريهم
آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق] .

وفى قوله [من ربكم] ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته ، حيث
كان من ربكم ، الذى رباكم التربية الدينية والدينية .

فمن تربيته لكم ، التى يحمد عليها ويشكر ، أن أوصل إليكم البينات ،
ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم ، والوصول إلى جنات النعيم .

[وأنزلنا إليكم نورا مبينا] وهو هذا القرآن العظيم ، الذى قد اشتمل
على علوم الأولين والآخرين ، والأخبار الصادقة النافعة ، والأمر بكل عدل
وإحسان وخير ، والنهى عن كل ظلم وشر .

فالناس فى ظلمة ، إن لم يستضيئوا بأنواره ، وفى شقاء عظيم ، إن لم
يقبسوا من خيره .

ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن ، والانتفاع به - قسمين .

[فأما الذين آمنوا بالله] أى : اعترفوا بوجوده ، واتصافه بكل

بِهِ فَسَيَدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

وصف كامل ، وتنزيهه من كل نقص وعيب .

[واعتصموا به] أى : لجأوا إلى الله ، واعتمدوا عليه ، وتبرأوا
من حولهم وقوتهم ، واستعانوا بربهم .

[فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل] أى : فسيتقدمهم بالرحمة الخاصة ،
فيوقفهم للخيرات ، ويجزل لهم الثوبات ، ويدفع عنهم البليات .

[ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً] أى : يوقظهم للعمل والعمل ومعرفة الحق
والعمل به .

أى : ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به ، ويتمسك بكتابه ، منعهم من رحمته ،
وحرّمهم من فضله ، وخلق بينهم وبين أنفسهم ، فلم يهتدوا ، بل ضلوا ضلالاً
مبيناً ، عقوبة لهم على تركهم الإيمان ، فحصلت لهم الخيبة والحرمان .
نسأله تعالى ، العفو ، والعافية ، والمعافة .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ أَمْرًا
هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ وَلَا أُولَاءُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ
يَكُنْ لَهَا وُلْدٌ فَإِنْ كَانَتْ أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا

* أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله صلى الله عليه وسلم أى: فى الكلالة
بدليل قوله :

[قل الله يفتيكم فى الكلالة] وهى: الميت يموت ، وليس له ولد صلب ،
ولا ولد ابن ، ولا أب ، ولا جد ، ولهذا قال :

[إن امرؤ هلك ليس ولد] أى : لا ذكر ولا أنثى ، لا ولد صلب ،
ولا ولد ابن .

وكذلك ، ليس له والد ، بدليل أنه ورث فيه الإخوة والإخوة^(١)
بالإجماع ، لا يرثون مع الوالد .

فإذا هلك ، وليس له ولد ، ولا والد [وله أخت] أى: شقيقة، وأب ،
لا لأم ، فإنه قد تقدم حكمها .

(١) فى الأصل (والإخوان) أصلحناها بكلمة (الإخوة) لأنها خاصة
بالنسب والولادة وأما [الإخوان] فعامة تطلق على ما كان أخاً فى النسب
وعلى ما كان فى الصداقة غالباً ، والمقام هنا يقتضى أن يكون الأخ فى الولادة .
قال فى الصحاح : وأكثر ما يستعمل (الإخوان) فى الأصدقاء
والإخوة فى الولادة . اهـ .

إِخْوَةٌ رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
أَنْ تَصِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

[فلها نصف ما ترك] أى نصف متروكات أخيها ، من ثود ، وعقار ،
وأثاث ، وغير ذلك ، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدم .

[وهو] أى : أخوها الشقيق ، أو الذى للأب [يرثها ، إن لم يكن
لها ولد] ولم يقدر له إرث ، لأنه عاصب فيأخذ مالها كله ، إن لم يكن صاحب
فرض ولا عاصب يشاركه ، أو ما أبقت الفروض .

[فإن كانتا] أى الأختان [اثنتين] أى : فافوق [فلهما الثلثان مما
ترك ، وإن كانوا إخوة رجالا ونساء] أى : اجتمع الذكور من الإخوة
لفير أم ، مع الإناث (فللذكر مثل حظ الأنثيين) فيسقط فرض الإناث ،
ويعصبن إخوتهن .

[يبين الله لكم أن تصلوا] أى : يبين لكم أحكامه التى تحتاجونها ،
ويوضحها ، ويشرحها لكم ، فضلا منه وإحسانا ، لى تهتدوا ببيانه ،
وتعملوا بأحكامه ، ولتلا تصلوا عن الصراط المستقيم ، بسبب جهلكم ،
وعدم علمكم .

[والله بكل شىء عليم] أى : عالم بالغيب والشهادة ، والأمور الماضية
والستقبله ويعلم حاجتكم إلى بيانه ، وتعليمه ، فيعلمكم من علمه الذى ينفعكم
على الدوام ، فى جميع الأزمنة والأمكنة .

آخر تفسير سورة النساء . فله الحمد والشكر

تفسير

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ

* هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين ، بما يقتضيه الإيمان ، بالوفاء ، بالعقود أى : بإكمالها ، وإتمامها ، وعدم نقضها ونقصها .

وهذا شامل للعقود ، التى بين العبد وبين ربه ، من التزام عبوديته ، والقيام بها أتم قيام ، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئا ، والتى بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه ، والتى بينه وبين الوالدين ، والأقارب ، يبرهم ، وصلتهم ، وعدم قطيعتهم .

والتى بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة فى الغنى والفقير ، واليسر والعسر ، والتى بينه وبين الخلق من عقود المعاملات ، كالبيع ، والإجارة ، ونحوها ، وعقود التبرعات ، كالهبة ونحوها ، والقيام بحقوق المسلمين ، التى عقدها الله ، بينهم فى قوله : [إنما المؤمنون إخوة] بل التناصر على الحق ، والتعاون عليه ، والتآلف بين المسلمين ، وعدم التقاطع .

فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه ، فكلها داخلة فى العقود التى أمر الله بالقيام بها .

بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرْمٌ
إِنَّ اللَّهَ يَخْتَصُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ ﴿١﴾

ثم قال — ممتناً على عباده — [أحلت لكم] أى لأجلكم ، رحمة بكم [بهيمة الأنعام] من الإبل ، والبقر والغنم .
بل ربما دخل في ذلك ، الوحش منها ، والظباء ، وحمرا الوحش ونحوها ،
من الصيود .

واستدل بعض الصحابة بهذه الآية ، على إباحة الجنين ، الذى يموت
في بطن أمه ، بعد ما تذبح .

[إلا ما يتلى عليكم] تحريمه منها فى قوله [حرمت عليكم الميتة والدم ولحم
الخنزير] إلى آخر الآية .

فإن هذه المذكورات ، وإن كانت من بهيمة الأنعام ، فإنها محرمة .
ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة فى جميع الأحوال والأوقات ،
استثنى منها الصيد فى حال الإحرام فقال :

[غير محلى الصيد وأنتم حرم] أى : أحلت لكم بهيمة الأنعام فى كل
حال ، إلا حيث كنتم متصفين بأنكم ، غير محلى الصيد ، وأنتم حرم ،
أى : متجربون على قتله فى حال الإحرام ، فإن ذلك لا يحل لكم ، إذا كان
صيداً ، كالظباء ونحوه .

والصيد . هو : الحيوان المأكول الشوحش .

[إن الله يحكم ما يريد] أى : فهما أرادته تعالى ، حكم به حكماً موافقاً
لحكمته ، كما أمركم بالوفاء بالعقود ، لحصول مصالحكم ودفع المضار عنكم .
وأحل لكم بهيمة الأنعام ، رحمة بكم ، وحرم عليكم ما استثنى منها ،

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ
وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ التَّيْتِ

من ذوات العوارض ، من الميتة ونحوها ، صوتاً لكم ، واحتراما ، ومن صيد
الإحرام ، احتراماً للإحرام ، وإعظاما .
* يقول تعالى [يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله] أى : محرماته ،
التي أمركم بتعظيمها ، وعدم فعلها .

فالنهي يشمل النهى عن فعلها ، والنهى عن اعتقاد حلها ، فهو يشمل
النهى ، عن فعل القبيح ، وعن اعتقاده .

ويدخل فى ذلك ، النهى عن محرمات الإحرام ، ومحرمات الحرم .
ويدخل فى ذلك ما نص عليه بقوله [ولا الشهر الحرام] أى : لا تنتهكوه
بالقتال فيه وغيره ، من أنواع الظلم كما قال تعالى :

[إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق
السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم] .
والجمهور من العلماء ، على أن القتال فى الأشهر الحرام ، منسوخ بقوله تعالى :
[فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم] وغير
ذلك من العمومات ، التى فيها الأمر بقتال الكفار مطلقاً ، والوعيد
فى التخلف عن قتالهم مطلقاً .

وبأن النبى صلى الله عليه وسلم ، قاتل أهل الطائف ، فى ذى القعدة ،
وهو من الأشهر الحرم .

وقال آخرون : إن النهى عن القتال فى الأشهر الحرم ، غير منسوخ
لهذه الآية وغيرها ، مما فيه النهى عن ذلك بخصوصه .

أَحْرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا

وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك ، وقالوا: المطلق يحمل على المقيد.
وفصل بعضهم فقال : لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم ، وأما
استدامته ، وتكميله ، إذا كان أوله في غيرها ، فإنه يجوز .
وحملوا قتال النبي صلى الله عليه وسلم ، لأهل الطائف على ذلك ، لأن
أول قتالهم في « حنين » في « شوال » .

وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع .
فأما قتال الدفع — إذا ابتدأ الكفار المسلمين بالقتال — فإنه يجوز
للمسلمين القتال ، دفعا عن أنفسهم ، في الشهر الحرام وغيره ، بإجماع العلماء .
وقوله [ولا الهدى ولا القلائد] أى : ولا تحلوا الهدى الذى يهدى
إلى بيت الله ، فى حج ، أو عمرة ، أو غيرها ، من نعم وغيرها ، فلا تصدوه
عن الوصول إلى محله ، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها ، ولا تقصروا به ،
أو تحملوه ما لا يطيق ، خوفا من تلفه ، قبل وصوله إلى محله ، بل عظموه ،
وعظموا من جاء به .

[ولا القلائد] هذا نوع خاص من أنواع الهدى ، وهو الهدى الذى
يفتل له قلائد أو عرى ، فيجعل فى أعناقهم ، لإظهاراً لشعائر الله ، وحمل للناس
على الاقتداء ، وتعلما لهم للسنة ، وليعرف أنه هدى ، فيحرم ، ولهذا كان
تقليد الهدى من السنة والسعائر المسنونة .

[ولا آمين البيت الحرام] أى : قاصدين له [يبتغون فضلا من ربهم
ورضوانا] .

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ اَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اَنْ

أى : من قصد هذا البيت الحرام ، وقصده فضل الله بالتجارة ،
والمكاسب المباحة ، أو قصده رضوان الله ، بحجه وعمرته ، والطواف به ،
والصلاة ، وغيرها من أنواع العبادات ، فلا تتعرضوا له بسوء ، ولا تهيئوه ،
بل أكرموه ، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم .

ودخل في هذا ، الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله ، وجعل
القاصدين له ، مطمئنين مستريحين ، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما
دونه ، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك .

وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا
الْمَشْرُكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا] .
فالمشرك ، لا يمكن من الدخول إلى الحرم .

والتخصيص في هذه الآية ، بالنهي عن التعرض لمن قصد البيت ، ابتغاء
فضل الله أو رضوانه — يدل^(١) على أن من قصده ، ليلحد فيه بالمعاصي ،
فإن من تمام احترام الحرم ، صد من هذه حاله ، عن الإفساد ببيت الله ،
كما قال تعالى : [وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْجَادِ بَظْمٍ نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ] .

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام قال :
[وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا] أى : إذا حللتم من الإحرام ، بالحج والعمرة ،
حل لكم الاصطياد ، وزال ذلك التحريم .

(١) قوله (يدل الخ) جملة فعلية في محل رفع خبر عن المبتدأ السابق

في قوله (والتخصيص الخ) .

تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

والأمر بعد التحريم ، يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل .

[ولا يجرمكم شتان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا]
أى : لا يحملنكم بغض قوم ، وعداوتهم ، واعتداؤهم عليكم ، حيث صدوكم
عن المسجد ، على الاعتداء عليهم ، طلبا للاشتفاء^(١) منهم ، فإن العبد عليه
أن يلتزم أمر الله ، ويسلك طريق العدل ، ولو جنى عليه ، أو ظلم ،
واعتدى عليه .

فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه ، أو يخون من خانه .

[وتعاونوا على البر والتقوى] أى : ليعن بعضكم بعضاً على البر .

وهو : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأعمال الظاهرة
والباطنة ، من حقوق الله ، وحقوق الآدميين .

والتقوى فى هذا الموضع : اسم جامع ، لترك كل ما يكرهه الله ورسوله ،
من الأعمال الظاهرة والباطنة .

وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها ، أو خصلة من خصال الشر
المأمور بتركها ، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه ، وبمعاونة غيره عليها من
إخوانه المؤمنين ، بكل قول يبعث عليها ، وينشط لها ، وبكل فعل كذلك .

(١) قوله « للاشتفاء » يعنى شفاء غيظهم بالانتقام من الذين أساءوا
إليهم ولو عبر « بالتشفى » لكان أولى وأوضح .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ

[ولا تعاونوا على الإثم] وهو التجري على المعاصي ، التي يأنم صاحبها ، ويجرح .

[والعدوان] وهو : التعدي على الخلق ، في دمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

فكل معصية وظلم ، يجب على العبد ، كف نفسه عنه ، ثم إغاثة غيره على تركه .

[واتقوا الله إن الله شديد العقاب] على من عصاه ، وتجراً على محارمه .
فاحذروا المحارم ، لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل .

* هذا الذي حولنا الله عليه في قوله [إلا ما يتلى عليكم] .
واعلم أن الله تبارك وتعالى ، لا يجرم ما يحرم ، إلا صيانة لعباده ، وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات ، وقد بين للعباد ذلك ، وقد لا يبين .

فأخبر أنه حرم [الميتة] ، والمراد بالميتة : ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية ، فإنها تحرم ، لضررها ، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها ، المضرب بآكلها .

وكثيراً ما تموت بعلّة تكون سبباً لهلاكها ، فتضرب بالآكل .

ويستثنى من ذلك ، ميتة الجراد ، والسّمك فإنه حلال .

[والدم] أي : السفوح ، كما قيد في الآية الأخرى .

[ولحم الخنزير] وذلك شامل لجميع أجزائه .

السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فَسِقَ ۖ

وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع ، لأن طائفة
من أهل الكتاب ، من النصارى ، يزعمون أن الله أحله لهم .

أى : فلا تغفروا بهم ، بل هو محرم من جملة الخبائث .

[وما أهل لغير الله به] أى ذكر عليه اسم غير الله ، من الأصنام ،
والأولياء ، والكواكب ، وغير ذلك من المخلوقين .

فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة ، فذكر اسم غيره عليها ، يفيدها
خبثاً معنوياً ، لأنه شرك بالله تعالى .

[والمنخنقة] أى : الميتة بمنق ، بيد ، أو حبل ، أو إدخالها رأسها
بشيء ضيق ، فتمجز عن إخراجها ، حتى تموت .

[والموقوذة] أى : الميتة بسبب الضرب ، بعضاً ، أو حصى ، أو خشبة ،
أو هدم شيء عليها ، بقصد ، أو بغير قصد .

[والمتردية] أى : الساقطة من علو ، كجبل ، أو جدار ، أو سطح
ونحوه ، فتموت بذلك .

[والنطيحة] وهى التى تنطحها غيرها فتموت .

[وما أكل السبع] من ذئب ، أو أسد ، أو نمر ، أو من الطيور التى

تفترس الصيود ، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع ، فإنها لا تحل .

وقوله [إلا ما ذكيتم] راجع لهذه المسائل ، من منخنقة ، وموقوذة ،

ومتدبة ، ونطيحة ، وأكيلة سبع ، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لمتحقق
الذكاة فيها .

ولهذا قال الفقهاء : « لو أبان السبع أو غيره ، حشوتها ، أو قطع
حلقومها ، كان وجود حياتها ، كعدمها ، لعدم فائدة الذكاة فيها » .
وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة ، فإذا ذكاه وفيها حياة ، حلت ،
ولو كانت مبانة الحشوة ، وهو ظاهر الآية الكريمة .

[وأن تستقسوا بالأزلام] أى : وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام .

ومعنى الاستقسام : طلب ما يقسم لكم ، ويقدر بها .

وهى قداح ثلاثة ، كانت تستعمل فى الجاهلية ، مكتوب على أحدها
« افعل » وعلى الثانى « لا تفعل » والثالث « غفل » لا كتابة فيه .

فإذا هم أحدهم بسفر ، أو عرس أو نحوهما ، أجال تلك القداح المتساوية
فى الجرم ، ثم أخرج واحداً منها .

فإن خرج المكتوب عليه « افعل » مضى فى أمره .

وإن ظهر المكتوب عليه « لا تفعل » لم يفعل ولم يمض فى شأنه .

وإن ظهر الآخر ، الذى لاشئ عليه ، أعادها حتى يخرج أحد القدحين ،
فيعمل به .

فحرم الله عليهم الذى فى هذه الصورة ، وما يشبهها ، وعوضهم عنه ،
بالاستخارة لربهم ، فى جميع أمورهم .

[ذلكم فسق] الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات ، التى حرمها الله ،

صيانة لعباده ، وأنها فسق ، أى : خروج عن طاعته ، إلى طاعة الشيطان .

﴿يَوْمَ يَسِرُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَأَخْشَوْنَ آلِيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمِي﴾

ثم امتن على عباده بقوله :

[اليوم يسر الذين كفروا من دينكم] الآية .

* واليوم المشار إليه ، يوم عرفة ، إذ أتم الله دينه ، ونصر عبده ورسوله ،
وانخذل أهل الشرك انخذالا بليغاً ، بعد ما كانوا حريصين على رد المؤمنين
عن دينهم ، طامعين في ذلك .

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره ، يسوا كل اليأس من المؤمنين ،
أن يرجعوا إلى دينهم ، وصاروا يخافون منهم ويخشون .

ولهذا في هذه السنة ، التي حج فيها النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر
حجة الوداع — لم يحجج فيها مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

ولهذا قال [فلا تخشوم واخشون] أى : فلا تخشوا المشركين ،
واخشوا الله ، الذى نصركم عليهم ، وخذلهم ، ورد كيدهم فى نحورهم .

[اليوم أكملت لكم دينكم] بتمام النصر ، وتكميل الشرائع ،
الظاهرة والباطنة ، الأصول والفروع .

ولهذا كان الكتاب والسنة ، كافيين كل الكفاية ، فى أحكام الدين ،
وأصوله وفروعه .

فكل متكلف يزعم ، أنه لا بد للناس فى معرفة عقائدهم وأحكامهم ،
إلى علوم ، غير علم الكتاب والسنة ، من علم الكلام وغيره ، فهو جاهل ،
مبطل فى دعواه ، قد زعم أن الدين لا يكمل ، إلا بما قاله ، ودعا إليه .

وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا قَمِنَ اضْطِرٌّ فِي مَحْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ
لِإِيْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ورسوله .

[وأتمت عليكم نعمتي] الظاهرة والباطنة [ورضيت لكم الإسلام ديناً]

أى : اخترته واصطفيته لكم ديناً ، كما ارتضيتكم له .

فقوموا به ، شكراً لربكم ، واحمدوا الذي من عليكم ، بأفضل الأديان

وأشرفها وأكملها .

[فمن اضطر] أى : ألبغته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات

السابقة ، فى قوله [حرمت عليكم الميتة] [فى نحصه] أى : مجاعة [غير

متجانف] أى : مائل [لإيم] بأن لا يأكل حتى يضطر ، ولا يزيد فى

الأكل على كفايته .

[فإن الله غفور رحيم] حيث أباح له الأكل فى هذه الحال .

ورحمه ، بما يقيم به بنيته ، من غير نقص يلحقه فى دينه .

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ
وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تَعَلَّمُوهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم [يسألونك ماذا أحل لهم] .
من الأطعمة ؟ .

[قل أحل لكم الطيبات] وهي كل ما فيه نفع أو لذة ، من غير ضرر
بالبدن ، ولا بالعقل .

فدخل في ذلك ، جميع الحبوب ، والثمار ، التي في القرى والبرارى .

ودخل في ذلك ، جميع حيوانات البر ، إلا ما استثناه الشارع ،
كالسباع ، والخبائث منها .

ولهذا دلت الآية بمفهومها ، على تحريم الخبائث ، كما صرح به في
قوله تعالى :

[ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث] .

[وما علمتم من الجوارح] .

أى : أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية .

دلت هذه الآية على أمور :

أحدها : لطف الله بعباده ، ورحمته لهم ، حيث وسع عليهم طرق

الحلال ، وأباح لهم ، ما لم يذكوه ، مما صادته الجوارح .

والمراد بالجوارح : الكلاب ، والنهود ، والصقر ، ونحو ذلك ،

مما يصيد بناه ، أو بمخلبه .

فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴿٤﴾

الثانى: أنه يشترط ، أن تكون معلمة ، بما يعد فى العرف تعليما ، بأن
يسترسل ، إذا أرسل ، وينزجر إذا زجر ، وإذا أمسك ، لم يأكل ،
ولهذا قال :

[تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم] أى : أمسكن
من الصيد لأجلكم .

وما أكل منه الجارح فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه ، ولعله أن
يكون أمسكه على نفسه .

الثالث : اشتراط أن يجرحه الكلب ، أو الطير ونحوها ، لقوله [من
الجوارح] مع ما تقدم من تحريم المنخنقة .
فلو خنقه الكلب أو غيره ، أو قتله بثقله ، لم يبيح .

هذا بناء على أن الجوارح اللاتى يجرحن الصيد ، بأنيابها ،
أو مخالبها .

والشهور أن الجوارح ، بمعنى الكواسب أى : المحصلات للصيد ،
والمدركات له .

فلا يكون فيها - على هذا - دلالة . والله أعلم .

الرابع : جواز اقتناء كلب الصيد ، كما ورد فى الحديث الصحيح ، مع
أن اقتناء الكلب محرم لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه ، جواز اقتنائه .

الخامس : طهارة ما أصابه فم الكلب ، من الصيد ، لأن الله أباحه ، ولم يذكر له غسلًا ، فدل على طهارته .

السادس : فيه فضيلة العلم ، وأن الجارح المعلم - بسبب العلم - يباح صيده ، والجاهل بالتعليم ، لا يباح صيده .

السابع : أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما ، ليس مذمومًا ، وليس من العبث والباطل .

بل هو أمر مقصود ، لأنه وسيلة لحل صيده ، والانتفاع به .

الثامن : فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد ، قال : لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك .

التاسع : فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح ، وأنه إن لم يسم الله متممًا ، لم يباح ماقتل الجارح .

العاشر : أنه يجوز أكل ما صاده الجارح ، سواء قتله الجارح ، أم لا .

وأنه إن أدركه صاحبه ، وفيه حياة مستقرة ، فإنه لا يباح إلا بها . ثم حث تعالى على تقواه ، وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة ، وأن ذلك ، أمر قد دنا ، واقترب فقال :

[واتقوا الله إن الله سريع الحساب] .

﴿ ١٠٠ ﴾ أَيُّوْمَ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ

* كُتِبَ لَكُمْ أَيُّوْمَ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ، لِيُبَيِّنَ الْاِمْتِنَانَ ، وَدَعْوَةَ الْعِبَادِ إِلَى شُكْرِهِ
وَإِلَّا كَثُرَ مِنْ ذِكْرِهِ ، حَيْثُ أَبَاحَ لَهُمْ مَا نَدَعَوْهُمْ الْحَاجَةَ إِلَيْهِ ، وَيَحْصُلُ لَهُمْ
الْاِنْتِفَاعُ بِهِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ .

[وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ] أَيْ : ذَبَائِحَ الْيَهُودِ
وَالنَّصَارَى ، حَلَالٌ لَكُمْ - يَامَعْشَرَ الْمَسَلِمِينَ - دُونَ بَاقِي الْكُفَّارِ ، فَإِنَّ ذَبَائِحَهُمْ
لَا تَحِلُّ لِلْمَسَلِمِينَ .

وَذَلِكَ لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ، يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْكِتَابِ .
وَقَدْ اِتَّفَقَ الرِّسَالُ كُلُّهُمْ ، عَلَى تَحْرِيمِ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ شَرِكٌ .
فَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، يَقْتَدِينُونَ بِتَحْرِيمِ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَذَلِكَ أُبِيحَتْ
ذَبَائِحُهُمْ ، دُونَ غَيْرِهِمْ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِطَعَامِهِمْ ذَبَائِحَهُمْ ، أَنَّ الطَّعَامَ الَّذِي لَيْسَ مِنْ
الذَّبَائِحِ ، كَالْحَبُوبِ ، وَالثَّمَارِ ، لَيْسَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ فِيهِ خُصُوصِيَّةٌ ، بَلْ
يَبَاحُ ذَلِكَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ طَعَامِ غَيْرِهِمْ .

وَأَيْضًا ، فَإِنَّهُ أَضَافَ الطَّعَامَ إِلَيْهِمْ .

فَدَلَّ ذَلِكَ ، عَلَى أَنَّهُ كَانَ طَعَامًا ، بِسَبَبِ ذَبْحِهِمْ .

وَلَا يُقَالُ : إِنَّ ذَلِكَ لِلتَّمْلِيكِ ، وَأَنَّ الْمُرَادَ : الطَّعَامَ الَّذِي يَمْلِكُونَ .

لِأَنَّ هَذَا ، لَا يَبَاحُ عَلَى وَجْهِ الْغَضَبِ ، وَلَا مِنَ الْمَسَلِمِينَ .

الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مَتَّخِذِي

[و طعامكم] أيها المسلمون [حل لهم] أى : يجعل لكم أن
تطعموهم إياه .

[و] [أحل لكم] [المحصنات] أى : الحرائر العفيفات [من المؤمنات]
والحرائر العفيفات [من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم] أى : من اليهود
والنصارى .

وهذا مخصص لقوله تعالى [ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمن] .
ومفهوم الآية ، أن الأرقاء من المؤمنات ، لا يباح نكاحهن للأحرار ،
وهو كذلك .

وأما الكتابيات ، فعلى كل حال ، لا يباح ، ولا يجوز نكاحهن
للأحرار مطلقاً ، لقوله تعالى : [من فتياتكم المؤمنات] .
وأما المسلمات - إذا كن رقيقات - فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن
إلا بشرطين ، عدم الطول ، وخوف العنت .

وأما الفاجرات ، غير العفيفات عن الزنا ، فلا يباح نكاحهن ، سواء
كن مسلمات ، أو كتابيات ، حتى يتبين لقوله تعالى :
[الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة] الآية .

وقوله [إذا آتيتموهن أجورهن] أى : أبجنا لكم نكاحهن ، إذا
أعطيتموهن مهورهن .

فمن عزم على أن لا يؤتيها مهرها ، فإنها لا تحل له .

أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرُ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾

وأمر بإبتائها ، إذا كانت رشيدة ، تصلح للإبتاء ، وإلا أعطاه
الزوج لوليها .

وإضافة الأجور إليهن ، دليل على أن المرأة ، تملك جميع مهرها ، وليس
لأحد منه شيء ، إلا ما سمحت به لزوجها ، أو وليها أو غيرها .

[محصنين غير مسالحين] أى : حالة كونكم - أيها الأزواج - محصنين
لنساءكم ، بسبب حفظكم لفرؤسكم عن غيرهن .

[غير مسالحين] أى : زانين مع كل أحد [ولا متخذى أخدان] .
وهو : الزنا مع العشيقات لأن الزناة فى الجاهلية ، منهم من يزنى مع
من كان ، فهذا هو المسافح .

ومنهم من يزنى مع خدنه ومحبه .

فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ، ينافى العفة .

وأن شروط الزواج ، أن يكون الرجل عفيفاً عن الزنا .

وقوله تعالى : [ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله] أى : ومن كفر
بالله تعالى ، وما يجب الإيمان به ، من كتبه ورسله ، أو شيء من الشرائع ،
فقد حبط عمله ، بشرط أن يموت على كفره كما قال تعالى :

« ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم
فى الدنيا والآخرة » [وهو فى الآخرة من الخاسرين] أى : الذين خسروا
أنفسهم ، وأموالهم ، وأهلهم يوم القيامة وحصلوا على الشقاوة الأبدية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا

* هذه آية عظيمة ، قد اشتملت على أحكام كثيرة ، نذكر منها ، مايسره الله وسهله .

أحدها : أن هذه المذكورات . فيها ^(١) امتثالها . والعمل بها من لوازم الإيمان ، الذي لا يتم إلا به ، لأنه صدرها بقوله « يا أيها الذين آمنوا » إلى آخرها .

أى : يا أيها الذين آمنوا ، اعملوا بمقتضى إيمانكم ، بما شرعناه لكم .
والثانى : الأمر بالقيام بالصلاة لقوله [إذا قمتم إلى الصلاة] .

والثالث : الأمر بالنية للصلاة ، لقوله : [إذا قمتم إلى الصلاة]
أى : بقصدتها ونيتها .

الرابع : اشتراط الطهارة ، لصحة الصلاة ، لأن الله أمر بها عند القيام إليها ، والأصل فى الأمر ، الوجوب .

الخامس : أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت ، وإنما عند إرادة الصلاة .

السادس : أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة ، فى الفرض ، والنفل ، وفرض الكفاية ، وصلاة الجنائز ، تشتترط له الطهارة ، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء ، كسجود التلاوة ، والشكر .

السابع : الأمر بغسل الوجه ، وهو : ما تحصل به المواجهة ، من منابت شعر الرأس المعتاد ، إلى ما انحدر من اللحيين والذقن ، طولاً .
ومن الأذن إلى الأذن ، عرضاً .

(١) هكذا فى الأصل . لعل الصواب أن (فيها) زائدة .

وَجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ

ويدخل فيه الضمضة والاستنشاق ، بالسنة .

ويدخل فيه ، الشعور التي فيه .

لكن إن كانت خفيفة ، فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة .

وإن كانت كثيفة ، اكتفى بظاها .

الثامن : الأمر بفسل اليدين ، وأن حدهما إلى المرفقين .

و « إلى » كما قال جمهور المفسرين ، بمعنى « مع » كقوله تعالى

[ولانأكلوا أموالهم إلى أموالكم] .

ولأن الواجب لا يتم إلا بفسل جميع المرفق .

التاسع : الأمر بمسح الرأس .

العاشر : أنه يجب مسح جميعه ، لأن الباء ليست للتبويض ، وإنما هي

للملاصقة^(١) وأنه يعم المسح بجميع الرأس .

الحادى عشر : أنه يكفي المسح كيفما كان — بيديه ، أو إحداها ،

أو خرقة ، أو خشبة ، أو نحوها ، لأن الله أطلق المسح ، ولم يقيده بصفة ،

فدل ذلك ، على إطلاقه .

الثانى عشر : أن الواجب ، المسح .

فلو غسل رأسه ، ولم يمر يده عليه ، لم يكف ، لأنه لم يأت بما أمر

الله به .

(١) قوله [للملاصقة] يريد : للإلصاق ، ولو عبر به لكان أولى موافقة

لجمهور علماء اللغة فكلمهم يقول [الباء للإلصاق] ولم يقل أحد للملاصقة .

إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ

الثالث عشر : الأمر بفصل الرجلين إلى الكعبين ، ويقال فيها ما يقال في اليدين .

الرابع عشر : فيها الرد على الرافضة ، على قراءة الجمهور بالنصب . وأنه لا يجوز مسحها ما دامتا مكشوفتين .

الخامس عشر : فيه الإشارة إلى مسح الخفين ، على قراءة الجر في « وأرجلكم » .

وتكون كل من القراءتين ، محمولة على معنى .

فعلى قراءة النصب فيها ، غسلها ، إن كانتا مكشوفتين .

وعلى قراءة الجر فيها ، مسحها إذا كانتا مستورتين بالخلف .

السادس عشر : الأمر بالترتيب في الوضوء ، لأن الله تعالى ذكرها مرتبة .

ولأنه أدخل ممسوحاً — وهو الرأس — بين مغسولين ، ولا يعلم لذلك

فائدة ، غير الترتيب .

السابع عشر : أن الترتيب ، مخصوص بالأعضاء الأربعة ، المسميات

في هذه الآية .

وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه ، أو بين اليمنى واليسرى

من اليدين والرجلين ، فإن ذلك غير واجب .

بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق ، على غسل الوجه .

وتقديم اليمنى ، على اليسرى من اليدين والرجلين .

وتقديم مسح الرأس ، على مسح الأذنين .

سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا

الثامن عشر : الأمر بتجديد الوضوء ، عند كل صلاة ، لتوجد صورة
المأمور به .

التاسع عشر : الأمر بغسل من الجنابة .

العشرون : أنه يجب تعميم الغسل للبدن ، لأن الله أضاف التطهر للبدن ،
ولم يخصصه بشيء دون شيء .

الحادي والعشرون : الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة .

الثاني والعشرون : أنه يندرج الحدث الأصغر ، في الحدث الأكبر ،
ويكنى من هاهنا عليه ، أن ينوى ، ثم يعمم بدنه ، لأن الله لم يذكر إلا التطهر ،
ولم يذكر أنه يعيد الوضوء .

الثالث والعشرون : أن الجنب يصدق على من أنزل المنى ، يقظة
أو مناما ، أو جامع ولو لم ينزل .

الرابع والعشرون : أن من ذكر أنه احتلم ، ولم يجد بللا ، فإنه لا غسل
عليه ، لأنه لم يتحقق منه الجنابة .

الخامس والعشرون : ذكر منة الله تعالى على العباد ، بمشروعيته التيمم .

السادس والعشرون : أن من أسباب جواز التيمم ، وجود المرض ،
الذي يضره غسله بالماء ، فيجوز له التيمم .

السادس والعشرون : أن من جملة أسباب جوازه ، السفر والإتيان
من البول والغائط ، إذا عدم الماء .

فأرض يجوز التيمم مع وجود الماء ، لحصول الضرر به .

وباقيا يجوز ، العدم للماء ، ولو كان في الحضر .

مَاءً فَتَيِّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَاَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ

السابع والعشرون : أن الخارج من السيلين ، من بول وغائط ، ينقض الوضوء .

الثامن والعشرون : استدل بها من قال : لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران .

فلا ينتقض بلمس الفرج ، ولا بغيره .

التاسع والعشرون : استحباب التكنية عما يستعذر التلطف ، لقوله تعالى :
[أو جاء أحد منكم من الغائط] .

الثلاثون : أن لمس المرأة بلذة وشهوة ، ناقض للوضوء .

الحادى والثلاثون : اشتراط عدم الماء ، لصحة التيمم .

الثانى والثلاثون : أن مع وجود الماء ، ولو فى الصلاة ، يبطل التيمم ، لأن الله إنما أباحه ، مع عدم الماء .

الثالث والثلاثون : أنه إذا دخل الوقت ، وليس معه ماء ، فإنه يلزمه طلبه فى رحله ، وفيما قرب منه ، لأنه لا يقال « لم يجد » ، لمن لم يطلب .

الرابع والثلاثون : أن من وجد ماء لا يكفى بعض طهارته ، فإنه يلزمه استعماله ، ثم يتيمم بعد ذلك .

الخامس والثلاثون : أن الماء المتغير بالطهارات ، مقدم على التيمم ، أى يكون طهوراً ، لأن الماء المتغير ماء ، فيدخل فى قوله [فلم تجدوا ماء] .

السادس والثلاثون : أنه لا بد من نية التيمم لقوله [فتيمموا]
أى : اقصدوا .

مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ

السابع والثلاثون : أنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض ، من تراب وغيره .

فيكون على هذا ، قوله [فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه] إمامنا باب التغليب ، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه ، ويعلق بالوجه واليدين . وإما أن يكون إرشادا للأفضل ، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فيه ^(١) ، فهو أولى .

الثامن والثلاثون : أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس ، لأنه لا يكون طيباً ، بل خبيثاً .

التاسع والثلاثون : أنه يمسح في التيمم ، الوجه واليدين فقط ، دون بقية الأعضاء .

الأربعون : أن قوله [بوجوهكم] شامل لجميع الوجه وأن يعمه بالمسح ، إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف ، وفيما تحت الشعور ، ولو خفيفة .

الحادى والأربعون : أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط ، لأن اليدين عند الإطلاق ، كذلك .

فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين ، لقيده الله بذلك ، كما قيده في الوضوء .

الثانى والأربعون : أن الآية عامة في جواز التيمم ، لجميع الأحداث

(١) فيه : هكنا في الأصل . لعل الصواب أن (فيه) زائدة .

نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴿١﴾

كلها ، الحدث الأكبر ، والأصغر ، بل ونجاسة البدن ، لأن الله جعلها ^(١) بدلا عن طهارة الماء ، وأطلق في الآية ، فلم يقيد .

وقد يقال : إن نجاسة البدن ، لا تدخل في حكم التيمم ، لأن السياق في الأحداث ، وهو قول جمهور العلماء .

الثالث والأربعون : أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر ، واحد ، وهو الوجه واليدان .

الرابع والأربعون : أنه لو نوى من عليه حدثان ، التيمم عنهما ، فإنه يجزىء ، أخذاً من عموم الآية وإطلاقها .

الخامس والأربعون : أنه يكفي المسح بأي شيء كان ، بيده أو غيرها ، لأن الله قال « فامسحوا » ولم يذكّر للمسوح به ، فدل على جوازه بكل شيء .

السادس والأربعون : اشتراط الترتيب في طهارة التيمم ، كما يشترط ذلك في الوضوء .

ولأن الله بدأ بمسح الوجه ، قبل مسح اليدين .

السابع والأربعون : أن الله تعالى — فيما شرعه لنا من الأحكام — لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ، ولا عسر .

وإنما هو رحمة منه بعباده ، ليظهرهم ، وليتم نعمته عليهم .

وهذا هو الثامن والأربعون : أن طهارة الظاهر بالماء والتراب ، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد ، والتوبة النصوح .

(١) قوله (جعلها) أى : جعل الطهارة بالتيمم .

﴿٧﴾ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ
بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿٧﴾

التاسع والأربعون : أن طهارة التيمم — وإن لم يكن فيها نظافة
وطهارة ، تدرك بالحس والمشاهدة ، فإن فيها طهارة معنوية ، ناشئة عن امتثال
أمر الله تعالى

والخمسون : أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار ، في شرائع الله ،
في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلماً ، ويزداد شكراً لله ومحبة له ، على
ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة .

* يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدينية ، بقلوبهم وألسنتهم .
فإن في استدامة ذكرها ، داعياً لشكر الله تعالى ، ومحبة ، وامتلاء
القلب من إحسانه .

وفيه زوال للعجب ، من النفس ، بالنعم الدينية ، وزيادة لفضل
الله وإحسانه .

و [ميثاقه] أي : واذكروا ميثاقه [الذي واثقكم به] أي : عهده
الذي أخذه عليكم .

وليس المراد بذلك ، أنهم لفظوا ونطقوا بالمهد والميثاق .

وإيما المراد بذلك ، أنهم — بإيمانهم بالله ورسوله — قد التزموا طاعتها .

ولهذا قال [إذ قلتم سمعنا وأطعنا] أي : سمعنا ما دعوتنا به ، من آياتك

القرآنية والكونية ، سمع فهم ، وإذعان ، واثقياد .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ

وأطعنا ما أمرتنا به ، بالامتثال ، وما نهيتنا عنه بالاجتناب .

وهذا شامل لجميع شرائع الدين ، الظاهرة والباطنة .

وأن المؤمنين يذكرون في ذلك ، عهد الله وميثاقه عليهم ، وتكون منهم على بال ، ويحرصون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص .

[واتقوا الله] في جميع أحوالكم [إن الله عليم بذات الصدور]
أى : ما تنطوى عليه ، من الأفكار ، والأسرار ، والخواطر .

فاحذروا أن يطلع ، من قلوبكم ، على أمر لا يرضاه ، أو يصدر منكم ما يكرهه ، واعملوا قلوبكم ، بمعرفته ، ومحبته ، والنصح لعباده .

فإنكم — إن كنتم كذلك — غفر لكم السيئات ، وضاعف لكم الحسنات ، لعله بصلاح قلوبكم .

* أى [يا أيها الذين آمنوا] بما أمروا بالإيمان به ، قوموا بلازم إيمانكم ، بأن تكونوا [قوامين لله شهداء بالقسط] ، بأن تنشط للقيام بالقسط ، حرركاتكم الظاهرة والباطنة .

وأن يكون ذلك القيام ، لله وحده ، لا لغرض من الأغراض الدنيوية .

وأن تكونوا قاصدين للقسط ، الذى هو العدل ، لا الإفراط ولا التفريط ، فى أقوالكم ولا فى أفعالكم .

وقوموا بذلك ، على القريب ، والبعيد ، والصديق والعدو .

بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

[ولا يجرمكم] أى لا يحملكم [شَنَاٰنُ قَوْمٍ] أى : بفضهم .

[على أن لا تعدلوا] كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط .

بل كما تشهدون لوليكم ، فاشهدوا عليه ، وكما تشهدون على عدوكم ،
فاشهدوا له ، فلو كان كافراً أو مبتدعاً .

فإنه يجب العدل فيه ، وقبول ما يأتى به من الحق ، لا لأنه قاله .

ولا يرد الحق لأجل قوله ، فإن هذا ظلم للحق .

[اعدلوا هو أقرب للتقوى] أى : كلما حرصتم على العدل ، واجتهدتم

فى العمل به ، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم ، فإن تم العدل ،
كملت التقوى .

[إن الله خبير بما تعملون] فجازيكم بأعمالكم ، خيرها ، وشرها ،

صغيرها ، وكبيرها ، جزاء عاجلاً ، وآجلاً .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

* أى [وعد الله] الذى لا يخلف الميعاد ، وهو أصدق القائلين - المؤمنين
به ، وبكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

[وعملوا الصالحات] من واجبات ، ومستحبات - بالمغفرة لذنوبهم ،
بالعفو عنها ، وعن عواقبها ، وبالأجر العظيم الذى لا يعلم عظمه إلا الله تعالى .

[فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون] .

[والذين كفروا وكذبوا بآياتنا] الدالة على الحق المبين ، فكذبوا
بها ، بعد ما أبانت الحقائق .

[أولئك أصحاب الجحيم] الملازمون لها ، ملازمة الصاحب لصاحبه .

﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْتُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ
وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١)

* يذكر تعالى عباده المؤمنين ، بنعمه العظيمة ، ويحثهم على تذكروها
بالقلب واللسان .

وأنهم — كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم ، وأخذ أموالهم وبلادهم
وسبيهم نعمة — فليعدوا أيضاً ، إنعامه عليهم ، بكف أيديهم عنهم ، ورد
كيدهم في نحورهم ، نعمة .

فإن الأعداء ، قد هوا بأمر ، وظنوا أنهم قادرون عليه .

فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم ، فهو نصر من الله ، لعباده المؤمنين
ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك ، ويعبدوه ويذكروه .

وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر ، من كافر ، ومنافق ، وباغ ،
كف الله شره عن المسلمين ، فإنه داخل في هذه الآية .

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم ، وعلى جميع
أمورهم فقال :

[وعلى الله فليتوكل المؤمنون] أى : يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم
الدينية والدنيوية ، ويتبرأوا من حولهم وقوتهم ، ويشقوا بالله تعالى ، في
حصول ما يحبون .

وعلى حسب إيمان العبد ، يكون توكله ، وهو من واجبات القلب
المتفق عليها .

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ

* يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد .

وذكر صفة الميثاق وأجرهم ، إن قاموا به ، وإثمهم ، إن لم يقوموا به .
ثم ذكر أنهم ما قاموا به ، وذكر ما عاقبهم به فقال :

[ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل] أى : عهدهم المؤكد الغليظ .

[وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً] أى : رئيساً وعريفاً على ماتحته ،
ليكون ناظراً عليهم ، حاثاً لهم على القيام بما أمروا به ، مطالباً يدعوهم .

[وقال الله] للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا :

[إني معكم] أى : بالعون والنصر ، فإن المعونة ، بقدر المؤنة .

ثم ذكر ما واثمهم عليه فقال :

[لئن أقمت الصلاة] ظاهراً ، وباطناً ، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها ،
واللداومة على ذلك .

[وآتيتم الزكاة] لستحقيها [وآمنتم برسلي] جميعهم ، الذين أفضلهم
وأكملهم ، محمد صلى الله عليه وسلم .

[وعزرتهم] أى : عظمتهم ، وأديت ما يجب لهم من الاحترام
والطاعة .

[وأقرضتم الله قرضاً حسناً] وهو الصدقة والإحسان ، الصادر عن

الصدق والإخلاص ، وطيب المكسب .

الزَّكَاةَ وَءَامَنَتْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
لَّا كُفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

فإذا قتم بذلك [لأ كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري
من تحتها الأنهار] .

فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم ، واندفاع
المكروه بتكفير السيئات ، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات .

[فمن كفر بعد ذلك] العهد والميثاق المؤكد بالإيمان ، والالتزامات
المقرون بالترغيب بذكر ثوابه .

[فقد ضل سواء السبيل] أى : عن عمد وعلم ، فيستحق ما يستحقه
الضالون ، من حرمان الثواب ، وحصول العقاب .

فكأنه قيل : ليت شعري ، ماذا فعلوا ؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله
عليه ، أم نكثوا ؟

فبين أنهم نقضوا ذلك فقال :

[فبما نقضهم ميثاقهم] أى : بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات .

الأولى : أن [لعناهم] أى : طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا ، حيث
أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة ، ولم يقوموا بالعهد الذى أخذ عليهم ،
الذى هو سببها الأعظم .

الثانية : قوله [وجعلنا قلوبهم قاسية] أى : غليظة لا تجدى فيها
المواعظ ، ولا تنفعها الآيات والنذر ، فلا يرغبهم تشويق ، ولا يزعجهم
تنخيف .

الْأَهْرَاقِمْنَ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ قَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾
فَبِمَا نَقُضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ

وهذا من أعظم العقوبات على العبد ، أن يكون قلبه بهذه الصفة ، التي لا يفيده معها ، الهدى ، والخير إلا شراً .

الثالثة : أنهم [يحرفون الكلم عن مواضعه] أى : ابتلوا بالتغيير والتبديل ، فيجعلون الكلام الذى أراد الله له معنى ، غير ما أراد الله ، ولا رسوله .

الرابعة : أنهم [نسوا حظا مما ذكروا به] .

فإنهم ذكروا بالتوراة ، وبما أنزل الله على موسى ، فنسوا حظا منه . وهذا شامل ، لنسيان علمه ، وأنهم نسوه ، وضاع عنهم ، ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه ، عقوبة منه لهم .

وشامل لنسيان العمل ، الذى هو الترك ، فلم يوقفوا للقيام بما أمروا به . ويستدل بهذا على أهل الكتاب ، بإنكارهم بعض الذى قد ذكر فى كتابهم ، أو وقع فى زمانهم ، أنه مما نسوه .

الخامسة : الخيانة المستمرة التى [لا تزال تطلع على خائنة منهم] أى خيانتهم لله ، ولعباده المؤمنين .

ومن أعظم الخيانة منهم ، كتمهم الحق ، عن من يعظهم ، ويحسن فيهم الظن ، وإيقاؤهم على كفرهم ، فهذه خيانة عظيمة .

وهذه الخصال الذميمة ، حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم .

فكل من لم يقيم بما أمر الله به ، وأخذ به عليه الالتزام ، كان له سيب

عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى
خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

من اللعنة وقسوة القلب ، والابتلاء بتحريف الكلم ، وأنه لا يوفق للصواب
ونسيان حظ مما ذكر به .

وأنه لا بد أن يتلى بالخيانة . نسأل الله العافية .

وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظا ، لأنه هو أعظم الخطوظ ، وما عداه
فإنما هي حظوظ دنيوية .

كما قال تعالى [فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا :
يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ، إنه لذو حظ عظيم] .

وقال في الحظ النافع [وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا
ذو حظ عظيم] .

وقوله [إلا قليلا منهم] أى : فإنهم وفوا بما عاهدوا الله عليه فوقهم ،
وهدهم للصراط المستقيم .

[فاعف عنهم واصفح] أى : لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى ،
الذى يقتضى أن يعفى عنهم .

واصفح ، فإن ذلك من الإحسان [والله يحب المحسنين] .

والإحسان : هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ،
فإنه يراك .

وفى حق المخلوقين : بذل النفع الدينى والدنيوى لهم .

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ آخِذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا
حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

* أى : وكما أخذنا من اليهود العهد والميثاق ، فكذلك أخذنا
[من الذين قالوا إنا نصارى] لعيسى بن مريم ، وزكوا أنفسهم بالإيمان
بالله ورسله ، وما جاءوا به ، ونقضوا العهد .

[فَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ] نسيانا علمياً ، ونسياناً عملياً .

[فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ] أى : سلطنا بعضهم
على بعض ، وصار بينهم من الشرور والإحن ، ما يقتضى بغض بعضهم بعضاً
ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة .

وهذا أمر مشاهد ، فإن النصارى لم يزالوا فى بغض وعداوة وشقاق .

[وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ] فيعاقبهم عليه .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ
كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ
جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

* لما ذكر تعالى ، ما أخذه الله على أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى
وأَنهم تقضوا ذلك ، إلا قليلاً ، أمرهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد صلى الله
عليه وسلم ، واحتج عليهم بأية قاطعة دالة على صحة نبوته .

وهي : أنه يبين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس ، حتى عن العوام من
أهل ملتهم .

فإذا كانوا هم المشار إليهم في العلم ولا عند أحد في ذلك الوقت
إلا ما عندهم ، فالحرص على العلم ، لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم .

فإتيان الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن العظيم ، الذي بين به
ما كانوا يتكاثمون بينهم ، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب — من أدل الدلائل
على القطع برسالته .

وذلك مثل صفة محمد في كتبهم ، ووجود البشائر به في كتبهم ، وبيان
آية الرجم ونحو ذلك .

[ويعفو عن كثير] أي : يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة .

[قد جاءكم من الله نور] وهو القرآن ، يستضاء به في ظلمات الجهالة ،
وعماية الضلالة .

[وكتاب مبين] بكل ما يحتاج الخلق إليه ، من أمور دينهم ودينامهم ،

رِضْوَانَهُ سَبِيلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

من العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، ومن العلم بأحكامه الشرعية
وأحكامه الجزائية .

ثم ذكر من الذى يهتدى بهذا القرآن؟ وما هو السبب الذى من العبد
لحصول ذلك فقال :

[يهتدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام] أى : يهتدى من اجتهد
وحرص ، على بلوغ مرضاة الله ، وصار قصده حسناً - سبيل السلام ، التى
يسلم صاحبها من العذاب ، وتوصله إلى دار السلام ، وهو العلم بالحق والعمل
به ، إجمالاً وتفصيلاً .

[ويخرجهم من الظلمات] ظلمات الكفر والبدعة والمعصية ،
والجهل والغفلة .

[إلى النور] نور الإيمان والسنة ، والطاعة ، والعلم ، والذكر .
وكل هذه من الهداية بإذن الله ، الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ ، لم يكن .
[ويهديهم إلى صراط مستقيم] .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ
وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

* لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين ، وأنهم لم يقوموا به
بل نقضوه - ذكر أقوالهم الشنيعة .

فذكر قول النصارى ، القول الذى ما قاله أحد غيرهم ، بأن الله هو
المسيح بن مريم .

ووجه شبهتهم ، أنه ولد من غير أب ، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد
الباطل .

مع أن حواء نظيره ، خلقت بلا أم .

وآدم أولى منه ، خلق بلا أب ولا أم .

فهلا ادعوا فيهما الإلهية ، كما ادعوا في المسيح ؟ .

فدل على أن قولهم ، اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة .

فرد الله عليهم ، بأدلة عقلية واضحة فقال : [قل فمن يملك من الله

شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً] .

فإذا كان المذكورون ، لا امتناع عندهم ، يمنهم لو أراد الله أن

يهلكهم ، ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان إلهية من لا يتمتع من

الإهلاك ، ولا في قوته شيء من الفكاك .

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ
وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ

ومن الأدلة أن [الله] وحده [ملك السموات والأرض وما بينهما]
يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي ، وهم مملوكون
مدبرون .

فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير ، إلهًا معبوداً ، غنيا من كل
وجه ؟ هذا من أعظم المحال .

ولا وجه لاستغرابهم ، نخلق المسيح عيسى بن مريم ، من غير أب فإن
الله [يخلق ما يشاء] إن شاء من أب وأم ، كسائر بني آدم ، وإن شاء من
أب بلا أم ، كحواء

وإن شاء من أم بلا أب ، كعيسى .

وإن شاء من غير أب ولا أم ، كآدم .

فنوع خليقته تعالى ، بمشيئته النافذة ، التي لا يستعصي عليها شيء ولهذا
قال : [والله على كل شيء قدير] .

ومن مقالات اليهود والنصارى ، أن كلا منهما ، ادعى دعوى باطلة ،
يزكون بها أنفسهم بأن قال كل منهما : [نحن أبناء الله وأحباؤه] .

والابن في لغتهم هو الحبيب ، ولم يريدوا البنوة الحقيقية ، فإن هذا ليس
من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح .

بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

قال الله رداً عليهم ، حيث ادعوا بلا برهان : [قل فلم يعذبكم
بذنوبكم] ؟ .

فلو كنتم أحبابه ، ما عذبكم ، لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه .

[بل أنتم بشر ممن خلق] تجرى عليكم أحكام العدل والفضل .

[يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء] إذا أتوا بأسباب المغفرة أو
أسباب العذاب .

[والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير] أى : فأى

شئ خصكم بهذه الفضيلة ، وأنتم من جملة المماليك ، ومن جملة من يرجع إلى
الله في الدار الآخرة ، فيجازيكم بأعمالكم .

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ
عَلَىٰ فِتْرَةٍ مِنَ الرَّسُولِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ
جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩)

* يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه -
أن يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويشكروا الله تعالى ، الذي
أرسله إليهم [على فترة من الرسل] وشدة حاجة إليه .

وهذا مما يدعو إلى الإيمان به ، وأن يبين لهم جميع المطالب الإلهية
والأحكام الشرعية .

وقد قطع الله بذلك حججهم ، لئلا يقولوا :

[ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير] .

ييشر بالثواب العاجل والآجل ، وبالأعمال الموجبة لذلك ، وصفة
العاملين بها .

وينذر بالعقاب العاجل والآجل ، وبالأعمال الموجبة لذلك ، وصفة
العاملين بها .

[والله على كل شيء قدير] انقادت الأشياء طوعاً وإذعاناً ، لقدرته ،
فلا يستعصي عليه شيء منها .

ومن قدرته أن أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وأنه يثيب من
أطاعهم ويعاقب من عصاهم .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ

* لما امتن الله على موسى وقومه ، بنجاتهم من فرعون وقومه ، وأسرهم واستبعادهم ، ذهبوا قاصدين ، لأوطانهم ومساكنهم ، وهى بيت المقدس ، وما حواليه وقاربوا وصول بيت المقدس .

وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ، ليخرجوه من ديارهم .

فوعظهم موسى عليه السلام ؛ وذكركم ، ليقروا على الجهاد فقال :

[واذكروا نعمة الله عليكم] بقلوبكم وألسنتكم .

فإن ذكرها ، داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة .

[إذ جعل فيكم أنبياء] يدعونكم إلى الهدى ، ويحذرونكم من الردى

ويحثونكم على سعادتكم الأبدية ، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون .

[وجعلكم ملوكا] تملكون أمركم ، بحيث إنه زال عنكم استبعاد

عدوكم لكم ، فكنتم تملكون أمركم ، وتتمكنون من إقامة دينكم .

[وآتاكم] من النعم الدينية والدنيوية [ما لم يؤت أحداً من

العالمين] .

فإنهم - فى ذلك الزمان - خيرة الخلق ، وأكرمهم على الله .

وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم .

فذكركم بالنعم الدينية والدنيوية ، الداعى ذلك لإيمانهم ، وثباته ،

وثباتهم على الجهاد ، وإقدامهم عليه ولهذا قال :

أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي
كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾

[يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة] أى : المطهرة [التي كتب الله لكم] .
فأخبرهم خبراً مطمئن به أنفسهم ، إن كانوا مؤمنين صادقين
بخبر الله .

وأنه قد كتب الله لهم دخولها ، وانتصارهم على عدوهم .
[ولا تترتدوا] أى : ترجعوا [على أدباركم ، فتنقلبوا خاسرين] قد
خسرتم دنياكم ، بما فاتكم من النصر على الأعداء ، وفتح بلادكم .
وآخرتكم ، بما فاتكم من الثواب ، وما استحققتكم - بمعصيتكم -
من العقاب .

فقالوا قولاً ، يدل على ضعف قلوبهم ، وخور نفوسهم ، وعدم اهتمامهم
بأمر الله ورسوله .

[ياموسى إن فيها قوماً جبارين] شديدى القوة والشجاعة ، أى :
فلهذا من الموانع لنا من دخولها .

[وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون] .
وهذا من الجبن وقلة اليقين .

وإلا ، فلو كان معهم رشدهم ، لعلموا أنهم كلهم من بنى آدم ، وأن
القوي ، من أعانه الله بقوة من عنده ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

ولعلموا أنهم سينصرون عليهم ، إذ وعدم الله بذلك ، وعدا خاصاً .

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِن فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يُخْرِجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ

[قال رجلان من الذين يخافون] الله تعالى، مشجعين لقومهم ، منهضين لهم على قتال عدوهم ، واحتلال بلادهم .

[أنعم الله عليهما] بالتوفيق ، وكلمة الحق ، في هذا الوطن المحتاج إلى مثل كلامهم ، وأنعم عليهم بالصبر واليقين .

[ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه ، فإنكم غالبون] أى : ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم ، وتدخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه عليهم ، فإنهم سينهزمون .

ثم أمرهم بعدة هي أقوى العدد فقال :

[وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين] .

فإن في التوكل على الله - وخصوصاً في هذا الوطن - تيسيراً للأمر ، ونصراً على الأعداء .

ودل هذا على وجوب التوكل ، وعلى أنه بحسب إيمان العبد ، يكون توكله .

فلم ينجع فيهم هذا الكلام ، ولا نفع فيهم اللام ، فقالوا قول الأذلين :

[يا موسى ، إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون] .

يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ
غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ قَتَوَا كَلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَى

فما أشنع هذا الكلام منهم ، ومواجهتهم به لنبيهم في هذا المقام
المرج الضيق ، الذي قد دعت الحاجة والضرورة فيه إلى نصرته نبيهم ،
وإعزاز أنفسهم .

وبهذا وأمثاله ، يظهر التفاوت بين سائر الأمم ، وأمة محمد صلى الله
عليه وسلم ، حيث قال الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - حين شاورهم
في القتال يوم « بدر » مع أنه لم يحتم عليهم :
يا رسول الله ، لو خضت بنا هذا البحر ، لخضناه معك ، ولو بلغت بنا
برك الغماد^(١) ، ما تخلف عنك أحد .

ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى [اذهب أنت وربك فقاتلا
إنا ههنا قاعدون] .

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، من بين يديك
ومن خلفك ، وعن يمينك ، وعن يسارك .

فلا رأى موسى عليه السلام ، عتوهم عليه [قال : رب إني لا أملك
إلا نفسي وأخي] أى : فلا يدان لنا بقتالهم ، ولست بجبار على هؤلاء .

[فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين] أى : احكم بيننا وبينهم ، بأن
تنزل فيهم من العقوبة ، ما اقتضته حكمتك .

(١) قال في القاموس « برك الغماد » بكسر الباء وفتحها وسكون الراء
فيهما ، موضع باليمن ، أو وراء مكة بخمس ليال ، أو أقصى معمور الأرض اه .

إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبِ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا
إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ

وَدَلْ ذَلِكَ ، عَلَى أَنْ قَوْلُهُمْ وَفَعَلَهُمْ ، مِنْ الْكِبَائِرِ الْعَظِيمَةِ
الْمَوْجِبَةِ لِلْفَسْقِ .

[قَالَ] اللَّهُ جَبِيلاً لِدَعْوَةِ مُوسَى : [فَإِنَّهَا مُحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ
فِي الْأَرْضِ] أَيْ : إِنْ مِنْ عَقُوبَتِهِمْ ، أَنْ نَحْرَمَ عَلَيْهِمْ دَخُولَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الَّتِي كَتَبَهُمُ اللَّهُ لَهَا ، مَدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً .

وَتِلْكَ الْمُدَّةُ أَيْضاً ، يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ، لَا يَهْتَدُونَ إِلَى طَرِيقِ ،
وَلَا يَبْقُونَ مُطْمَئِنِّينَ .

وَهَذِهِ عَقُوبَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ ، لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى ، كَفَرَ بِهَا عَنْهُمْ ، وَدَفَعَ عَنْهُمْ
عَقُوبَةَ أَعْظَمَ مِنْهَا .

وَفِي هَذَا ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعُقُوبَةَ عَلَى الذَّنْبِ : قَدْ تَكُونُ بِزَوَالِ نِعْمَةٍ
مَوْجُودَةٍ ، أَوْ دَفْعِ نِعْمَةٍ ، قَدْ انْقَدَتْ سَبَبٌ وَجُودِهَا أَوْ تَأْخُرُهَا ، إِلَى
وَقْتِ آخَرَ .

وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ ، أَنْ يَمُوتَ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا هَذِهِ
الْمَقَالَةَ ، الصَّادِرَةَ عَنْ قُلُوبِ لَأَصْبِرُ فِيهَا وَلَا يُثَابِتُ .

بَلْ قَدْ أَلْفَتْ الْأَسْتِعْبَادَ لِعُدُوِّهَا ، وَلَمْ تَسْكُنْ لَهَا هَمَّ تَرْقِيهَا إِلَى مَا فِيهِ
ارْتِقَاؤُهَا وَعُلُوُّهَا .

وَلَتُظْهِرُ نَاشِئَةً جَدِيدَةً ، تَتَرَبَّى عَقُولُهُمْ عَلَى طَلْبِ قَهْرِ الْأَعْدَاءِ ، وَعَدَمِ
الْأَسْتِعْبَادِ ، وَالذَّلِّ الْمَانِعِ مِنَ السَّعَادَةِ .

يُنِنَا وَيُنِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ تَبَأُ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلُ
مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ

ولما علم الله تعالى ، أن عبده موسى ، في غاية الرحمة على الخلق ، خصوصاً
قومه ، وأنه ربما رق لهم ، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه
العقوبة ، أو الدعاء لهم بزوالها ، مع أن الله قد حتمها ، قال :

[فلا تأس على القوم الفاسقين] أى : لا تأسف عليهم ولا تحزن ، فإنهم

قد فسقوا ، وفسقتهم اقتضى وقوع مانزل بهم ، لا ظمناً منا .

* أى : قص على الناس ، وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحق ،

تلاوة يعتبر بها المعتبرون ، صدقاً ، لا كذباً ، وجداً ، لا لعباً .

والظاهر أن ابني آدم ، هما : ابناه لصلبه ، كما يدل عليه ظاهر الآية

والسياق ، وهو قول جمهور المفسرين .

أى : اتل عليهم نبأهما ، في حال تقريبيهما للقربان ، الذي أداها إلى

الحال المذكورة .

[إذ قربا قرباناً] أى : أخرج كل منهما شيئاً من ماله ، لقصد التقرب

إلى الله .

[فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر] بأن علم ذلك بخبر من السماء ،

أو بالعادة السابقة في الأمم ، أن علامة تقبل الله للقربان ، أن تنزل نار

من السماء فتحرقه .

مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَنْ بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لِتُقْتَلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي
إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ
بِإِيْمِي وَإِئْتِمَارِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

[قال] الابن ، الذي لم يتقبل منه للآخر ، حسداً وبنياً [لأقتلك] .
فقال له الآخر — مترفقاً له في ذلك — [إنما يتقبل الله من المتقين]
فأى : ذنب لي وجناية ، توجب لك أن تقتلني ؟ إلا أنى اتقيت الله تعالى ،
الذي تقواه واجبة على وعليك ، وعلى كل أحد ؟ .

وأصح الأقوال في تفسير المتقين هنا ، أى : المتقين لله في ذلك العمل ،
بأن يكون عملهم خالصاً لوجه الله ، متبعين فيه لسنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

ثم قال له — مخبراً أنه لا يريد أن يتعرض لقتله ، لا ابتداءً ،
ولا مدافعة فقال :

[لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك .

وليس ذلك جبناً مني ولا عجزاً .

وإنما ذلك لأنى [أخاف الله رب العالمين] وانخائف لله ، لا يقدم
على الذنوب ، خصوصاً ، الذنوب الكبار .

وفي هذا ، تخويف لمن يريد القتل ، وأنه ينبغي لك أن تتقى الله وتحافه .

[إني أريد أن تبوء] أى : ترجع [بإيمي وإيمتك] .

أى : إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو تقتلني ، فإني أؤثر أن
تقتلني ، فتبوء بالوزرين [فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين] .

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٣٠﴾
فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ
أَخِيهِ قَالَ يُورِيَنِي آءَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ
سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

دل هذا ، على أن القتل من كبائر الذنوب ، وأنه موجب لدخول النار .
فلم يرتدع ذلك الجاني ، ولم ينزجر ، ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها ، حتى
طوعت له قتل أخيه ، الذي يقتضى الشرع والطبع ، احترامه .
[قتلته فأصبح من الخاسرين] دنياهم وآخرتهم ، وأصبح قد سن هذه
السنة ، لكل قاتل .

« ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .
ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه « ما من نفس تقتل ، إلا كان على
ابن آدم الأول ، شطر من دمها ، لأنه أول من سن القتل » .
فلما قتل أخاه ، لم يدر كيف يصنع به ، لأنه أول ميت مات من بنى آدم ،
[فبعث الله غرابا يبعث في الأرض] أى : يثيها ليدفن غرابا
آخر ميتاً .

[ليريه] بذلك [كيف يوراي سوءة أخيه] أى : بدنه ، لأن بدن
الميت يكون عورة [فأصبح من النادمين] .
وهكذا عاقبة المعاصي ، الندامة والخسارة .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ
نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ

* يقول تعالى [من أجل ذلك] الذي ذكرناه في قصة ابني آدم ، وقتل أحدهما أخاه ، وسنه القتل لمن بعده ، وأن القتل ، عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة .

[كتبنا على بني إسرائيل] أهل السكتب السماوية [أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض] أى : بغير حق [فكأنما قتل الناس جميعا] . لأنه ليس معه داع يدعوه إلى التبيين ، وأنه لا يقدم على القتل ، إلا بحق .

فلما تجرأ على قتل النفس ، التي لم تستحق القتل ، علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره .

وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء .
فتجرؤه على قتله ، كأنه قتل الناس جميعاً .

وكذلك من أحميا نفسا أى : استبقى أحداً ، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله ، فمنعه خوف الله تعالى من قتله ، فهذا كأنه أحميا الناس جميعاً .

لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل .

ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين .

إما أن يقتل نفسا بغير حق ، متمعدا في ذلك ، فإنه يحل قتله ، إن كان مكلفا مكافئا ، ليس بوالد للمقتول .

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ
إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ

وإما أن يكون مفسدا في الأرض ، يفساده لأديان الناس ، أو أبدانهم ،
أو أموالهم ، كالكفار المرتدين ، والمحاربين ، والدعاة إلى البدع الذين
لا ينكف شرمهم إلا بالقتل .

وكذلك قطاع الطريق ونحوهم ، ممن يصول على الناس لقتلهم ،
أو أخذ أموالهم .

[ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات] التي لا يبقى معها حجة لأحد .

[ثم إن كثيرا منهم] أى : من الناس [بعد ذلك] البيان القاطع
للحجة ، الموجب للاستقامة في الأرض [لمسرفون] في العمل بالمعاصي ،
ومخالفة الرسل ، الذين جاءوا بالبينات والحجج .

* المحاربون لله ولرسوله ، هم الذين بارزوه بالعداوة ، وأفسدوا في الأرض ،
بالكفر ، والقتل ، وأخذ الأموال ، وإخافة السبل .

والمشهور أن هذه الآية الكريمة ، في أحكام قطاع الطريق ، الذين
يعرضون للناس ، في القرى والبوادي ، فيغصبونهم أموالهم ، ويقتلونهم ،
ويخيفونهم ، فيمتنع الناس من سلوك الطريق ، التي هم بها ، فتنتقطع بذلك .

فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم — عند إقامة الحد عليهم — أن يفة بهم
واحد من هذه الأمور .

فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ
مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ

واختلف المفسرون : هل ذلك على التخيير ، وأن كل قاطع طريق ،
يفعل به الإمام أو نائبه ، ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة ؟ وهذا
ظاهر اللفظ .

أو أن عقوبتهم ، تكون بحسب جرائمهم ، فكل جريمة لها قسط
يقابلها ، كما تدل عليه الآية ، بحكمها وموافقها لحكمة الله تعالى .

وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالا تحم قتلهم وصلبهم ، حتى يشتهروا
ويخنزوا ، ويرتدع غيرهم .

وإن قتلوا ، ولم يأخذوا مالا تحم قتلهم فقط .

وإن أخذوا مالا ، ولم يقتلوا ، تحم أن تقطع أيديهم وأرجلهم
من خلاف ، اليد اليمنى ، والرجل اليسرى .

وإن أخافوا الناس ، ولم يقتلوا ، ولا أخذوا مالا ، نفوا من الأرض ،
فلا يتركون بأوون في بلد ، حتى تظهر توبتهم .

وهذا قول ابن عباس رضی الله عنه ، وكثير من الأئمة ، على اختلاف
في بعض التفاصيل .

[ذلك] النكال [لهم خزي في الدنيا] أي : فضيحة وعار
[ولهم في الآخرة عذاب عظيم] .

فدل هذا ، أن قطع الطريق ، من أعظم الذنوب ، موجب لفضيحة
الدنيا وعذاب الآخرة .

فِي الْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا
عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

وَأَنْ فاعله ، محارب لله ورسوله .

وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة ، علم أن تطهير الأرض من الفسدين ،
وتأمين السبل والطرق ، عن القتل ، وأخذ الأموال ، وإخافة الناس ،
من أعظم الحسنات ، وأجل الطاعات ، وأنه إصلاح في الأرض ، كما أن ضده
إفساد في الأرض .

[إلا الذين تابوا من قبل أن تقدرُوا عليهم] أى : من هؤلاء
المحاربين .

[فاعلموا أن الله غفور رحيم] أى : فيسقط عنه ، ما كان لله ،
من تحم القتل ، والصلب ، والقطع ، والنفي .

ومن حق الآدمي أيضاً ، إن كان المحارب كافراً ثم أسلم .

فإن كان المحارب مسلماً ، فإن حق الآدمي ، لا يسقط عنه من القتل ،
وأخذ المال .

ودل مفهوم الآية ، على أن توبة المحارب — بعد القدرة عليه — أنها
لا تسقط عنه شيئاً .

والحكمة في ذلك ظاهرة .

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه ، تمنع من إقامة الحد في الحرابة ،
فغيرها من الحدود — إذا تاب من فعلها ، قبل القدرة عليه — من باب أولى .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ

وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾

* هذا أمر من الله لعباده المؤمنين ، بما يقتضيه الإيمان ، من تقوى الله ،
والحذر من سخطه وغضبه .

وذلك بأن يجتهد العبد ، ويبدل غاية ما يمكنه المقدور ، في اجتناب
ما يسخطه الله ، من معاصي القلب ، واللسان ، والجوارح ، الظاهرة ، والباطنة .
ويستعين بالله على تركها ، لينجو بذلك من سخط الله وعذابه .

[وابتغوا إليه الوسيلة] أى : القرب منه ، والخطوة لديه ، والحب له .

وذلك بأداء فرائضه القلبية ، كالحب له ، وفيه ، والخوف ، والرجاء ،
والإنابة والتوكل .

والبدنية ، كالزكاة ، والحج .

والمركبة من ذلك ، كالصلاة ونحوها ، من أنواع القراءة والذكر ،
ومن أنواع الإحسان إلى الخلق ، بالمال ، والعلم ، والجاه ، والبدن ،
والنصح لعباد الله .

فكل هذه الأعمال ، تقرب إلى الله .

ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله ، حتى يحبه .

فإذا أحبه ، كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده

التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها ، ويستجيب الله له الدعاء .

ثم خص تبارك وتعالى من العبادات المقربة إليه ، الجهاد في سبيله ، وهو :
بذل الجهد في قتال الكافرين ، بالمال ، والنفس ، والرأى ، واللسان ،

﴿٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ
مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٧﴾

والسعى في نصر دين الله ، بكل ما يقدر عليه العبد ، لأن هذا النوع ، من
أجل الطاعات ، وأفضل القربات .

ولأن من قام به ، فهو على القيام بغيره ، أحرى وأولى [لعلكم تفلحون]
إذا اتقيتم الله ، بترك المعاصي ، وابتغيتم الوسيلة إلى الله ، بفعل الطاعات ،
وجاهدتم في سبيله ، ابتغاء مرضاته .

والفلاح هو : الفوز والظفر بكل مطلوب مرغوب ، والنجاة من كل
مرهوب .

فحقيقته ، السعادة الأبدية ، والنعيم المقيم .

* يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين يوم القيامة وما لهم من العذاب
الفظيع .

وأنهم لو افتدوا من عذاب الله ، بملء الأرض ذهباً ومثله معه ، ما تقبل
منهم ، ولا أفاد ، لأن محل الافتداء قدفات ، ولم يبق إلا العذاب الأليم ،
الوجع الدائم الذين لا يخرجون منه أبداً ، بل هم ما كثون فيه ، سرمداً .

وَالسَّارِقِ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا
نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ

* السارق : هو من أخذ مال غيره المحترم خفية ، بغير رضاه .

وهو من كبائر الذنوب الموجبة ، لترتب العقوبة الشنيعة ، وهو قطع اليد اليمنى ، كما هو في قراءة بعض الصحابة .

وحد اليد عند الإطلاق : من الكوع .

فإذا سرق ، قطعت يده من الكوع ، وحسنت في زيت ، لتنسد العروق

فيقف الدم .

ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية ، من عدة أوجه :

منها : الحرز ، فانه لا بد أن تكون السرقة من حرز ، وحرز كل مال :

ما يحفظ به عادة .

فلو سرق من غير حرز ، فلا قطع عليه .

ومنها : أنه لا بد أن يكون المسروق نصاباً ، وهو : ربع دينار ، أو ثلاثة

دراهم ، أو ما يساوي أحدهما .

فلو سرق دون ذلك ، فلا قطع عليه .

ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها .

فان لفظ « السرقة » أخذ الشيء ، على وجه ، لا يمكن الاحتراز منه .

وذلك أن يكون المال محرزاً .

فلو كان غير محرز ، لم يكن ذلك سرقة شرعية .

ومن الحكمة أيضاً أن لا تقطع اليد ، في الشيء النزر التافه .

وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ
أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

فلما كان لا بد من التقدير، كان التقدير الشرعى، مخصصاً للكتاب .
والحكمة فى قطع اليد فى السرقة ، أن ذلك حفظ للأموال ، واحتياط
لها ، وليقطع العضو الذى صدرت منه الجناية .
فإن عاد السارق ، قطعت رجله اليسرى .
فإن عاد ، فقيل : تقطع يده اليسرى ، ثم رجله اليمنى ، وقيل : يحبس
حتى يموت .
وقوله [جزاء بما كسبنا] أى : ذلك القطع ، جزاء للسارق بما سرقه ،
من أموال الناس .
[نكالا من الله] أى : تنكيلا وترهيباً للسارق ولنغيره ، ليرتدع
السارق — إذا علموا — أنهم سيقطعون إذا سرقوا .
[والله عزيز حكيم] أى : عز وحكم ، فقطع السارق .
[فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فإن الله يتوب عليه ، إن الله
غفور رحيم] .

فيفغر لمن تاب ، فترك الذنوب ، وأصلح الأعمال والعيوب .
وذلك أن الله له ملك السموات والأرض ، يتصرف فيهما بما شاء ،
من التصاريف القدرية والشرعية ، والمغفرة ، والعقوبة ، بحسب ما اقتضته
حكيمته ورحمته الواسعة ومغفرته .

يَسْأَلُهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ
مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَقْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا
سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَجْرِفُونَ الْكَلِمَ

* كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم — من شدة حرصه على الخلق —
يشد حزنه لمن يظهر الإيمان ، ثم يرجع إلى الكفر .

فأرشده الله تعالى ، إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء .
فإن هؤلاء ، لا فى العير ولا فى النفير .

إن حضروا ، لم ينفعوا وإن غابوا ، لم يفتقدوا .

ولهذا قال — مبيناً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم — فقال :

[من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم] فإن الذين يؤسى
ويحزن عليهم ، من كان معدوداً من المؤمنين ، ظاهراً وباطناً .

وحاشا لله ، أن يرجع هؤلاء عن دينهم ، ويرتدوا ، فإن الإيمان — إذا
خالط بشاشته القلوب — لم يعدل به صاحبه غيره ، ولم يبع به بدلاً .

[ومن الذين هادوا] أى : اليهود [سماعون للكذب سماعون لقوم
آخريين لم يأتوك] .

أى : مستجيبيون ومقلدون لرؤسائهم ، المبني أسرهم على الكذب ،
والضلال ، والغي .

وهؤلاء الرؤساء المتبعون [لم يأتوك] بل أعرضوا عنك ، وفرحوا بما
عندهم من الباطل .

مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ
فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ
الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ

[يحرفون الكلم من بعد مواضعه] أى : يجلبون معانى للألفاظ ،
ما أرادها الله ، ولا قصدها ، لإضلال الخلق ، ولدفع الحق .

فهؤلاء المنقادون ، للدعاة إلى الضلال ، المتبعين للحال ، الذين يأتون
بكل كذب ، لا عقول لهم ولا هم .

فلا تبال أيضاً ، إذا لم يتبعوك ، لأنهم فى غاية النقص ، والناقص لا يؤبه
له ، ولا يبالي به .

[يقولون إن أوتيتم هذا ، فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا] أى : هذا
قولهم عند محادثتهم إليك ، لا قصد لهم ، إلا اتباع الهوى .

يقول بعضهم لبعض : إن حكم لكم محمد بهذا الحكم ، الذى يوافق
هواكم ، فاقبلوا حكمه .

وإن لم يحكم لكم به ، فاحذروا أن تتابعوه على ذلك .

وهذا فتنة واتباع ما تهوى الأنفس .

[ومن يرد الله فتنته ، فلن تملك له من الله شيئاً] كقوله تعالى :

[إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء] .

[أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم] أى : فلذلك صدر منهم

ما صدر .

فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّخْتِ
فَإِنْ جَاءوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ

فدل ذلك ، على أن من كان مقصوده بالتحاكم ، إلى الحكم الشرعى ،
اتباع هواه ، وأنه إن حكم له رضى ، وإن لم يحكم له ، سخط ، فإن ذلك من
عدم طهارة قلبه .

كما أن من حاكم وتحاكم إلى الشرع ، ورضى به ، وافق هواه
أو خالفه ، فإنه من طهارة القلب .

ودل على أن طهارة القلب ، سبب لكل خير ، وهو أكبر داع إلى كل
قول رشيد ، وعمل سديد .

[لم في الدنيا خزى] أى : فضيحة وعار [ولهم في الآخرة عذاب عظيم]
هو : النار ، وسخط الجبار .

[سماعون للكذب] والسمع ههنا ، سمع استجابة أى : من قلة دينهم
وعقلهم ، أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول الكذب .

[أكلون للسحت] أى : المال الحرام ، بما يأخذونه على سفلتهم
وعوامهم ، من المعلومات والرواتب ، التى بغير الحق .

فجمعوا بين اتباع الكذب ، وأكل الحرام .

[فإن جاءوك ، فاحكم بينهم أو أعرض عنهم] فأنت مخير فى ذلك .
ولست هذه منسوخة ، فإنه — عند تحاكم هذا الصنف إليه — يخير
بين أن يحكم بينهم ، أو يعرض عن الحكم بينهم ، بسبب أنه ، لا قصد لهم
فى الحكم الشرعى ، إلا أن يكون موافقاً لأهوائهم .

فَلَنْ يَضْرُوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا
حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

وعلى هذا ، فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم ، يعلم من حاله ، أنه ، إن
حكّم عليه ، لم يرض ، لم يجب الحكم ، ولا الإفتاء لهم .

فإن حكم بينهم ، وجب أن يحكم بالقسط ، ولهذا قال : [وإن تعرض
عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب
المقسطين] .

حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء ، فلا يمنعك ذلك من العدل في
الحكم بينهم .

وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس ، وأن الله
تعالى يحبه .

ثم قال متعجباً منهم : [وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم
الله ، ثم يتولون من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين] .

فإنهم - لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه - لم يصدفوا
عن حكم الله الذي في التوراة ، التي بين أيديهم ، إلا لعلهم أن يجدوا عندك
ما يوافق أهواءهم .

وحين حكمت بينهم بحكم الله الموافق لما عندهم أيضاً ، لم يرضوا بذلك ،
بل أعرضوا عنه ، فلم يرتضوه أيضاً .

قال تعالى [وما أولئك] الذين ، هذا صنيعهم [بمؤمنين] .

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ

أى : ليس هذا دأب المؤمنين ، وليسوا حريين بالإيمان . لأنهم جعلوا
آلهم أهواءهم ، وجعلوا أحكام الإيمان ، تابعة لأهوائهم .

[إنا أنزلنا التوراة] على موسى بن عمران ، عليه الصلاة والسلام .

[فيها هدى] يهدى إلى الإيمان والحق ، ويعصم من الضلالة .

[ونور] يستضاء به في ظلم الجهل والحيرة والشكوك ، والشبهات ،
والشهوات .

كما قال تعالى : [ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان ، وضياء وذكرى
للمتقين] .

[يحكم بها] بين الذين هادوا ، أى : اليهود في القضايا والفتاوى
[النبيون الذين أسلموا] لله ، واتقادوا لأوامره ، الذين إسلامهم ، أعظم
من إسلام غيرهم ، صفوة الله من العباد .

فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام ، والسادة للأنام ، قد اقتدوا بها ،
واثتموا ، ومشوا خلفها ، فما الذى منع هؤلاء الأراذل من اليهود ، من
الاعتداء بها ؟

وما الذى أوجب لهم ، أن ينبذوا أشرف ما فيها من الإيمان بمحمد صلى
الله عليه وسلم ، الذى لا يقبل عمل ظاهر وباطن ، إلا بتلك العقيدة ؟

هل لهم إمام فى ذلك ؟

نعم لهم أئمة دأبهم التحريف ، وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس ،

اسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيْنُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ

والتأكل بكتان الحق ، وإظهار الباطل ، أولئك أئمة الضلال ، الذين يدعون إلى النار .

وقوله: [الربانيون والأحبار] أى : وكذلك يحكم بالتوراة الذين هادوا أئمة الدين من الربانيين أى : العلماء العاملين للعالمين ، الذين يربون الناس بأحسن تربية ، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين .

والأحبار أى : العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم ، وترمق آثارهم ، ولهم لسان الصدق بين أممهم .

وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق [بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء] أى : بسبب أن الله استحفظهم على كتابه ، وجعلهم أمناء عليه ، وهو أمانة عندهم ، أوجب عليهم حفظه ، من الزيادة والنقصان والكتمان ، وتعليمه لمن لا يعلمه .

وهم شهداء عليه ، بحيث أنهم المرجوع إليهم فيه ، وفيما اشبهه على الناس منه .

فالله تعالى قد حمل أهل العلم ، ما لم يحمله الجهال ، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا .

وأن لا يقتدوا بالجهال ، فى الإخلاد إلى البطالة والكسل .

وأن لا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة ، من أنواع الذكر ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، ونحو ذلك من الأمور ، التى إذا قام بها غير أهل العلم ، سلوا ونجوا .

كَتَبَ اللَّهُ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَأَخْشَوْنَ

وأما أهل العلم ، فكما أنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهم على ما يحتاجون إليه ، من أمور دينهم ، خصوصاً الأمور الأصولية ، والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم ولهذا قال :

[فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً] فتكتموا الحق ، وتظهروا الباطل ، لأجل متاع الدنيا القليل .

وهذه الآفات ، إذا سلم منها العالم ، فهو من توفيقه .

وسعادته بأن يكون همه ، الاجتهاد في العلم والتعليم ، ويعلم ، أن الله قد استحفظه بما أودعه من العلم ، واستشده عليه وأن يكون خائفاً من ربه . ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم ، من القيام بما هو لازم له .

وأن لا يؤثر الدنيا على الدين .

كما أن علامة شقاوة العلم ، أن يكون مغلداً للبطالة ، غير قائم بما أمر به ، ولا مبال بما استحفظ عليه .

قد أهمله وأضاعه ، قد باع الدين بالدنيا ، قد ارتشى في أحكامه ، وأخذ المال على فتاويه ، ولم يعلم عباد الله ، إلا بأجرة وجمالة .

فهذا قد من الله عليه بمنة عظيمة ، كفرها ، ودفع حظاً جسيماً ، حرم منه غيره .

فنسألك اللهم ، علماً نافعاً ، وعملاً متقبلاً ، وأن ترزقنا العفو والعافية ، من كل بلاء . يا كريم .

وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ

[ومن لم يحكم بما أنزل الله] من الحق المبين ، وحكم بالباطل الذي يعلمه ، لغرض من أغراضه الفاسدة [فأولئك هم الكافرون] .
فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر ، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة .

وذلك إذ اعتقد حله وجوازه .

وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب ، ومن أعمال الكفر ، قد استحق من فعله ، العذاب الشديد .

* هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون ، والأخبار .

فإن الله أوجب عليهم ، أن النفس - إذا قتلت - تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة .

والعين ، تقلع بالعين ، والأذن ، تؤخذ بالأذن ، والسن ينزع بالسن .

ومثل هذه ما أشبهها من الأطراف التي يمكن الاقتصاص منها بدون حيف .

[والجروح قصاص] والاقتصاص . أن يفعل به كما فعل .

وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ
فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾

فن جرح غيره عمداً ، اقتص من الجارح جرحاً ، مثل جرحه للمجروح ،
حداً ، وموضعاً ، وطولا ، وعرضاً وعمقا .

ويلعلم أن شرع من قبلنا ، شرع لنا ، ما لم يرد شرعنا بخلافه .

[فمن تصدق به] أى : بالتصاص فى النفس ، وما دونها من الأطراف
والجروح ، بأن عفا عن جنى ، وثبت له الحق قبله .

[فهو كفارة له] أى : كفارة للجانى ، لأن الآدمى عفا عن حقه .

والله تعالى أحق وأولى بالعتو عن حقه .

وكفارة أيضاً عن العاقب ، فإنه كما عفا عن جنى عليه ، أو عن يتعلق
به — فإن الله يعفو عن زلاته وجنباياته .

[ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون] قال ابن عباس ، كفر
دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

فهو ظلم أكبر ، عند استحلاله ، وعظيمة كبيرة عند فعله ، غير
مستحل له .

﴿٤٦﴾ وَقَفَيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَإِنَّا نُنزِلُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٧﴾

* أى : وأتبعنا هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، الذين يحكمون بالتوراة ، بعدنا ورسولنا ، عيسى بن مريم ، روح الله وكلمته التى ألقاها إلى مريم .
بعثه الله مصدقا لما بين يديه من التوراة ، فهو شاهد لموسى ، ولما جاء به من التوراة ، بالحق والصدق ، ومؤيد لدعوته ، وحاكم بشريعته ، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية .
وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام ، كما قال تعالى عنه أنه قال لبنى إسرائيل .

[ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم] .
[وآتيناه الإنجيل] الكتاب العظيم ، المتمم للتوراة .
[فيه هدى ونور] يهذى إلى الصراط المستقيم ، ويبين الحق من الباطل .
[ومصدقا لما بين يديه من التوراة] بتبئيتها والشهادة لها ، والموافقة .
[وهدى وموعظة للمتقين] فإنهم الذين ينتفعون بالهدى ، ويتعظون بالمواعظ ، ويرتدعون عما لا يليق .
[وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه] أى : يلزمهم التقيد بكتابتهم ، ولا يجوز لهم العدول عنه .
[ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون] .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾

* يقول تعالى [وأنزلنا إليك الكتاب] الذى هو القرآن العظيم ، أفضل الكتب وأجلها .

[بالحق] أى : إنزالا بالحق ، ومشملا على الحق ، فى أخباره ، وأوامره ، ونواهيه .

[مصدقا لما بين يديه من الكتاب] ، لأنه شهد للكتب السالفة ، ووافقها ، وطابقت أخباره أخبارها ، وشرائع الكبار شرائعها ، وأخبرت به ، فصار وجودها مصدقا لخبرها .

[ومهيمننا عليه] أى : مشملا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة ، وزيادة فى المطالب الإلهية ، والأخلاق النفسية .

فهو الكتاب الذى يتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به ، وحث عليه ، وأكثر من الطرق الموصلة إليه .

وهو الكتاب الذى فيه نبأ السابقين واللاحقين .

وهو الكتاب الذى ، فيه الحكم ، والحكمة ، والأحكام ، الذى عرضت عليه الكتب السابقة .

فما شهد له بالصدق ، فهو المقبول ، وما شهد له بالرد ، فهو مردود ، قد دخله التحريف والتبديل .

وإلا ، فلو كان من عند الله ، لم يخالفه .

[فاحكم بينهم بما أنزل الله] من الحكم الشرعى ، الذى أنزله الله عليك .

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ
شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ

[ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق] أى : لا تجعل اتباع أهوائهم
الفاصلة المعارضة للحق ، بدلا عما جاءك من الحق ، فتستبدل الذى هو أدنى ،
بالذى هو خير .

[لكل جعلنا منكم] أيها الأمم [شرعة ومنهاجا] أى :
سبيلا وسنة .

وهذه الشرائع التى تختلف باختلاف الأمم ، هى التى تتغير بحسب تغير
الأزمنة والأحوال ، وكلها ترجع إلى العدل ، فى وقت شرعتها .
وأما الأصول الكبار ، التى هى مصلحة وحكمة فى كل زمان ، فإنها
لا تختلف ، فتشعر فى جميع الشرائع .

[ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة] تبعاً لشرعة واحدة ، لا يختلف
متأخرها ولا متقدمها .

[ولكن ليبلوكم فيما آتاكم] فيختبركم ، وينظر كيف تعملون ، ويتلى
كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته ، ويؤتى كل أحد ما يليق به ، وليحصل
التنافس بين الأمم .

فكل أمة تحرص على سبق غيرها ، ولهذا قال : [فاستبقوا الخيرات] .
أى : بادروا إليها ، وأكملوها ، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض
ومستحب ، من حقوق الله ، وحقوق عباده ، لا يصير فاعلها سابقا لغيره ،
مستوليا على الأمر ، إلا بأمرين .

فِي مَاءِ اتَّكُمُ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

المبادره إليها ، وانتهاز الفرصة ، حين يحىء وقتها ، ويعرض عارضها ،
والاجتهاد في أدائها ، كاملة على الوجه المأمور به .

ويستدل بهذه الآية ، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها ، في
أول وقتها .

وعلى أنه ينبغى أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزى في الصلاة وغيرها
من العبادات ، من الأمور الواجبة .

بل ينبغى أن يأتى بالمستحبات ، التي يقدر عليها ، لتتم وتكمل ،
ويحصل بها سبق .

[إلى الله مرجعكم جميعاً] الأمم السابقة واللاحقة ، كلهم سيجمهم
الله ، ليوم لا ريب فيه .

[فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون] من الشرائع والأعمال .

فيثيب أهل الحق والعمل الصالح ، ويعاقب أهل الباطل ، والعمل
السيء .

[وأن احكم بينهم بما أنزل الله] هذه الآية هي التي قيل : إنها ناسخة
لقوله [فاحكم بينهم أو أعرض عنهم] .

والصحيح : أنها ليست بناسخة ، وأن تلك الآية تدل على أنه صلى الله
عليه وسلم مخير بين الحكم بينهم ، وبين عدمه ، وذلك لعدم قصدهم
بالتحاكم للحق .

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلِمَ أَنَّ مَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم ، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله ، من الكتاب والسنة .

وهو القسط الذى تقدم أن الله قال [وإن حكمت ، فاحكم بينهم بالقسط] .

ودل هذا ، على بيان القسط ، وأن مادته هو مشرعه الله من الأحكام فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط ، وما خالف ذلك ، فهو جور وظلم .

[ولا تتبع أهواءهم] ككرر النهى عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها .

ولأن ذلك ، فى مقام الحكم والفتوى ، وهو أوسع ، وهذا فى مقام الحكم وحده .

وكلاهما ، يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم ، المخالفة للحق ، ولهذا قال :

[واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك] .

أى : إياك والاعتذار بهم ، وأن يفتنوك ، فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك .

فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب ، والفرض اتباعه .

[فإن تولوا] عن اتباعك ، واتباع الحق [فاعلم] أن ذلك عقوبة عليهم و [إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم] فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ
وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

ومن أعظم العقوبات ، أن يبغى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول ،
وذلك لفسقه .

[وإن كثيراً من الناس لفاستقون] أى : طبيعتهم الفسق والخروج
عن طاعة الله ، واتباع رسوله .

[أفحكم الجاهلية يبغون] أى : أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك ،
حكم الجاهلية .

وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله .

فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية .

فن أعرض عن الأول ، ابتلى بالثانى المبنى على الجهل ، والظلم ، والغى
ولهذا ، أضافه الله للجاهلية .

وأما حكم الله تعالى ، فبنى على العلم ، والعدل ، والقسط ، والنور ،
والهدى .

[ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون] فالموثق ، هو الذى يعرف
الفرق بين الحكمين ويميز - بإيقانه - ما فى حكم الله ، من الحسن والبهاء ،
وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه .

واليقين ، هو : العلم التام ، الموجب للعمل .

يَسَاءِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ
أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

* يرشد تعالى عباده المؤمنين ، حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى ،
وصفاتهم غير الحسنة ، أن لا يتخذوهم أولياء .

فإن [بعضهم أولياء بعض] يتناصرون فيما بينهم ويكونون يدا
على من سواهم .

فأتم ، لا يتخذوهم أولياء ، فإنهم ، هم الأعداء على الحقيقة .

ولا يبألون بضركم ، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم .
فلا يتولاهم ، إلا من هو مثلهم ، ولهذا قال : [ومن يتولم منكم
فإنه منهم] .

لأن التولى التام ، يوجب الانتقال إلى دينهم .

والتولى القليل ، يدعو إلى الكثير ، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً ، حتى
يكون العبد منهم .

[إن الله لا يهدي القوم الظالمين] أى : الذين وصفهم الظلم ، وإليه
يرجعون ، وعليه يعولون .

فلو جئتهم بكل آية ، ماتبعوك ، ولا انقادوا لك .

ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم ، أخبر أن من يدعى الإيمان ،

طائفة تواليهم فقال :

يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ

[فترى الذى فى قلوبهم مرض] أى : شك ، ونفاق ، وضعف إيمان ، يقولون : إن تولينا إياهم^(١) للحاجة فإننا [نخشى أن تصيبنا دائرة] أى : تكون الدائرة لليهود والنصارى فإذا كانت الدائرة لهم ، فإذاً لنا معه يد^(٢) يكافئوننا عنها ، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام .

قال تعالى - راداً لظنهم السيء - [فعسى الله أن يأتي بالفتح] الذى يعز الله به الإسلام ، على اليهود والنصارى ، ويقهرهم المسلمون [أو أمر من عنده] يئأس به المنافقون من ظفر الكافرين ، من اليهود وغيرهم .

[فيصبحوا على ما أسروا] أى : أضمروا [فى أنفسهم نادمين] على ما كان منهم وضرهم ، بلا نفع حصل لهم .

فحصل الفتح الذى نصر الله به الإسلام والمسلمين ، وأذل به الكفر والكافرين .

فندموا وحصل لهم من الغم ، ما الله به عليم .

(١) قوله (تولينا إياهم) خطأ نحوى والصواب (توليناهم) لأن المقرر فى القواعد النحوية كما ذكره ابن هشام - فى كتاب (القطر) وابن مالك فى ألفيته أن الضمير مهما أمكن اتصاله فلا يعدل عنه إلى الانفصال .

(٢) قوله (فإذا لنا معهم يد) تعبير ليس على ما يبنى ، الصواب (فتكون لنا عندهم يد) .

نَدِيمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَاهُوَلاءَ الَّذِينَ ءَأَسْمُوا
بِاللّٰهِ جَهْدَ ءَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ ءَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا
خٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

[ويقول الذين آمنوا] متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض:

[أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم] أى : حلفوا
وأكدوا حلفهم ، وغلظوه بأنواع التأكيدات : إنهم لمعكم فى الإيمان ،
وما يلزمه من النصره ، والمحبة ، والموالاة .

ظهر ما أضمره ، وتبين ما أسروه ، وصار كيدهم الذى كادوه ،
وظنهم الذى ظنوه بالإسلام وأهله - باطلا .

وبطل كيدهم [فحبطت أعمالهم] فى الدنيا [فأصبحوا خاسرين] حيث
فاتهم مقصودهم ، وحضرهم الشقاء والعذاب .

يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى

* يخبر تعالى أنه الغنى عن العالمين ، وأنه من يرتد عن دينه ، فلن يضر الله شيئاً ، وإنما يضر نفسه .

وأن لله ، عبادةً مخلصين ، ورجالاً صادقين ، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم ، ووعد بالإتيان بهم ، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً ، وأقواهم نفوساً ، وأحسنهم أخلاقاً .

أجل صفاتهم أن الله [يحبهم ويحبونه] .

فإن محبة الله للعبد ، هي أجل نعمة أنعم بها عليه ، وأفضل فضيلة ، تفضل الله بها عليه .

وإذا أحب الله عبداً ، يسر له الأسباب ، وهون عليه كل عسير ، ووقفه لفعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وأقبل بقلوب عباده إليه ، بالمحبة والوداد

ومن لوازم محبة العبد لربه ، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ظاهراً وباطناً ، في أقواله وأعماله ، وجميع أحواله .

كما قال تعالى [قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله] .

كما أن من لوازم محبة الله للعبد ، أن يكثر العبد من التقرب إلى الله ، بالفرائض والنوافل ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن الله :

الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

« وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألتى لآعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيدنه . »

ومن لوازم محبة الله ، معرفته تعالى ، والإكثار من ذكره .

فإن المحبة بدون معرفة بالله ، ناقصة جداً ، بل غير موجودة ، وإن وجدت دعواها .

ومن أحب الله أكثر من ذكره .

وإذا أحب الله عبداً ، قبل منه اليسير من العمل ، وغفر له الكثير من الزلل .

ومن صفاتهم أنهم [أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين] .

فهم للمؤمنين أذلة ، من محبتهم لهم ، ونصحهم لهم ، ولينهم ، ورفقهم ، ورأفتهم ، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم ، وقرب الشيء الذى يطلب منهم . وعلى الكافرين بالله ، المعاندين لآياته ، المكذبين لرسله - أعزة قد اجتمعت همهم وعزائمهم ، على معاداتهم ، وبذلوا جهدهم فى كل سبب يحصل به الانتصار عليهم .

قال تعالى : [وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم] .

وقال تعالى [أشداء على الكفار رحماء بينهم] .
فالغلظة الشديدة على أعداء الله ، مما يقرب العبد إلى الله ، ويوافق
العبد ربه ، في سخطه عليهم .
ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة ، دعوتهم ، إلى الدين الإسلامي ، بالتى
هى أحسن .
فتجتمع الغلظة عليهم ، واللين فى دعوتهم ، وكلا الأمرين من مصلحتهم
ونفعه عائد إليهم .
[يجاهدون فى سبيل الله] بأموالهم وأنفسهم ، بأقوالهم وأفعالهم .
[ولا يخافون لومة لائم] بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه
على لوم المخلوقين .
وهذا يدل على قوة همهم وعزائمهم ، فإن ضعيف القلب ،
ضعيف الهمة .
تنقض عزيمته عند لوم اللائمين ، وتفترق قوته ، عند عدل العاذلين .
وفى قلوبهم تعبد لغير الله ، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم
رضاهم ولومهم ، على أمر الله .
فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله ، حتى لا يخاف فى الله لومة لائم .
ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم من الصفات ، الجميلة ، والمناقب
العالية ، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير - أخبر أن هذا من فضله
عليهم وإحسانه ، لئلا يعجبوا بأنفسهم ، وليشكروا الذى من عليهم بذلك
ليزيدهم من فضله ، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب ، فقال :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ

[ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم] أى : واسع الفضل
والإحسان ، جزيل المن ، قد دعمت رحمته كل شىء ، ويوسع على أوليائه من
فضله ، ما لا يكون لغيرهم .

ولكنه عليم بمن يستحق الفضل ، فيعطيه ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته
أصلاً وفرعاً .

* لما نهى عن ولاية الكفار ، من اليهود والنصارى وغيرهم ، وذكر
مآل توليهم أنه الخسران المبين ، أخبر تعالى من يجب ويتمين توليه .
وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال : [إنما وليكم الله ورسوله] .
فولاية الله ، تدرك بالإيمان والتقوى .

فكل من كان مؤمناً تقياً ، كان لله ولياً ، ومن كان لله ولياً ، فهو
ولى لرسوله .

ومن تولى الله ورسوله ، كان تمام ذلك ، تولى من تولاه ، وهم
المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ، ظاهراً وباطناً ، وأخلصوا للمعبود ، بإقامتهم
الصلاة ، بشروطها ، وفروضها ، ومكملاتها ، وأحسنوا للخلق ، وبذلوا
الزكاة من أموالهم لمستحقها منهم .

وقوله : [وهم راكعون] أى : خاضعون لله ذليون .

فأداة المحصر فى قوله [إنما وليكم الله والذين آمنوا] تدل على أنه

وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٦﴾
يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا
دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ

يجب قصر الولاية على المذكورين ، والتبري من ولاية غيرهم .
ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال :

[ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون] .
أي : فإنه من الحزب المضافين إلى الله ، إضافة عبودية وولاية ،
وحزبه الغالبون ، الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى :
[وإن جندنا لهم الغالبون] .

وهذه بشارة عظيمة ، لمن قام بأمر الله ، وصار من حزبه وجنده ، أن
له الغلبة .

وإن أدب عليه في بعض الأحيان ، لحكمة يريد بها الله تعالى ، فأخر
أمره ، الغلبة والانتصار ، ومن أصدق من الله قيلا .

* ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى
ومن سائر الكفار ؛ أولياء ، يحبونهم ، ويتولونهم ، ويبدون لهم أسرار
المؤمنين ، ويعاونونهم على بعض أمورهم ، التي تضر الإسلام والمسلمين .
وأن ما معهم من الإيمان ، يوجب عليهم ترك موالاتهم ، ويحثمهم
على معاداتهم .

وكذلك التزامهم لتقوى الله ، التي هي امتثال أوامره واجتناب
زواجره مما يدعوهم إلى معاداتهم .

أُولِيَاءِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ
اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

وكذلك ما كان عليه المشركون ، والكفار والمخالفون للمسلمين ، من قدحهم في دين المسلمين ، واتخاذهم إياه هزواً ولعباً ، واحتقاره واستصغاره ، خصوصاً الصلاة ، التي هي أظهر شعائر المسلمين ، وأجل عباداتهم .
إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزواً ولعباً ، وذلك لعدم عقلمهم ، ولجهلمهم العظيم .

وإلا فلو كان لهم عقول ، لخصعوا لها ، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس .

فإذا علمتم - أيها المؤمنون ، حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم - فمن لم يعادهم بعد هذا ، دل على أن الإسلام عنده ، رخيص ، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه ، أو قدح بالكفر والضلال ، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء .

فكيف تدعى لنفسك ديناً قيمياً ، وأنه الدين الحق ؛ وما سواه باطل ، وترضى بموالاة من اتخذها هزواً ولعباً ، وسخر به وبأهله ، من أهل الجهل والحق ؟!

وهذا فيه من التهييج على عداوتهم ، ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا
بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٥٩)
قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مُثَوِّبَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنَ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضِبَ

* أَى : [قل] [يا أيها الرسول] [يا أهل الكتاب] [ملزما لهم] .

إن دين الإسلام هو الدين الحق ، وإن قدحهم فيه ، قدح بأسر ينبنى
المدح عليه :

[هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ،
وأن أكثركم فاسقون] أَى : هل لنا من العيب ، إلا إيماننا بالله ، وبكتبه
السابقة واللاحقة ، وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين ، وبأننا نجزم أن من لم
يؤمن كهذا الإيمان ، فإنه كافر فاسق ؟ .

فهل تنقمون منا ، بهذا الذى أوجب الواجبات على جميع المكلفين !!؟
ومع هذا ، فأكثرهم فاسقون ، أَى : خارجون عن طاعة الله متجرئون
على معاصيه فأولى لكم - أيها الفاسقون - السكوت .

فلو كان عيبكم ، وأنتم سالمون من الفسق ، وهيهات ذلك - لكان الشر
أخف من قدحكم فينا مع فسقكم .

ولما كان قدحهم فى المؤمنين ، يقتضى أنهم يعتقدون أنهم على شر ،
قال تعالى :

[قل] لهم ، مخبرا عن شناعة ما كانوا عليه :

[هل أنبئكم بشر من ذلك] الذى نتم فى علينا ، مع التنزل معكم .

عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا
وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا

[من لعنه الله] أى : أبده عن رحمته [وغضب عليه] وعاقبه
فى الدنيا والآخرة [وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت] وهو
الشیطان ، وكل ما عبد من دون الله ، فهو طاغوت .

[أولئك] المذكورون بهذه الخصال القبيحة [شر مكاناً] من المؤمنين
الذين رحمة الله قريب منهم ، ورضى الله عنهم ، وأتابهم فى الدنيا والآخرة ،
لأنهم أخلصوا له الدين .

وهذا النوع ، من باب استعمال^(١) أفعال التفضيل فى غير بابه .
وكذلك قوله [وأضل عن سواء السبيل] أى : وأبعد عن قصد السبيل .
[وإذا جاءكم قالوا آمنا] نفاقاً ومكراً [و] هم [قد دخلوا] مشتملين
[بالكفر وهم قد خرجوا به] فدخلهم ومخرجهم ، بالكفر — وهم يزعمون
أنهم مؤمنون .

فهل أشر من هؤلاء ، وأقبح حالا منهم !!!

(١) قوله : (من باب استعمال أفعال التفضيل الخ) يريد بهذا الكلام
أن أفعال التفضيل يأتى على وزن (أفعل) غير أن كلمتين خرجتا عن القاعدة
لكثرة دورانهما فى الكلام وهما (خير) و (شر) والقياس أن يكونا على
وزن أفعل فيقال مثلاً (أخير) و (أشر) .

يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانَ
وَأَكْلِهِمُ السَّخْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ
الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّخْتِ لَبِئْسَ
مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٣﴾

[والله أعلم بما كانوا يكتُمون] فيجازيهم بأعمالهم ، خيرا وشرها .
ثم استمر تعالى ، يعدد معيبيهم ، انتصارا لقدحهم في عباده المؤمنين فقال :
[وترى كثيرا منهم] أى : من اليهود [يسارعون في الإثم والعدوان]
أى : يحرصون ، ويبادرون المعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان على
المخلوقين .

[وأكلهم السحت] الذى هو الحرام .
فلم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك ، حتى أخبر أنهم
يسارعون فيه .

وهذا يدل على خبثهم وشرهم ، وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم .
هذا ، وهم يدعون لأنفسهم ، المقامات العالية .

[لبئس ما كانوا يفعلون] وهذا في غاية الذم لهم ، والقذح فيهم .
[لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت] .
أى : هلا ينهاهم العلماء ، المتصدون لنفع الناس ، الذين من الله عليهم
بالعلم والحكمة — عن المعاصي التى تصدر منهم ، ليزول ما عندهم من الجهل ،
وتقوم حجة الله عليهم .

فإن العلماء ، عليهم أمر الناس ومهيهم ، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعى ،
ويرغبوم في الخير : ويرهبوم من الشر [لبئس ما كانوا يفعلون] .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا
بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا

* يخبر تعالى ، عن مقالة اليهود الشنيعة ، وعقيدتهم الفظيعة فقال :

[وقالت اليهود يد الله مغلولة] أى : عن الخير والإحسان ، والبر .

[غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا] وهذا دعاء عليهم ، بنجس مقاتلهم .

فإن كلامهم متضمن لوصف الله الكريم ، بالبخل ، وعدم الإحسان .

فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقا عليهم .

فكانوا أبخل الناس ، وأقلهم إحسانا ، وأسوأهم ظنا بالله ، وأبعدهم

عن رحمته ، التي وسعت كل شيء ، وملاأت أقطار العالم العلوى والسفلى .

ولهذا قال : بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء [لا حجر عليه ،

ولا مانع يمنعه ، مما أراد .

فإنه تعالى ، قد بسط فضله ، وإحسانه الدينى والدنيوى ، وأمر العباد

أن يتعرضوا لنفحات جوده ، وأن لا يسدوا على أنفسهم أبواب إحسانه ،

بمعاصيهم .

فيده سحاء الليل والنهار ، وخيره فى جميع الأوقات مدرارا .

يفرج كرباً ، ويزيل غما ، ويغنى فقيراً ، ويفك أسيراً ويخبر كسيراً ،

ويجيب سائلاً ، ويعطى فقيراً عائلاً ، ويجيب المضطرين ، ويستجيب للسائلين .

وينعم على من لم يسأله ، ويعافى من طلب العافية ، ولا يحرم من خيره عاصياً .

بل خيره ، يرتع فيه البر والفاجر ، ويجود على أوليائه بالتوفيق

لصالح الأعمال .

مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طَعْنِينَ وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ

ثم يمدحهم عليها ، ويضيفها إليهم ، وهي من جوده ويثيبهم عليها من
الثواب العاجل والآجل ، ما لا يدركه الوصف ، ولا يخطر على بال العبد .
ويألف بهم في جميع أمورهم ، ويوصل إليهم من الإحسان ، ويدفع
عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه .

فسبحان من كل النعم ، التي بالعباد ، فنه ، وإليه يجأرون في دفع المكروه .
وتبارك من لا يحصى أحد ، ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه .
وتعالى من لا يخلو العباد من كرمه طرفة عين ، بل ولا وجود لهم ،
ولا بقاء إلا بجوده .

وقبح الله من استغنى بجهله عن ربه ، ونسبه إلى مالا يليق بجلاله .
بل لو عامل الله اليهود القاتلين تلك المقالة ، ونحوهم ممن حاله كحالهم ،
ببعض قولهم ، هلكوا ، وشقوا في دنياهم .
ولكنهم يقولون تلك الأقوال ، وهو تعالى ، يحلم عنهم ، ويصفح ،
ويعلمهم ، ولا يهملهم .

وقوله [وليزیدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طعنا وكفرا]
وهذا من أعظم العقوبات على العبد ، أن يكون الذكر الذي أنزله
الله على رسوله ، الذي فيه حياة القلب والروح ، وسعادة الدنيا والآخرة ،
وفلاح الدارين ، الذي هو أكبر منه ، امتن الله بها على عباده ، توجب
عليهم اللبادة إلى قبولها ، والاستسلام لله بها ، وشكراً لله عليها ، أن تكون

وَيَسْمَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ
أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ

مثل هذا زيادة غى إلى غيه ، ووطنيان إلى طغيانه ، وكفر إلى كفره .
وذلك ، بسبب ، إعراضه عنها ، ورده لها ، ومعاندته إياها ، ومعارضته
لها ، بالشبه الباطلة .

[وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة] فلا يتألفون ، ولا
يتناصرون ، ولا يتفقون على حالة فيها مصلحتهم .

بل لم يزالوا متباغضين في قلوبهم ، متعادين بأفعالهم ، إلى يوم القيامة ،
[كلما أوقدوا نارا للحرب] ليكيدوا بها الإسلام وأهله ، وأبدوا ،
وأعادوا ، وأجلبوا بخيالهم ورجلهم [أطفأها الله] بخذلانهم ، وتفرق
جنودهم ، وانتصار المسلمين عليهم .

[ويسعون في الأرض فسادا] أى : يجتهدون ويجدون ، ولكن
بالفساد في الأرض .

أى : بعمل المعاصى ، والدعوة إلى دينهم الباطل ، والتعويق عن الدخول
في الإسلام .

[والله لا يحب المفسدين] بل يبغضهم أشد البغض ، وسيجازيهم
على ذلك .

ثم قال تعالى : [ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم
سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم] .

وهذا من كرمه وجوده ، حيث لما ذكربأخ أهل الكتاب ومعايهم ،

جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ
إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ
مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٦﴾

وأقوالهم الباطلة، دعاهم إلى التوبة، وأنهم لو آمنوا بالله وملائكته، وجميع
كتبه، وجميع رسله، واتبوا المعاصي، لكفر عنهم سيئاتهم، ولو كانت
ما كانت، ولأدخلهم جنات النعيم، التي فيها ما تشبهه الأنفس وتلذ الأعين.

[ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم]:

أى: قاموا بأوامرها، كما نذبهم الله وحشم.

ومن إقامتهما الإيمان بما دعيا إليه، من الإيمان بحمد صلى الله
عليه وسلم وبالقرآن.

فلو قاموا بهذه النعمة العظيمة، التي أنزلها ربهم إليهم، أى: لأجلهم
وللاعتناء بهم.

[لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم] أى: لأدر الله عليهم الرزق،
ولأمطر عليهم السماء، وأنبت لهم الأرض كما قال تعالى:

[ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء
والأرض].

[منهم] أى: من أهل الكتاب [أمة مقتصدة] أى: عاملة بالتوراة
والإنجيل، عملا غير قوى ولا نشيط.

و [كثير منهم ساء ما يعملون] أى: والسيء منهم الكثير.

وأما السابقون منهم، فقليل ما هم.

يَسَاءُهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾

* هذا أمر من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، بأعظم الأوامر
وأجلها ، وهو : التبليغ لما أنزل الله إليه .

ويدخل في هذا ، كل أمر تلقته الأمة عنه صلى الله عليه وسلم ، من العقائد ،
والأعمال ، والأقوال ، والأحكام الشرعية ، والمطالب الإلهية .

فبلغ صلى الله عليه وسلم أكمل تبليغ ، ودعا ، وأنذر ، وبشر ، ويسر ،
وعلم الجهال الأميين ، حتى صاروا من العلماء الربانيين .

وبلغ ، بقوله ، وفعله ، وكتبه ، ورسله .

فلم يبق خير إلا دل أمته عليه ، ولا شر إلا حذرهما عنه .

وشهد له بالتبليغ ، أفاضل الأمة ، من الصحابة ، فمن بعدهم من أئمة
الدين ، ورجال المسلمين .

[وإن لم تفعل] أى : لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك [فما بلغت رسالته]

أى : فما امتثلت أمره .

[والله يعصمك من الناس] هذه حماية وعصمة من الله ، لرسوله من

الناس ، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ ، ولا يثنيك عنه
خوف من الخلق فإن نواصبيهم بيد الله ، وقد تكفل بعصمتك ، فانت
إمنا عليك البلاغ المبين ، فمن اهتدى ، فلنفسه .

وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم ،

ولا يوفقهم للخير ، بسبب كفرهم .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُتَيَّمُوا
الَّتُورَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٦٨﴾

- * أي : قل لأهل الكتاب — مناديا على ضلالهم ، ومعلنا بباطلهم :
- [لستم على شيء] من الأمور الدينية ، فإنكم ، لا بالقرآن ومحمد ، آمنتم ولا بنبيكم وكتابكم صدقتم ، ولا بحق تمسكتكم ، ولا على أصل اعتمدتم .
- حتى تقيموا التوراة والإنجيل [أي : تجعلوها قائمين بالإيمان بهما واتباعهما ، والتمسك بكل ما يدعو إلىه .
- [و] تقيموا [ما أنزل إليكم من ربكم] الذي رباكم ، وأنعم عليكم ، وجعل أجل إنعامه ، إنزال الكتب إليكم .
- فالواجب عليكم ، أن تقوموا بشكر الله ، وتلتزموا أحكام الله ، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده .
- [وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ، فلا تأس على القوم الكافرين] .

﴿٦٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

* يخبر تعالى عن أهل الكتاب ، من أهل القرآن والتوراة والإنجيل ،
أن سعادتهم ونجاتهم ، في طريق واحد ، وأصل واحد ، وهو الإيمان بالله
واليوم الآخر ، والعمل الصالح .

فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فله النجاة ، ولا خوف
عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا منها .

وهذا الحكم المذكور ، يشمل سائر الأزمنة .

﴿۷۰﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا
 كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا
 يَقْتُلُونَ ﴿۷۰﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ
 تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا
 يَعْمَلُونَ ﴿۷۱﴾ ﴿۷۱﴾

* يقول تعالى : [لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل] أى : عهدهم الثقيل
 بالإيمان بالله ، والقيام بواجباته ، التى تقدم الكلام عليها فى قوله [ولقد
 أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ، وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً] إلى آخر الآيات .
 [وأرسلنا إليهم رسلاً] يتوالون عليهم بالدعوة ، ويتعاهدونهم بالإرشاد
 ولكن ذلك ، لم ينجح فيهم ، ولم يفد .
 [كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم] من الحق ، كذبوه ،
 وعاندوه ، وعاملوه أقبح المعاملة .
 [فريقا كذبوا ، وفريقا يقتلون . وحسبوا أن لا تكون فتنة]
 أى : ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم ، لا يجز عليهم عذاباً ، ولا عقوبة ،
 واستمروا على باطلهم .
 [فعموا وصموا] عن الحق [ثم] نفسهم و [تاب عليهم] حين تابوا
 إليه ، وأتابوا .
 [ثم] لم يستمروا على ذلك ، حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة .
 حيث [عموا وصموا كثير منهم] بهذا الوصف ، والقليل استمروا
 على توبتهم وإيمانهم .
 [والله بصير بما يعملون] فيجازى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير
 وإن شراً فشر .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ

* يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم [إن الله هو المسيح بن مريم] .
بشبهة أنه خرج من أم بلا أب ، وخالف المهود من الخلقة الإلهية .
والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى ، وقال لهم :
[يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم] فأثبت لنفسه العبودية التامة ،
ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق .

[إنه من يشرك بالله] أحداً من المخلوقين ، لا عيسى ولا غيره .
[فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار] وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق ،
وصرف ما خلقه الله له — وهو العبادة الخالصة — لغير من هي له ، فاستحق
أن يخلد في النار .

[وما للظالمين من أنصار] ينقذونهم من عذاب الله ، أو يرفعون
عنهم بعض ما نزل بهم .

[لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة] وهذا من أقوال النصارى
المنصورة عندهم .

زعموا أن الله ثالث ثلاثة ، الله ، وعيسى ، ومريم ، تعالى الله عن قولهم
علوا كبيرا .

وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى .

كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء ، والحقيدة والقيحة !! .

مِنَ أَنْصَارِهِ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ مَلَآئِكَةٍ وَمَا مِنْ
إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ

كيف اشتبه عليهم الخالق بالخلق؟! .

كيف خفى عليهم رب العالمين؟! .

قال تعالى - راداً عليهم وعلى أشباههم - : [وما من إله إلا إله واحد]
متصف بكل صفة كمال ، منزه عن كل نقص ، منفرد بالخلق والتسيير
ما بالخلق من نعمة إلا منه .

فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

ثم توعدهم بقوله [وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم ،
عذاب أليم] .

ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم ، وبين أنه يقبل التوبة عن عباده فقال :

[أفلا يتوبون إلى الله] أي : يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار

لله بالتوحيد ، وبأن عيسى عبد الله ورسوله - عما كانوا يقولونه .

[ويستغفرونه] عن ما صدر منهم [والله غفور رحيم] أي يغفر ذنوب

التائبين ، ولو بلغت عنان السماء ، ويرحمهم ، بقبول توبتهم ، وتبديل
سيئاتهم حسنات .

وصدر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذي هو غاية اللطف واللين في قوله .

[أفلا يتوبون إلى الله] .

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ
مُنَبِّئِينَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْنَا أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٥﴾

ثم ذكر حقيقة المسيح وأمه ، الذى هو الحق ، فقال : [ما المسيح بن مريم
إلا رسول قد خلت من قبله الرسل] .

أى : هذا غاية ، ومنتهى أمره ، أنه من عباد الله المرسلين ، الذين
ليس لهم من الأمر ، ولا من التشريع ، إلا ما أرسلهم به الله ، وهو من
جنس الرسل قبله ، لا منزلة له عليهم ، تخرجه عن البشرية ، إلى مرتبة الربوبية .
[وأمه [مريم [صديقة [أى : هذا أيضاً غايتها ، أن كانت من
الصديقين ، الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء .

والصديقية ، هى : العلم النافع ، الثمر لليقين ، والعمل الصالح .
وهذا دليل على أن مريم ، لم تكن نبيه ، بل أعلى أحوالها ، الصديقية ،
وكفى بذلك فضلا وشرفا .

وكذلك سائر النساء ، لم يكن منهن نبيه ، لأن الله تعالى جعل النبوة
فى أكل الصنفين . فى الرجال ، كما قال تعالى [وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا
نوحى إليهم] .

فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله ، وأمه
صديقة ، فلاى شىء اتخذها النصرارى إلهين مع الله ؟ .

وقوله : [كانا يأكلان الطعام] دليل ظاهر ، على أنهما عبدان فقيران ،
محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب .

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ ضَرًّا

وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦)

فلو كانوا إلهين ، لاستغنيا عن الطعام والشراب ، ولم يحتاجا إلى شيء ،
فإن الإله ، هو الغنى الحميد .

ولما بين تعالى البرهان قال : [انظر كيف نبين لهم الآيات] الموضحة
للحق ، الكاشفة لليقين ، ومع هذا ، لا تفيد فيهم شيئاً ، بل لا يزالون على
إفكهم ، وكذبهم ، وافترائهم . وذلك ظلم وعناد منهم .

* أى : [قل] لهم أيها الرسول : [أتعبدون من دون الله] من المخلوقين
الفقراء المحتاجين .

[من لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً] وتدعون من انفرد بالضر والنفع ،
والعطاء والمنع .

[والله هو السميع] لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن
الحاجات .

[العليم] بالظواهر والبواطن ، والغيب والشهادة ، والأمور الماضية
والمستقبلية .

فالكامل تعالى ، الذى هذه أوصافه ، هو الذى يستحق أن يفرد بجميع
أنواع العبادة ، ويخلص له الدين .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا
عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧) ﴿لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى
لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨)

* يقول تعالى ، لنبيه صلى الله عليه وسلم : [قل يا أهل الكتاب لا تغلوا
في دينكم غير الحق] أى : لا تتجاوزوا وتمعدوا الحق إلى الباطل .

وذلك كقولهم في المسيح ، ما تقدم حكايته عنهم .

وكفلوهم في بعض المشايخ ، متبعين [أهواء قوم قد ضلوا من قبل]
أى : تقدم ضلالهم .

[وأضلوا كثيراً] من الناس ، بدعوتهم إياهم إلى الدين ، الذى هم عليه .

[وضلوا عن سواء السبيل] أى : قصد الطريق ، فجمعوا بين الضلال

والإضلال .

وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم ، وعن اتباع أهوائهم

المردية ، وآرائهم المضلة . ثم قال تعالى :

[لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل] أى : طردوا وأبعدوا عن

رحمة الله .

[على لسان داود وعيسى بن مريم] أى : بشهادتهما وإقرارهما ، بأن

الحجة قد قامت عليهم ، وعاندوها .

[ذلك] الكفر واللعن [بما عصوا وكانوا يعتدون] .

كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾
تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ

أى : بعضيائهم لله ، وظلمهم لعباد الله ، صار سبباً لكفرهم ، وبعدهم
عن رحمة الله ، فإن للذنوب والظلم ، عقوبات .

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثالات ، وأوقعت بهم العقوبات أنهم :
[كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه] أى : كانوا يفعلون المنكر ،
ولا ينهى بعضهم بعضاً .

فيشترك بذلك المباشر وغيره ، الذى سكت عن النهى عن المنكر ، مع
قدرته على ذلك .

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله ، وأن معصيته خفيفة عليهم .
فلو كان لديهم تعظيم لربهم ، لغاروا لمحارمه ، ولغضبوا لغضبه .
وإنما كان السكوت عن المنكر — مع القدرة — موجباً للعقوبة ، لما
فيه من المفاسد العظيمة .

منها : أن مجرد السكوت ، فعل معصية ، وإن لم يباشرها الساكت .
فإنه — كما يجب اجتناب المعصية — فإنه يجب الإنكار على من
فعل المعصية .

ومنها : ما تقدم ، أنه يدل على التهاون بالمعاصي ، وقلة الاكتراث بها .
ومنها : أن ذلك يجرى العصاة والفسقة ، على الإكثار من المعاصي ،
إذا لم يردعوا عنها ، فيزداد الشر ، وتعظم المصيبة الدينية والذنيوية ، ويكون
لهم الشوكة والظهور .

أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ

ثم بعد ذلك ، يضعف أهل الخير ، عن مقاومة أهل الشر ، حتى لا يقدر
على ما كانوا يقدرون عليه أولاً .

ومنها : أنه — بترك الإنكار للنكر — يندرس العلم ، ويكثر الجهل .
فإن المعصية — مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص ، وعدم
إنكار أهل الدين والعلم لها — يظن أنها ليست بمعصية ، وربما ظن الجاهل
أنها عبادة مستحسنة .

وأى مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله ، حلالاً ؟ وانقلاب الحقائق
على النفوس ورؤية الباطل حقاً ؟ !!

ومنها : أن بالسكوت على معصية العاصين ، ربما تزينت المعصية في صدور
الناس ، واقتدى بعضهم ببعض .

فالإنسان ، مولع بالاعتداء بأحزابه ، وبنى جنسه . ومنها ومنها .
فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة ، نص الله تعالى ، أن
بنى إسرائيل الكفار منهم ، لعنهم بمعاصيهم ، واعتدائهم ، وخص من ذلك
هذا المنكر العظيم .

[لبئس ما كانوا يفعلون * ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا]
بالحبة والموالاة والنصر .

[لبئس ما قدمت لهم أنفسهم] البضاعة الكاسدة ، والصفقة الخاسرة .

كثيْرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾

وهي : سخط الله ، الذي يسخط لسخطه كل شيء ، والخلود الدائم في العذاب العظيم .

فقد ظلمتهم أنفسهم ، حيث قدمت لهم ، هذا النزل ، غير الكريم .
وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها النعيم المقيم .

[ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ، ما اتخذوهم أولياء] .
فإن الإيمان بالله وبالنبي ، وما أنزل إليه ، يوجب على العبد موالاته ،
وموالاته أوليائه ، ومعاداة من كفر به وعاداه ، وأوضع في معاصيه .
فشرط ولاية الله والإيمان به ، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء .

وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط ، فدل على انتفاء الشروط .

[ولكن كثيراً منهم فاسقون] أي : خارجون عن طاعة الله والإيمان

به ، وبالنبي .

ومن فسقهم ، موالاته أعداء الله .

ثم قال تعالى [لتجدن أشد الناس عداوة] إلى [أصحاب الجحيم] .

﴿١٨٢﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٨٢﴾ وَإِذَا
سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا
عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٨٣﴾

يقول تعالى — في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين ، وإلى ولايتهم ،
ومحبتهم ، وأبعدهم من ذلك :

[لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا] .

فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق ، أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين ،
وأكثرهم سعياً في إيصال الضرر إليهم .

وذلك ، لشدة بغضهم لهم ، بغياً ، وحسداً ، وعناداً ، وكفراً .

[ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى] .

وذكر تعالى لذلك عدة أسباب .

منها : أن [منهم قسيسين ورهبانا] أي : علماء متزهدين ، وعبادا
في الصوامع متعبدين .

والعلم مع الزهد ، وكذلك العبادة — مما يلطف القلب ويرققه ، ويزيل
عنه ما فيه ، من الجفاء والغلظة ، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود ، وشدة
المشركين .

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا
مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿١٤﴾ فَأَثْبِتْهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ

ومنها: [أنهم لا يستكبرون] أى: ليس فيهم تكبر ولا عتو، عن
الاشقياد للحق.

وذلك موجب لقربهم من المسلمين، ومن محبتهم.
فإن التواضع، أقرب إلى الخير، من المستكبر.

ومنها: أنهم [إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول] محمد صلى الله عليه وسلم،
أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم، بحسب ما سمعوا من الحق
الذى تيقنوه، فلذلك آمنوا، وأقروا به فقالوا:

[ربنا آمنا فآكتبنا مع الشاهدين] وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم،
يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة، وصحة ما جاءوا به، وبشهودن على
الأمم السابقة، بالتصديق والتكذيب.

وهم عدول، شهادتهم مقبولة، كما قال تعالى [وكذلك جعلناكم أمة
وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً].

فكانهم لبوا على إيمانهم، ومسارعتهم فيه، فقالوا:

[وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع
القوم الصالحين].

أى: وما الذى يمنعنا، من الإيمان بالله، والحال، أنه قد جاءنا الحق
من ربنا، الذى لا يقبل الشك والريب.

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

ونحن إذا آمننا واتبعنا الحق ، طمعنا أن يدخلنا الله الجنة ، مع القوم
الصالحين .

فأى مانع يمنعنا ؟ أليس ذلك موجبا للمسارعة والالتقياد للإيمان ،
وعدم التخلف عنه .

قال الله تعالى: [فأثابهم بما قالوا] أى : بما تفوهوا به من الإيمان ،
ونطقوا به من التصديق بالحق .

[جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها ، وذلك جزاء المحسنين]
وهذه الآيات ، نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه
وسلم ، كالنجاشي وغيره ، ممن آمن منهم .

وكذلك لا يزال يوجد فيهم ، من يختار دين الإسلام ، ويتبين له بطلان
ما كانوا عليه ، وهم أقرب من اليهود والمشركين ، إلى دين الإسلام .

ولما ذكر ثواب المحسنين ، ذكر عقاب المسيئين فقال :

[والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم] لأنهم كفروا
بالله ، وكذبوا بآياته المبينة للحق .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَتَمَّ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى [يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم] من اللطاعم والمشارب ، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم ، فاحذوه ، إذ أحلها لكم ، واشكروه ، ولا تردوا نعمته بكفرها ، أو عدم قبولها ، أو اعتقاد تحريمها .

فتجمعوا بذلك بين قول الكذب على الله ، وكفر النعمة ، واعتقاد الحلال الطيب ، حراماً خيئاً ، فإن هذا من الاعتداء .

والله قد نهى عن الاعتداء فقال: [ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين] بل ييغضهم ويمقتهم ، ويعاقبهم على ذلك .

ثم أمر بضد ما عليه المشركون ، الذين يجرمون ، ما أحل الله فقال : [وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا] أى كلوا من رزقه الذى ساقه إليكم ، بما يسره من الأسباب ، إذا كان حلالا ، لا سرقة ، ولا غصبا ، ولا غير ذلك ، من أنواع الأموال ، التى تؤخذ بغير حق .

وكان أيضا طيباً ، وهو : الذى لا خبث فيه . نخرج بذلك ، الخبيث من السباع والخبائث .

[واتقوا الله] فى امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

[الذى أتتم به مؤمنون] فإن إيمانكم بالله ، يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه . فإنه لا يتم إلا بذلك .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ
يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتَهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ
مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

ودلت الآية الكريمة ، على أنه إذا حرم حلالا عليه ، من طعام ،
وشراب ، وسرية ، وأمة ، ونحو ذلك ، فإنه لا يكون حراما بتحريمه .
لكن لو فعله ، فعليه كفارة يمين ، كما قال تعالى [يا أيها النبي لم تحرم
ما أحل الله لك] الآية .

إلا أن تحريم الزوجة ، فيه كفارة ظاهر .
ويدخل في هذه الآية ، أنه لا ينبغى للإنسان ، أن يتجنب الطيبات ،
ويحرمها على نفسه ، بل يتناولها ، مستعينا بها ، على طاعة ربه .

* أى : فى أيمانكم ، التى صدرت على وجه اللغو ، وهى الأيمان ، التى حلف
بها المقسم من غير نية ولا قصد ، أو عقدها يظن صدق نفسه فبان بخلاف ذلك .
[ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان] أى : بما عزمتم عليه ، وعقدت
عليه قلوبكم .

كما قال فى الآية الأخرى [ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم] .
[فكفرته] أى : كفارة الأيمان ، التى عقدتموها بقصدكم [إطعام
عشرة مساكين] .

وذلك الإطعام [من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم]
أى : كسوة عشرة مساكين ، والكسوة ، هى التى تجزى فى الصلاة .
[أو تحرير رقبة مؤمنة] كما قيدت فى غير هذا الموضع .

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيَّمَانِكُمْ إِذَا حَلَقْتُمْ
وَأَحْفَظُوا أَيَّمَانِكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٨٩﴾

فتى فعل واحداً من هذه الثلاثة ، فقد انحلت يمينه .

[فن لم يجد] واحداً من هذه الثلاثة [فصيام ثلاثة أيام ، ذلك] المذكور
[كفارة أيمانكم إذا حلقتم] تكفرها ، وتمحوها ، وتمنع من الإثم .

[واحفظوا أيمانكم] عن الحلف بالله كاذباً ، وعن كثرة الأيمان ،
واحفظوها إذا حلقتم عن الحنث فيها ، إلا إذا كان الحنث خيراً ، فتمام
الحفظ : أن يفعل الخير ، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير .

[كذلك يبين الله لكم آياته] المبينة للحلال من الحرام ، الموضحة
للأحكام .

[لعلكم تشكرون] الله ، حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون .

فعل العبد ، شكر الله تعالى ، على ما من به عليه ، من معرفة الأحكام
الشرعية وتبينها .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ
وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾

* يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة ، ويحجر أنها من عمل الشيطان ،
وأنها رجس .

[فاجتنبوه] أى : أتركوه [لعلكم تفلحون] فإن الفلاح ، لا يتم
إلا بترك ما حرم الله ، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة .

وهى الخمر وهى : كل ما خامر العقل أى : غطاه بسكره .

والميسر ، وهو : جميع المغالبات ، التى فيها عوض من الجانبين ،
كالمراهنة ونحوها .

والأنصاب ، وهى : الأصنام والأنداد ونحوها ، مما ينصب ويعبد من
دون الله .

والأزلام ، التى يقتسمون بها .

فهذه الأربعة ، نهى الله عنها ، ورجز ، وأخبر عن مفسدها الداعية
إلى تركها ، واجتنابها .

فإنها : أنها رجس ، أى : نجس ، خبث معنى ، وإن لم تكن نجمة حساً .
والأمور الخبيثة ، مما ينبغى اجتنابها ، وعدم التدنس بأوضارها .

ومنها : أنها من عمل الشيطان ، الذى هو أعدى الأعداء للإنسان .
ومن المعلوم أن العدو يحذر منه ، وتحذر مصايده وأعماله ، خصوصاً ،
الأعمال التى يعملها ، ليوثق فيها عدوه ، فإنها فيها هلاكه .

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ
فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَذَرَكُم مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ

فالخزم كل الخزم ، البعد عن عمل العدو المبين ، والحذر منها ، والخوف
من الوقوع فيها .

ومنها : أنه لا يمكن للفلاح للعبد إلا باجتنابها .

فإن الفلاح هو : الفوز بالمطلوب المحبوب ، والنجاة من المرهوب .

وهذه الأمور مانعة من الفلاح ، ومعوقة له .

ومنها : أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس ، والشيطان
حريص على بثها ، خصوصاً : الخمر والميسر ، ليقوع بين المؤمنين العداوة
والبغضاء .

فإن في الخمر ، من انقلاب العقل ، وذهاب حجاه ، ما يدعو إلى البغضاء
بينه وبين إخوانه ، من المؤمنين .

خصوصاً ، إذا اقترن بذلك من الأسباب ، ما هو من لوازم شارب
الخمر ، فإنه ربما أوصل إلى القتل .

وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر ، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة ،
ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء .

ومنها : أن هذه الأشياء تصد القلب ، وتبعد البدن عن ذكر الله ،
وعن الصلاة ، اللذين خلق لهما العبد ، وبهنا سعادته .

فَهَلْ أَتَمُّ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾

فالخر والميسر ، يصدانه عن ذلك أعظم صد ، ويشتغل قلبه ، ويذهل لبه
في الاشتغال بهما ، حتى يمضى عليه مدة طويلة ، وهو لا يدري أين هو .

فأى معصية أعظم وأقبح ، من معصية تدنس صاحبها ، وتجعله من أهل
الخبث ، وتوقعه في أعمال الشيطان وشباكه ، فينقاد له ، كما تنقاد البهيمة
الذليلة لراعياها ، وتحول بين العبد ، وبين فلاحه ، وتوقع العداوة والبغضاء
بين المؤمنين ، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة؟! !!

فهل فوق هذه المفاصد شيء أكبر منها؟! !!

ولهذا عرض تعالى ، على العقول السليمة ، النهى عنها ، عرضاً بقوله
[فهل أتم منتهون] .

لأن العاقل - إذا نظر إلى بعض تلك المفاصد - انزجر عنها ، وكفت
نفسه ، ولم يحتج إلى وعظ كثير ، ولا زجر بليغ .

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ (٩٢)

* طاعة الله وطاعة رسوله ، واحدة ، فمن أطاع الله ، فقد أطاع الرسول ،
ومن أطاع الرسول ، فقد أطاع الله .

وذلك شامل للقيام ، بما أمر الله به ورسوله ، من الأعمال ، والأقوال
الظاهرة ، والباطنة ، الواجبة والمستحبة ، المتعلقة بحقوق الله ، وحقوق خلقه ،
والإتناء عما نهى الله ورسوله عنه ، كذلك .

وهذا الأمر أعم الأوامر ، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهى ،
ظاهر ، وباطن .

وقوله : [واحذروا] أى : من معصية الله ، ومعصية رسوله ، فإن
فى ذلك ، الشر والخسران المبين .

[فإن توليتم] عما أمرتم به ، ونهيتم عنه .

[فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين] وقد أدى ذلك .

فإن اهتديتم فلا أنفسكم ، وإن أسأتم فعليها ، والله ، هو الذى يحاسبكم .
والرسول قد أدى ما عليه ، وما حمل به .

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا
طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ
اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

* لما نزل تحريم الخمر ، والنهي الأكيد والتشديد فيه ، تمنى أناس من
للمؤمنين ، أن يعلموا حال إخوانهم ، الذين ماتوا على الإسلام ، قبل تحريم
الخمر ، وهم يشربونها .

فأنزل الله هذه الآية ، وأخبر تعالى أنه [ليس على الذين آمنوا وعملوا
الصلحاحات جناح] أى : حرج وإثم [فيما طعموا] من الخمر والميسر
قبل تحريمها .

ولما كان نفي الجناح ، يشمل المذكورات وغيرها ، قيد ذلك بقوله :
[إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات] أى بشرط أنهم تاركون
للعاصى ، مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً ، موجِباً لهم عمل الصالحات ، ثم استمروا
على ذلك .

وإلا ، فقد يتصف العبد بذلك ، فى وقت دون آخر .

فلا يكفى ، حتى يكون كذلك ، حتى يأتية أجله ، ويدوم على إحسانه ،
فإن الله يحب المحسنين فى عبادة الخالق المحسنين ، فى نفع العبيد .

ويدخل فى هذه الآية الكريمة ، من طعم الحرام ، أو فعل غيره بعد
التحريم ، ثم اعترف بذنبه ، وتاب إلى الله ، واتقى وعمل صالحاً ، فإن الله
يغفر له ، ويرتفع عنه الإثم فى ذلك .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلِوَنَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ وَأَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَىٰ

* هذا من من الله على عباده ، أن أخبرهم بما سيفعل قضاء وقدرأ ، ليطيعوه ، ويقدموا على بصيرة ، ويهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة .

قال تعالى [يا أيها الذين آمنوا] لا بد أن يختبر الله إيمانكم .

[ليبلونكم الله بشيء من الصيد] أى : بشيء غير كثير ، فتكون محنة يسيرة ، تخفيفاً منه تعالى ولطفاً .

وذلك الصيد الذى يتليكم الله به [تناله أيديكم ورماحكم] أى : تتمكنون من صيده ، ليتم بذلك الابتلاء ، لا غير مقدور عليه بيد ، ولارمح فلا يبقى للابتلاء فائدة .

ثم ذكر الحكمة فى ذلك الابتلاء فقال : [ليعلم الله] علماً ظاهراً للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب [من يخافه بالغيب] .

فيكف عما نهى الله عنه ، مع قدرته عليه ، وتمكنه ، فيثيبه الثواب الجزيل ، ممن لا يخافه بالغيب ، فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه .

[فمن اعتدى] منكم [بعد ذلك] البيان ، الذى قطع الحجج ، وأوضح السبيل .

[فله عذاب أليم] أى : مؤلم موجه ، لا يقدر على وصفه إلا الله ، لأنه لا عذر لذلك المعتدى ، والاعتبار بمن يخافه بالغيب ، وعدم حضور الناس عنده .

بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا
الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ

وأما إظهار مخافة الله عند الناس ، فقد يكون ذلك ، لأجل مخافة
الناس ، فلا يثاب على ذلك .

ثم خرج بالنهي ، عن قتل الصيد ، في حال الإحرام فقال :
[يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم] أى : محرمون في
الحج والعمرة .

والنهي عن قتله ، يشمل النهي عن مقدمات القتل ، وعن المشاركة في
القتل ، والدلالة عليه ، والإعانة على قتله ، حتى إن من تمام ذلك ، أنه ينهى
المحرم عن أكل ما قتل ، أو صيد لأجله .

وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم ، أنه يحرم على المحرم ، قتل وصيد
ما كان حلالاً له قبل الإحرام .

وقوله : [ومن قتله منكم متعمداً] قتل صيداً عمداً [ف] عليه [جزاء
مثل ما قتل من النعم] أى الإبل ، أو البقر ، أو الغنم .

فينظر ما يشبهه من ذلك ، فيجب عليه مثله ، يذبحه ويتصدق به .
والاعتبار بالمائلة [يحكم به ذوا عدل منكم] أى : عدلان يعرفان
الحكم ، ووجه الشبه ، كما فعل الصحابة رضی الله عنهم ، حيث قضوا بالحمامة
شاة ، وفي النعامة بدنة ، وفي بقر الوحش - على اختلاف أنواعه - بقرة .
هكذا كل ما يشبه شيئاً من النعم ، ففيه مثله .

النَّعْمِ يَنْحُكُم بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدِيًّا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَةً
طَعَامَ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ

فإن لم يشبه شيئاً ، ففية قيمته ، كما هو القاعدة في التلقات .
وذلك الهدى لابد أن يكون [هدياً بالغ الكعبة] أى : يذبح
في الحرم .

[أو كفارة طعام مساكين] أى : كفارة ذلك الجزاء ، طعام
مساكين ، أى : يجعل مقابل المثل من النعم ، طعام يطعم المساكين .
قال كثير من العلماء : يقوم الجزاء ، فيشتري بقيمته طعام ، فيطعم كل
مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره .

[أو عدل ذلك] الطعام [صياماً] أى : يصوم عن إطعام كل
مسكين يوماً .

[ليدوق] بإيجاب الجزاء المذكور عليه [وبال أمره ، عفا الله عما سلف
[ومن عاد] بعد ذلك [فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام] .

وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد ، مع أن الجزاء يلزم المتعمد
والخطيء ، كما هو القاعدة الشرعية - أن التلغف للنفوس والأموال المحترمة ،
فإنه يضمنها على أى حال كان ، إذا كان إتلافه بغير حق .

لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام ، وهذا للمتعمد .

وأما الخطيء ، فليس عليه عقوبة ، إنما عليه الجزاء . هذا قول جمهور
العلماء .

عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أَحِلَّ
لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَّعَّا لَكُمْ وَاللِّسْيَارَةَ وَحُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ
الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

والصحيح ، ما صرحت به الآية ، أنه لا جزاء علم غير التعمد ، كما
لا إثم عليه .

ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري ، استثنى تعالى ، الصيد
البحري فقال :

[أحل لكم صيد البحر وطعامه] أى أحل لكم - فى حال إحرامكم -
صيد البحر وهو : الحى من حيواناته ، وطعامه ، وهو : اللبث منها ، فدل
ذلك على حل ميتة البحر .

[متاعا لكم وللسيارة] أى : الفائدة فى إباحتكم له أنه لأجل انتفاعكم ،
وانتفاع رفقتكم ، الذين يسرون معكم .

[وحرّم عليكم صيد البر ما دمتم حرما] .
ويؤخذ من لفظ « الصيد » أنه لا بد أن يكون وحشياً لأن الإنسى
ليس بصيد .

وما كولا ، فإن غير المأكول ، لا يصاد ، ولا يطلق عليه اسم الصيد .
[واتقوا الله الذى إليه تحشرون] أى : اتقوه بفعل ما أمر به ، وترك
ما نهى عنه .

واستعينوا على تقواه بعلكم أنكم إليه تحشرون .
فيجازيكم ، هل قتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل ، أم لم تقوموا ،
فيعاقبكم ؟

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيُبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهُدَى وَالْقَلِيدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُو أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾

* يخبر تعالى ، أنه جعل [الكعبة البيت الحرام قياماً للناس] .

يقوم ، بالقيام بتعظيمه ، دينهم وديانهم ، فبذلك يتم إسلامهم ، وبه تحط أوزارهم ، وتحصل لهم - بقصده - العطايا الجزيلة ، والإحسان الكثير .

وبسببه تنفق الأموال ، وتقتحم - من أجله - الأهوال .

ويجتمع فيه ، من كل فج عميق ، جميع أجناس المسلمين ، فيتعارفون ، ويستعين بعضهم ببعض ، ويتشاورون على المصالح العامة ، وتنمقد بينهم الروابط ، في مصالح الدينية والدنيوية .

قال تعالى : [ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام] .

ومن أجل كون البيت قياماً للناس قال من قال من العلماء : إن حج بيت الله ، فرض كفاية في كل سنة .

فلو ترك الناس حجه ، لآثم كل قادر ، بل لو ترك الناس حجه ، لزال ما به قوامهم ، وقامت القيامة .

وقوله [والهدي والقلائد] أي : وكذلك جعل الهدى والقلائد - التي هي أشرف أنواع الهدى - قياماً للناس ، ينتفعون بهما ، ويثابون عليهما .

[ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، وأن الله بكل

شيء عليم] .

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ وَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْأَبْلَغُ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

فن علمه ، أن جعل لكم هذا البيت الحرام ، لما يعلمه من مصالحكم
الدينية والدنيوية .

[اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم] أى : ليكون هذان
العلمان ، موجودين في قلوبكم ، على وجه الجزم واليقين ، تعلمون أن الله
شديد العقاب — العاجل والآجل — على من عصاه ، وأنه غفور رحيم ،
لمن تاب إليه وأطاعه .

فيشمر لكم هذا العلم ، الخوف من عقابه ، والرجاء لمغفرته وثوابه .
وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء .

ثم قال تعالى : [ما على الرسول إلا البلاغ] وقد بلغ كما أمر ، وقام
بوظيفته ، وما سوى ذلك ، فليس له من الأمر شيء .

[والله يعلم ما تبدون وما تكتمون] فيجازيكم بما يعلمه — تعالى — منكم .

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ
الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

* أى [قل] للناس — محذراً عن الشر ومرغباً في الخير — :

[لا يستوى الخبيث والطيب] من كل شيء .

فلا يستوى الإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، ولا أهل الجنة وأهل النار ، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة ، ولا يستوي المال الحرام ، بالمال الحلال .

[ولو أعجبك كثرة الخبيث] فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً ، بل يضره في دينه ودنياه .

[فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون] .

فأمر أولى الألباب ، أى : أهل العقول الوافية ، والآراء الكاملة ، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب .

وهم : الذين يؤبه لهم ، ويرجى أن يكون فيهم خير .

ثم أخبر أن الفلاح ، متوقف على التقوى ، التى هى موافقة الله ، فى أمره ونهيه .

فمن اتقاه ، أفلح كل الفلاح .

ومن ترك تقواه ، حصل له الخسران ، وفاتته الأرباح .

يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَّا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّ
لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَّ لَكُمْ

* ينهى عباده المؤمنين ، عن سؤال الأشياء ، التي إذا بينت لهم ، ساءتهم
وأحزنتهم .

وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن
آبائهم ، وعن حالهم في الجنة أو النار .

فهذا ربما أنه ، لو بين للسائل ، لم يكن له فيه خير ، كسؤالهم للأمور
غير الواقعة .

وكالسؤال ، الذي يترتب عليه ، تشديدات في الشرع ، ربما
أخرجت الأمة .

وكالسؤال عما لا يعنى .

فهذه الأسئلة ، وما أشبهها ، هي المنهى عنها .

وأما السؤال الذى لا يترتب عليه شيء من ذلك ، فهو مأمور به ، كما

قال تعالى :

[فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون] .

[وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن ، تبد لكم] أى : وإذا وافق

سؤالكم محله ، فسألتم عنها ، حين ينزل عليكم القرآن ، فستألون عن آية

أشكلك ، أو حكم خفى وجهه عليكم ، فى وقت يمكن فيه نزول الوحي من

السماء ، تبد لكم ، أى : تبين لكم وتظهر ، وإلا ، فاستكثروا عما سكت

الله عنه .

عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُم
مِمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

[عفا الله عنها] أى : سكت معافياً لعباده منها .

فكل ما سكت الله عنه ، فهو مما أباحه ، وعفا عنه .

[والله غفور رحيم] أى : لم يزل بالمغفرة موصوفاً ، وبالعلم والإحسان
معروفاً .

فتعرضوا لمغفرته وإحسانه ، واطلبوه ، من رحمته ورضوانه .

وهذه المسائل التي نهيتهم عنها [قد سألتها قوم من قبلكم] أى : جنسها
وشبهها ، سؤال تعنت لا استرشاد .

فلما بينت لهم وجاءتهم [أصبحوا بها كافرين] كما قال النبي صلى الله
عليه وسلم في الحديث الصحيح :

« ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به ، فاتوا منه ما استطعتم ،
فإنما أهلك من كان قبلكم ، كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم » .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ
وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ

* هذا ذم للمشركين ، الذين شرعوا في الدين ، ما لم يأذن به الله ، وحرموا ما أحله الله .

فجعلوا بآرائهم الفاسدة ، شيئاً من مواشيهم محرماً ، على حسب اصطلاحاتهم ، التي عارضت ما أنزل الله ، قال :

[ما جعل الله من بحيرة] وهي : ناقة ، يشقون أذنبا ، ثم يحرمون ركوبها ، ويرونها محترمة .

[ولا سائبة] وهي : ناقة ، أو بقرة ، أو شاة ، إذا بلغت سنّاً اصطلاحوا عليه ، سيبوها ، فلا تتركب ، ولا يحمل عليها ، ولا تؤكل ، وبعضهم ينذر شيئاً من ماله ، يجعله سائبة .

[ولا حام] أي : جل يحمى ظهره عن الركوب والحمل ، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم .

فكل هذه ، مما جعلها المشركون محرمة ، بغير دليل ولا برهان .
وإنما ذلك ، افتراء على الله ، وصادرة من جهلهم ، وعدم عقلم ،
ولهذا قال :

[ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرم لا يعقلون] .

فلا نقل فيها ولا عقل ، ومع هذا ، فقد أعجبوا بآرائهم ، التي بنيت على الجهالة والظلم .

لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ
قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْا كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

فإذا دعوا [إلى ما أنزل الله وإلى الرسول] أعرضوا ، فلم يقبلوا ،
و [قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا] من الدين ، ولو كان غير شديد ،
ولادينا ينجي من عذاب الله .

ولو كان في آباءهم كفاية ومعرفة ودراية ، لكان الأمر .

ولكن آباءهم لا يعقلون شيئاً ، أى ، ليس عندهم من العقول شيء ، ولا
من العلم والهدى ، شيء .

فتباً لمن قلده من لا علم عنده صحيح ، ولا عقل رجيح ، وترك اتباع
ما أنزل الله ، واتباع رسله ، الذى يملأ القلوب ، علماً ، وإيماناً ،
وهدى ، وإيقاناً

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ
مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

* يقول تعالى: [يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم] أى: اجتهدوا فى إصلاحها، وكاملها، وإلزامها سلوك الصراط المستقيم.

فإنكم - إذا صلحتم - لا يضركم من ضل عن الصراط المستقيم، ولم يهتد إلى الدين القويم، وإنما يضر نفسه.

ولا يدل هذا، أن الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، لا يضر العبد تركهما وإهمالهما.

فإنه لا يتم هداه، إلا بالإتيان بما يجب عليه، من الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

نعم، إذا كان عاجزاً عن إنكار المنكر، بيده، ولسانه، وأذنه بقلبه، فإنه لا يضره ضلال غيره.

وقوله [إلى الله مرجعكم جميعاً] أى: ما لكم يوم القيامة، واجتماعكم بين يدي الله تعالى.

[فينبئكم بما كنتم تعملون] من خير وشر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ
الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ إِخْرَانٍ مِّنْ غَيْرِكُمْ
إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسَبُونَهُمَا

* يخبر تعالى خيراً متضمناً للأمر ، بإشهاد اثنين على الوصية ، إذا حضر
الإنسان مقدمات الموت وعلائمه .

فينبغي له ، أن يكتب وصيته ، ويشهد عليها اثنين ، ذوى عدل ، ممن
يعتبر شهادتهما .

[أو آخران من غيركم] أى : من غير أهل دينكم ، من اليهود ،
أو النصارى ، أو غيرهم ، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرها
من المسلمين .

[إن أتم ضربتم فى الأرض] أى : سافرتم فيها .

[فأصابتكم مصيبة الموت] أى : فأشهدوها .

ولم يأمر بإشهادها ، إلا لأن قولها فى تلك الحال مقبول ، ويؤكد
عليها ، أن يحبساً [من بعد الصلاة] التى يمظونها .

[فيقسمان بالله] أنهما صدقا ، وما غيرا ، ولا بدلا . هذا [إن ارتبتم]

فى شهادتهما ، فإن صدقتموها ، فلا حاجة إلى القسم بذلك .

ويقولان : [لانشترى به] أى : بأيماننا [ثمننا] بأن نكذب فيها ،

لأجل عرض من الدنيا .

[ولو كان ذا قربى] فلا تراعيه لأجل قرابة منا [ولا نكتم شهادة الله]

مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكُمُ شُهَدَاءَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَمِينِ ﴿١٠٦﴾
فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ
الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ
شَهَدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ

بل نؤديها على ما سمعناها [إنا إذا] أي : إن كتمناها [لمن الآمين] .
[فإن عثر على أنهما] أي : الشاهدين [استحقا إثمًا] بأن وجد من
القرآن ، ما يدل على كذبهما ، ، وأنهما خانا ، فأخران يقومان مقامهما من
الذين استحق عليهما الأوليان .
أي : فليقم رجلان من أولياء الميت ، وليكونا من أقرب
الأولياء إليه .
[فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما] أي : أنهما كذبا ،
وغيرا ، وخانا .
[وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين] أي : إن ظلمنا واعتدينا ، وشهدنا
بغير الحق .
قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة ، وتأكيدها ، وردّها على
أولياء الميت ، حين تظهر من الشاهدين الحيانة .
[ذلك أدنى] أي : أقرب [أن يأتوا بالشهادة على وجهها] حين
تؤكد عليهما تلك التأكيدات .

أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ
بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

[أو يخافوا أن ترد أيمانهم] أى : أن لا تقبل أيمانهم ، ثم ترد على أولياء الميت .

[والله لا يهدى القوم الفاسقين] أى : الذين وصفهم الفسق ، فلا يريدون الهدى والتصد إلى الصراط المستقيم .

وحاصل هذا ، أن الميت — إذا حضره الموت فى سفر ونحوه ، مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين — أنه ينبغى أن يوصى شاهدين مسلمين عدلين .

فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين ، جاز أن يوصى إليهما .

ولكن لأجل كفرهما ، فإن الأولياء ، إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما بعد الصلاة ، أنهما ما خانا ، ولا كذبا ، ولا غيرا ، ولا بدلا ، فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما .

فإن لم يصدقهما ، ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين فإن شاء أولياء الميت ، فليقم منهم اثنان ، فيقسمان بالله : لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين ، الأولين ، وأنهما خانا وكذبا ، فيستحقون منهما ما يدعون .

وهذه الآيات الكريمة ، نزلت فى قصة « تميم الدارى » و « عدى بن بداء » المشهورة حين أوصى لها العدوى ، والله أعلم .

.

ويستدل بالآيات الكريمت ، على عدة أحكام .
منها : أن الوصية مشروعة ، وأنه ينبغي لمن حضره الموت ،
أن يوصى .

ومنها : أنها معتبرة ، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت
وعلامته ، مادام عقله ثابتاً .

ومنها : أن شهادة الوصية ، لا بد فيها من اثنين عدلين .

ومنها : أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها ، مقبولة لوجود
الضرورة .

وهذا مذهب الإمام أحمد .

وزعم كثير من أهل العلم : أن هذا الحكم منسوخ .

وهذه دعوى لا دليل عليها .

ومنها : أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه ، أن شهادة الكفار
— عند عدم غيرهم ، حتى في غير هذه المسألة — مقبولة ، كما ذهب إلى ذلك ،
شيخ الإسلام ابن تيمية .

ومنها : جواز سفر المسلم مع الكافر ، إذا لم يكن محذور .

ومنها : جواز السفر للتجارة .

ومنها : أن الشاهدين — إذا ارتب منهما ، ولم تبد قرينة تدل على
خيانتهما ، وأراد الأولياء — أن يؤكدوا عليهما اليمين ، يحبسونهما من
بعد الصلاة ، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى .

ومنها : أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما ،
وتأكيد اليمين عليهما .

ومنها : تعظيم أمر الشهادة ، حيث أضافها تعالى ، إلى نفسه ، وأنه
يجب الاعتناء بها ، والقيام بها ، بالقسط .

ومنها : أنه يجوز امتحان الشاهدين ، عند الريبة منهما ، وتفريقهما ،
لينظر في قيمة شهادتهما صدقا أو كذبا^(١).

ومنها : أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه
المسألة — قام اثنان من أولياء الميت ، فأقسما بالله . أن أيماننا أصدق من
أيمانها ، ولقد خانا وكذبا .

ثم يدفع إليهما ما ادعياه ، وتكون القرينة — مع أيمانها — قائمة
مقام البينة .

(١) في الأصل المطبوع (لينظر عن شهادتهما) والعبارة — كما ترى —
لا تؤدي المعنى المراد ، ولذلك أصلحناها حسبما يقتضى المقام والسياق .

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا
لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى
ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكَرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ

* يخبر تعالى ، عن يوم القيامة ، وما فيه من الأحوال العظام ، وأن الله
يجمع به جميع الرسل فيسألهم .

[ماذا أجبتهم] أى : ماذا أجابتكم به أممكم ؟

[قالوا لا علم لنا] وإنما العلم لك — ياربنا ، فأنت أعلم منا .

[إنك أنت علام الغيوب] أى : تعلم الأمور الغائبة والحاضرة .

[إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك]

أى : اذكرها بقلبك ولسانك ، وقم بواجبها شكراً لربك ، حيث أنعم
عليك نعماً ، ما أنعم بها على غيرك .

[إذ أيدتك بروح القدس] أى : إذ قويتك بالروح والوحى ، الذى .

طهرتك وزكأك ، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله .

وقيل : إن المراد « بروح القدس » جبريل عليه السلام ، وأن الله

أعانه به ، وبملازمته له ، وتثبيتته ، فى المواطن المشقة .

[تكلم الناس فى المهدي وكهلا] المراد بالتكليم هنا ، غير التكليم

المعهد الذى هو مجرد الكلام .

وإنما المراد بذلك التكليم الذى ينتفع به للتكلم والمخاطب ، وهو

الدعوة إلى الله .

وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ
الطَّيْرِ يَأْذَنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ
وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي

ولعيسى عليه السلام من ذلك ، ما لإخوانه ، من أولى العزم ، من
المسلمين ، من التكليم في حال الكهولة ، بالرسالة والدعوة إلى الخير ،
والنهي عن الشر .

وامتاز عنهم ، بأنه كلم الناس في المهد فقال :

[إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا ، وجعلني مباركا أينما كنت
وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا] الآية .

[واذ علمتكم الكتاب والحكمة] فالكتاب ، يشمل الكتب السابقة ،
وخصوصاً التوراة ، فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل - بعد
موسى - بها .

ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه .

والحكمة هي : معرفة أسرار الشرع ، وفوائده ، وحكمه ، وحسن
الدعوة والتعليم ، ومراعاة ما ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي .

[وإذ تخلق من الطين كهَيْئَةِ الطير] أى : طيراً مصوراً ، لاروح فيه .
فتنفخ فيها ، فتكون طيراً بإذني ، وتبرئ الأكمه [الذي : لا بصر
له ولا عين] .

[والأبرص بإذني ، وإذ تخرج الموتى بإذني] .

فهذه آيات بينات ، ومعجزات باهرات ، يعجز عنها الأطباء وغيرهم ،
أيد الله بها عيسى ، وقوى بها دعوته .

إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾

[وإذ كفتت بنى إسرائيل عنك ، إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم] لما جاءهم الحق مؤيداً بالبينات الموجبة للإيمان به .
[إن هذا إلا سحر مبين] .

وهووا بعيسى أن يقتلوه ، وسعوا في ذلك .

فكف الله أيديهم عنه ، وحفظه منهم ، وعصمه .

فهذه منن ، امتن الله بها على عبده ورسوله ، عيسى بن مريم ، ودعاه إلى شكرها ، والقيام بها .

فقام بها عليه السلام ، أتم القيام ، وصبر كما صبر إخوانه ، من أولى العزم .

﴿١١١﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي
قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ لِيَعِيسَى
ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ

* أى : واذا ذكر نعمتى عليك ، اذيسرت لك أتباعا وأعوانا ،

فأوحيت إلى الخوارج أى : ألهمتهم ، وأوزعت قلوبهم الإيمان بى
وبرسولى ، وأوحيت إليهم على لسانك ، أى : أمرتهم بالوحى الذى
جاءك من عند الله .

فأجابوا لذلك وابتادوا ، وقالوا : آمنا ، واشهد بأننا مسلمون .

فجمعوا بين الإسلام الظاهر ، والانتقياذ بالأعمال الصالحة والإيمان
الباطن ، المخرج لصاحبه من النفاق ، ومن ضعف الإيمان .

والخواريون هم : الأنصار ، كما قال عيسى بن مريم للخواريين :

[من أنصارى إلى الله ؟ قال الخواريون . نحن أنصار الله] .

[إذ قال الخواريون . يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل

علينا مائدة من السماء] أى : مائدة فيها طعام .

وهذا ليس منهم عن شك فى قدرة الله ، واستطاعته على ذلك .

وإنما ذلك ، من باب العرض والأدب منهم .

ولما كان سؤال آيات الاقتراح ، منافياً للانتقياذ للحق ، وكان هذا

الكلام الصادر من الخواريين ، ربما أوهم ذلك ، وعظهم عيسى عليه

السلام فقال :

قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ
مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ
الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا

[اتقوا الله إن كنتم مؤمنين] فإن المؤمن ، يحمله مامعه من الإيمان
على ملازمة التقوى ، وأن يتقاد لأمر الله ، ولا يطلب من آيات الاقتراح
التي لا يدري ما يكون بعدها .

فأخبر الحواريون ، أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى ، وإنما لهم
مقاصد صالحة .

لأجل الحاجة إلى ذلك [قالوا نريد أن نأكل منها] وهذا دليل على .
أنهم محتاجون لها :

(وتطمئن قلوبنا) بالإيمان ، حين نرى الآيات العيانة ، حتى يكون
الإيمان عين اليقين .

كما سأل الخليل ، عليه الصلاة والسلام ربه ، أن يريه كيف يحيى الموتى
(قال أألم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي) .

فالعبد محتاج إلى زيادة العلم ، واليقين ، والإيمان كل وقت ، ولهذا قال :
[ونعلم أن قد صدقتنا] أى : نعلم صدق ما جئت به ، أنه حق
وصدق .

[ونسكون عليها من الشاهدين] فتسكون مصلحة لمن بعدنا ، نشهدها
لك ، فتقوم الحجة ، ويحصل زيادة البرهان بذلك .

مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ
وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ
فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك ، وعلم مقصودهم ، أجابهم
إلى طلبهم في ذلك .

قال : [اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً
لأولنا وآخرنا وآية منك] أى : يكون وقت نزولها ، عيداً وموسماً ،
يتذكر به هذه الآية العظيمة ، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات ،
وتكرر السنين .

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم ، مذكرة لآياته ، ومنبها
على سنن المرسلين وطرقهم التوجيهية ، وفضله وإحسانه عليهم .

[وارزقنا وأنت خير الرازقين] أى : اجعلها لنا رزقاً .

فسأل عيسى عليه السلام نزولها أن تكون لهاتين المصلحتين ، مصلحة
الدين ، بأن تكون آية باقية ، ومصلحة الدنيا ، وهى : أن تكون رزقاً .

[قال الله : إني منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فإنى أعذبه عذاباً
لا أعذبه أحداً من العالمين] لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر ، عنادا وظلماً ،
فاستحق العذاب الأليم ، والعقاب الشديد .

واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها ، وتوعدهم — إن كفروا —
بهذا الوعيد . ولم يذكر أنه أنزلها .

فيحتمل أنه لم ينزلها ، بسبب أنهم لم يختاروا ذلك .

الْمَلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ
اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي

ويدل على ذلك ، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى ،
ولاه وجود .

ويحتمل أنها نزلت ، كما وعد الله ، وأنه لا يخلف الميعاد .

ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم ، من الحظ الذي
ذكروا به فسوه .

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً ، وإعما ذلك كان متوارثاً بينهم ،
ينقله الخلف عن السلف ، فاكتمى الله بذلك ، عن ذكره في الإنجيل .

ويدل على هذا المعنى قوله [ونكون عليها من الشاهدين] والله أعلم
بحقيقة الحال .

[وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين
من دون الله] .

وهذا توبيخ للنصارى ، الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة فيقول الله هذا
الكلام لعيسى .

فيتبرأ منه عيسى ويقول [سبحانك] عن هذا الكلام القبيح ، وعا
لا يليق بك .

[ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق] أي : ما ينبغي لي ، ولا يليق
أن أقول شيئاً ، ليس من أوصافي ، ولا من حقوق .

وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَٰلِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ
لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ

فإنه ليس أحد من المخلوقين ، لا الملائكة المقربون ، ولا الأنبياء المرسلون
ولا غيرهم ، له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية .

وإنما الجميع عباد ، مدبرون ، وخلق مسخرون ، وقراء عاجزون .

[إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك]
فأنت أعلم بما صدر مني .

[إنك أنت علام الغيوب] وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة
والسلام ، في خطابه لربه .

فلم يقل عليه السلام « لم أقل شيئاً من ذلك » .

وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه ، أن يقول كل مقالة تنافي منصبه
الشريف ، وأن هذا من الأمور المحالة .

ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيهه ، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة .

ثم صرح بذكر ما أمر به بنى إسرائيل فقال : [ما قلت لهم إلا
ما أمرتني به] فأنا عبد متبع لأمرك ، لا متجريء على عظمتك .

[أن اعبدوا الله ربي وربكم] أي : ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده ،
وإخلاص الدين له ، للمتضمن للنهي ، عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله ،
وبيان أني عبد مربوب ، فكما أنه ربكم فهو ربي .

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

[وكنتم عليهم شهيدياً ما دمت فيهم] أشهد على من قام بهذا الأمر ،
من لم يقم به .

[فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم] أي : المطلع على سرائرهم
وضمائرم .

[وأنت على كل شيء شهيد] علماً وسمعاً وبصراً .

فعلك قد أحاط بالمعلومات ، وسمعك بالسموعات ، وبصرك بالمبصرات ،
فأنت الذي تجازى عبادك ، بما تعلمه فيهم من خير وشر .

[إن تعذبهم فإنهم عبادك] وأنت أرحم بهم من أنفسهم ، وأعلم
بأحوالهم ، فلولا أنهم عباد متمردون ، لم تعذبهم .

[وإن تغفر لهم ، فإنك أنت العزيز الحكيم] أي : فغفرتك صادرة عن
تمام عزة وقدرة ، لا كمن يغفر ويعفو ، عن عجز وعدم قدرة .

الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك ، أن تغفر لمن أتى بأسباب
المغفرة .

[قال الله] مبيناً لحال عباد يوم القيامة ، ومن الفائز منهم ، ومن
الهالك ، من الشقي ، ومن السعيد .

[هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم] والصادقون هم الذين استقامت
أعمالهم وأقوالهم ، ونياتهم ، على الصراط المستقيم ، والهدى القويم .

أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾
لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق،
عند ملك مقتدر .

ولهذا قال: [لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى
الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم] .

والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم، وثمره أعمالهم
الفاسدة .

[لله ملك السموات والأرض وما فيهن] لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك
بحكمه القدرى، وحكمه الشرعى، وحكمه الجزائى، ولهذا قال :

[وهو على كل شيء قدير] فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة
لشيئته، ومستخرة بأمره .

تم تفسير سورة المائدة، بفضل من الله وإحسان

والحمد لله رب العالمين

تفسير

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ
الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَمْدُلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي

هذا إخبار عن حمده والثناء عليه ، بصفات الكمال ، ونعوت العظمة
والجلال عموماً ، وعلى هذه المذكورات خصوصاً .

فحمد نفسه على خلقه السموات والأرض ، الدالة على كمال قدرته ، وسعة
علمه ورحمته ، وعموم حكمته ، وانفراده بالخلق والتدبير ، وعلى جعله
الظلمات والنور .

وذلك شامل للحسي من ذلك ، كالليل والنهار ، والشمس والقمر .
والمعنوي ، كظلمات الجهل ، والشك ، والشرك ، والمعصية ، والغفلة ،
ونور العلم والإيمان ، واليقين ، والطاعة .

وهذا كله ، يدل دلالة قاطعة أنه تعالى ، هو المستحق للعبادة ، وإخلاص
الدين له .

ومع هذا الدليل ووضوح البرهان [ثم الذين كفروا بربهم يعدلون]
به سواه .

خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾

يسوونهم به في العبادة والتعظيم ، مع أنهم لم يساواوا الله في شيء من
الكمال ، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه .

[هو الذي خلقكم من طين] وذلك بخلق مادتكم وأبيكم آدم
عليه السلام .

[ثم قضى أجلا] أى : ضرب لمدة إقامتكم في هذه الدار ، أجلا فتمعون
به وتمتحنون ، وتبتلون بما يرسل إليكم به رسله .

[ليلوكم أيكم أحسن عملا] ويعمركم ما يتذكر فيه من تذكركم .

[وأجل مسمى عنده] وهى : الدار الآخرة ، التى ينتقل العباد إليها من
هذه الدار ، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر .

[ثم] مع هذا البيان التام وقطع الحجّة [أنتم تمترون] أى : تشكون
في وعد الله ووعيده ، ووقوع الجزاء يوم القيامة .

وذكر الله الظلمات بالجمع ، لكثرة موادها ، وتنوع طرقها .

ووحيد النور ، لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة ، لا تعدد فيها ،
وهى : الصراط المتضمنة للعلم بالحق ، والعمل به كما قال تعالى [وأن هذا
صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله] .

﴿٣﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

أى : وهو المألوه المعبود ، فى السموات وفى الأرض ، فأهل السماء
والأرض ، متعبدون لربهم ، خاضعون لعظمته ، مستكينون لعزه وجلاله ،
الملائكة المقربون ، والأنبياء والمرسلون ، والصديقون ، والشهداء
والصالحون .

وهو تعالى ، يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ، فاحذروا معاصيه
وارغبوا فى الأعمال ، التى تقربكم منه ، وتدنيكم من رحمته ، واحذروا من
كل عمل يبعدكم منه ، ومن رحمته .

﴿٤﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا
مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ
أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ

* هذا إخبار منه تعالى ، عن إعراض المشركين ، وشدة تكذيبهم

وعداوتهم ، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات ، حتى تحل بهم المثلثات فقال :

[وما تأتيهم من آية من آيات ربهم] الدالة على الحق دلالة قاطعة ،
الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله .

[إلا كانوا عنها معرضين] لا يلتقون لها بالا ، ولا يصغون لها سمعاً ،
قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها ، وولوها أدبارهم .

[فقد كذبوا بالحق لما جاءهم] والحق حقه ، أن يتبع ، ويشكر الله
على تيسيره لهم ، وإتيانهم به .

فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد .

[فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون] أى : فسوف يرون
ما استهزأوا به ، أنه الحق والصدق ، وبين الله للكذابين كذبهم وافتراءهم
وكانوا يستهزئون بالبعث والجنة والنار .

فإذا كان يوم القيامة قيل للكذابين « هذه النار التي كنتم بها
تكذبون » .

وقال تعالى : [وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ،
بلى ، وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليبين لهم الذى

قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّثْتُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَارْسَلْنَا
السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾

يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين [ثم أمرهم أن يعتبروا
بالأمم السابقة فقال :

[ألم يروا كم أهلكننا من قبلهم من قرن] أى : كم تتابع إهلاكنا
للأمم المكذبين ، وأمهلناهم قبل ذلك الإهلاك ، بأن [مكناهم فى الأرض
ما لم نمكن لكم] من الأموال والبنين والرفاهية .

[وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم]
تنبت لهم بذلك ما شاء الله ، من زروع وثمار ، يتمتعون بها ، ويتناولون
منها ما يشتهون .

فلم يشكروا الله على نعمه ، بل أقبلوا على الشهوات ، وأهتتم الذات
فجاءتهم رسالهم بالبينات ، فلم يصدقوها ، بل ردوها وكذبوها فأهلكناهم
بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين [أى : فأهلكهم الله بذنوبهم ،
وأنشأ من بعدهم قرنا آخرين .

فهذه سنة الله ودأبه ، فى الأمم السابقين واللاحقين .
فاعتبروا بمن قص الله عليكم نبأهم .

﴿٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا

* هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين ، وأنه ليس تكذيبهم لتصور فيما جتتهم به ، ولا لجهل منهم بذلك ، وإنما ذلك ظلم وبنى ، لا حيلة لكم فيه .

فقال : [ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم] وتيقنوه [لقال الذين كفروا] ظلماً وعدواناً [إن هذا إلا سحر مبين] .

فأى بينة أعظم من هذه البينة ، وهذا قولهم الشنيع فيها ، حيث كابروا المحسوس ، الذى لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل دفعه ؟ !!

[وقالوا] أيضاً — تعنتاً مبيناً على الجهل ، وعدم العلم بالمعقول .

[لولا أنزل عليه ملك] أى : هلا أنزل مع محمد ملك ، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر ، وأن رسالة الله ، لا تكون إلا على أيدى الملائكة .

قال الله — فى بيان رحمته ولطفه بعباده ، حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به ، عن علم ، وبصيرة ، وغيب .

[ولو أنزلنا ملكاً] برسالتنا ، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق ولكن إيماناً بالشهادة ، الذى لا ينفع شيئاً وحده .

وهذا إن آمنوا ، ، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة .

فلو لم يؤمنوا [لتضى الأمر] بتعجيل الهلاك عليهم ، وعدم إنظارهم ، لأن هذه سنة الله ، فيمن طلب الآيات المقترحة ، فلم يؤمن بها .

أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقَضَى الْأَمْرَ يُمًّا لَا يُنظَرُونَ ﴿١٨﴾
وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿١٩﴾

فإرسال الرسول البشرى إليهم ، بالآيات البينات ، التي يعلم الله أنها
أصلح للعباد ، وأرفق بهم ، مع إمهال الله للكافرين والمكذبين — خير
لهم وأنفع .

فطلبهم لإنزال الملك ، شر لهم ، لو كانوا يعلمون .

ومع ذلك ، فالملك لو أنزل عليهم ، وأرسل ، لم يطيقوا التلقى عنه ،
ولا احتملوا ذلك ، ولا أطاقتهم قواهم الفانية .

[ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا] لأن الحكمة لا تقتضى سوى ذلك .

[وللبسنا عليهم ما يلبسون] أى : ولكان الأمر ، مختلطا عليهم ،
وملبوساً .

وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم ، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة
التي فيها اللبس ، وعدم بيان الحق .

فلما جاءهم الحق ، بطرقه الصحيحة ، وقواعده التي هي قواعده ، لم يكن
ذلك هداية لهم ، إذا اهتمى بذلك غيرهم .

والذنب ذنبهم ، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى ، وفتحوا
أبواب الضلال .

﴿١٠﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا
مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾

* يقول تعالى - مسلماً لرسوله ، ومصبراً ومتهدداً أعداءه ، ومتوعدا .
[ولقد استهزىء برسول من قبلك] لما جاءوا أممهم بالبينات ، كذبوهم
واستهزأوا بهم ، وبما جاءوا به .
فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب ، ووفر لهم من العذاب أكل
نصيب .

[فخاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون] فاحذروا - أيها
المكذبون - أن تستمروا على تكذيبكم ، فيصيبكم ما أصابهم .
[قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين] أي :
فإن شككتكم في ذلك ، أو ارتبتم ، فسيروا في الأرض ، ثم انظروا ،
كيف كان عاقبة المكذبين ، فلن تجدوا إلا قوماً مهلكين ، وأما في
المثالث تالفين .

قد أوحشت منهم المنازل ، وعدم من تلك الربوع كل ممتع بالسرور
نازل .

أبادهم الملك الجبار ، وكان نبأهم عبرة لأولى الأبصار .
وهذا السير للأمور به ، سير القلوب والأبدان ، الذي يتولد منه-
الاعتبار .

وأما مجرد النظر من غير اعتبار ، فإن ذلك لا يفيد شيئاً .

﴿قُلْ لَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلَّ لِلَّهِ كَتَبَ
عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْزِيَكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢)

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم [قل] لهؤلاء المشركين ، مقررأ لهم
وملزماً بالتوحيد : [لن ما في السموات والأرض] أى : من الخالق لذلك ،
المالك له ، المتصرف فيه ؟

[قل] لهم : [لله] وهم مقرون بذلك لا ينكرونه ، أفلا حين اعترفوا
بانفراد الله ، بالملك والتدبير أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد ؟ !! .
وقوله [كتب على نفسه الرحمة] أى : العالم العلوى والسفلى ، تحت
ملكه وتدبيره ، وهو تعالى ، قد بسط عليهم رحمته وإحسانه ، وتقدمهم
برحمته وامتنانه ، وكتب على نفسه كتابا «أن رحمته تغلب غضبه» و «أن
العطاء أحب إليه من المنع» و «أن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة ،
إن لم يغلقتوا عاينهم أبوابها بذنوبهم ، ودعاهم إليها ، إن لم تمنعهم من طلبها
معاصيهم وعبوبهم» . وقوله [ليجمعنكم إلى يوم القيامة . لا ريب فيه]
وهذا قسم منه ، وهو أصدق المخبرين .

وقد أقام على ذلك ، من الحجج والبراهين . ما يجعله حق اليقين .
ولكن أبى الظالمون إلا جوداً ، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق ،
فأوضاعوا^(١) فى معاصيه ، وتجروا على الكثر به ، فحسروا دنياهم وأخراهم
ولهذا قال : [الذين خسروا أنفسهم ، فهم لا يؤمنون] .

(١) أوضاعوا . أى أسرعوا فى السير إلى المعاصى .

﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَّتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ

إعلم أن هذه السورة الكريمة ، قد اشتملت على تقرير التوحيد ، بكل
دليل عقلي ، ونقل .

بل كادت أن تكون كلها ، في شأن التوحيد ، ومجادلة المشركين بالله ،
المكذبين لرسوله .

فهذه الآيات ، ذكر الله فيها ، ما يتبين به الهدى ، وينتفع به الشرك .

فذكر أن [له] تعالى [ما سكن في الليل والنهار] .

وذلك هو الخلوقات كلها ، من آدميها ، وجنبا ، وملائكتها ،
وحيواناتها وجماداتها .

فالكل خلق مدبرون ، وعبيد مسخرون لربهم العظيم ، القاهر المالك .

فهل يصح في عقل ونقل ، أن يعبد من هؤلاء المالك ، الذي لا نفع
عنده ولا ضرر ؟ ويترك الإخلاص للخالق ، المدبر المالك ، الضار النافع ؟ !! .

أم العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، تدعو إلى إخلاص العبادة ،
والحب ، والخوف ، والرجاء لله رب العالمين ؟ !! .

[السميع] لجميع الأصوات ، على اختلاف اللغات ، بتفنن الحاجات .

[العليم] بما كان ، وما يكون ، وما لم يكن ، لو كان كيف كان

يكون ، المطلع على الظواهر والبواطن ؟ !! .

[قل] لهؤلاء المشركين بالله : [أغير الله أئتخذولياً] من هؤلاء الخلوقات

العاجزة ، يتولاني ، وينصرني ؟ !! .

وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي

فلا أتخذ من دونه تعالى ولياً لأنه ، فاطر السموات والأرض ،
أى : خالقهما ومدبرها .

[وهو يطعم ولا يطعم] أى : وهو الرازق لجميع الخلق ، عن غير حاجة
منه تعالى إليهم .

فكيف يليق أن أتخذ ولياً غير الخالق الرازق ، الغنى ، الحميد ؟ !!
[قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم] لله بالتوحيد ، واثقاد
له بالطاعة .

لأنى أولى من غيرى ، بامتثال أوامر ربي .
[ولا تكونن من المشركين] أى : ونهيت أيضاً ، عن أن أكون
من المشركين ، لافى اعتقادهم ، ولا فى مجالستهم ، ولا فى الاجتماع بهم ،
فهذا أفرض الفروض على ، وأوجب الواجبات .

[قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم] فإن العصية
فى الشرك ، توجب الخلود فى النار ، وسخط الجبار .

وذلك اليوم ، هو اليوم الذى يخاف عذابه ، ويحذر عقابه .
لأنه من صرف عنه العذاب يومئذ ، فهو المرحوم ، ومن نجأ فيه ، فهو
الفائز حقاً .

كما أن من لم ينج منه ، فهو الهالك الشقى .
ومن أدلة توحيده ، أنه تعالى ، المنفرد بكشف الضراء ، وجلب
الخير والسراء .

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ
الْفَوْزُ الْأَمِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا
هُوَ وَإِن يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ
فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً

ولهذا قال: [وإن يمسك الله بضر] من فقر، أو مرض، أو عسر،
أو غم، أو هم أو نحوه .

[فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسك بخير، فهو على كل شيء قدير].

فإذا كان وحده النافع الضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية
والإلهية .

[وهو القاهر فوق عباده] فلا يتصرف منهم متصرف، ولا يتحرك
معرك، ولا يسكن ساكن، إلا بمشيئته .

وليس للملوك وغيرهم، الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون
مقهورون .

فإذا كان هو القاهر، وغير مقهوراً، كان هو المستحق للعبادة .

[وهو الحكيم] فيما أمر به ونهى، وأثاب، وعاقب، وفيما
خلق وقدر .

[الخبير] المطلع على السرائر والضمائر، وخفايا الأمور، وهذا كله
من أدلة التوحيد .

[قل] لهم - لما بينا لهم الهدى، وأوضحنا لهم المسالك - : [أي شيء
أكبر شهادة] على هذا الأصل العظيم .

قَالَ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ
وَمَنْ بَلَغَ أَنتِكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ

[قل الله] أ كبر شهادة ، فهو [شاهد بيني وبينكم] فلا أعظم منه
شهادة ، ولا أ كبر ، وهو يشهد لي بإقراره وفعله ، فيقرني على ما قلت لكم .
كما قال تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم
لقطعنا منه الوتين) .

فإن الله حكيم قدير ، فلا يليق بحكمته وقدرته ، أن يقر كاذبا عليه ، زاعماً
أن الله أرسله ولم يرسله ، وأن الله أمره بدعوة الخلق ، ولم يأمره ، وأن الله
أباح له دماء من خالفه ، وأموالهم ونساءهم ، وهو مع ذلك ، يصدقه بإقراره
وبفعله ، فيؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة ، والآيات الظاهرة ، وينصره ،
ويحذله من خالفه وعاداه ، فأى شهادة أ كبر من هذه الشهادة !!

وقوله [وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ] أى وأوحى الله
إلى هذا القرآن ، لمنفعتكم ومصالحكم ، لأنذركم به من العقاب الأليم .

والنذارة ، إنما تكون بذكر ما ينذرهم به ، من الترغيب ، والترهيب ،
وبيان الأعمال ، والأقوال الظاهرة والباطنة ، التي من قام بها ، فقد
قبل النذارة .

فهذا القرآن ، فيه النذارة لكم ، أيها المخاطبون ، وكل من بلغه القرآن
إلى يوم القيامة ، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية .

لما بين تعالى شهادته ، التي هي أ كبر الشهادات على توحيده ، قال :

قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِّىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ

قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله ، والمكذبين لرسله [أننكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد] .

أى : إن شهدوا ، فلا تشهد معهم .

فوازن بين شهادة أصدق القائلين ، ورب العالمين ، وشهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة ، على توحيد الله ، وحده لا شريك له ، وشهادة أهل الشرك ، الذين مرجت^(١) عقولهم وأديانهم ، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم ، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء .

بل خالفت شهادتهم فطرحهم ، وتناقضت أقوالهم على إيجاب أن مع الله آلهة أخرى .

مع أنه لا يقوم على ما خالفوه أدنى شبهة ، فضلا عن الحجج .

واختل لنفسك أى الشهاداتين ، إن كنت تعقل .

ونحن نختار لأنفسنا ، ما اختاره الله لنبيه ، الذى أمرنا الله بالاعتداء

به فقال :

[قل إنما هو إله واحد] أى : منفرد ، لا يستحق العبودية والإلهية

سواه ، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير .

[وإِنِّى بَرِّىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ] به ، من الأوثان ، والأنداد ، وكل

ما أشرك به مع الله .

(١) مرجت أى : أصاب عقولهم اختلاط وامتزجت عقولهم التي

أفسدها العناد بأديانهم الباطلة .

عَاتَيْتَهُمْ أَلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

فهذا حقيقة التوحيد ، إثبات الإلهية لله وفيها عما عداه .

* لما بين شهادته ، وشهادة رسوله على التوحيد ، وشهادة المشركين ،
الذين لا علم لديهم على ضده ، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

[يعرفونه] أى : يعرفون صحة التوحيد [كما يعرفون آبائهم] .

أى : لا شك عندهم فيه ، بوجه ، كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم ،
خصوصاً البنين للملازمين فى الغالب لآبائهم .

ويحتمل أن الضمير ، عائد إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن
أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ، ولا يمترون بها ، لما عندهم
من البشارات به ، ونعوته التى تنطبق عليه ، ولا تصلح لغيره .
والعنيان متلازمان .

قوله [الذين خسروا أنفسهم] أى : فوتوها ما خلقت له ، من الإيمان
والتوحيد ، وحرموها الفضل من الملك المجيد [فهم لا يؤمنون] .

فإذا لم يوجد الإيمان منهم ، فلا تسأل عن الخسار والشر ، الذى
يحصل لهم .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿٢١﴾

أى : لا أعظم ظلاماً وعناداً ، ممن كان فيه أحد الوصفين ، فكيف لو اجتمعا ، افتراء الكذب على الله ، أو التكذيب بآياته ، التي جاءت بها المرسلون ، فإن هذا ، أظلم الناس ، والظالم لا يفلح ابداً .

ويدخل في هذا ، كل من كذب على الله ، بادعاء الشريك له والمعين^(١) وزعم أنه ينبغي أن يعبد غيره أو اتخذه صاحبة أو ولداً ، وكل من رد الحق الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم .

(١) قوله « والمعين » هكذا في الأصل الطبع وهو تحريف والصواب (المعين) ولذلك أصلحناها كما ترى بعد أن بحثنا في المعجم فلم نجد (عوين) بمعنى (معين) .

﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ
شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنِّيهِمْ
إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا
عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٤﴾

* يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة وأنهم يسألون ويوبخون
فيقال لهم [أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون] أي إن الله ليس له شريك،
وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء [ثم لم تكن فتنتهم] أي لم يكن
جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم
أنهم ما كانوا مشركين [أنظر] متعجباً منهم ومن أحوالهم .
[كيف كذبوا على أنفسهم] أي كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم
وضرهم - والله - غاية الضرر [وضل عنهم ما كانوا يفترون] من الشركاء
الذين زعموهم مع الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يَجِدُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا
إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٥)

* أى : ومن هؤلاء المشركين ، قوم يحملهم بعض الأوقات ، بعض
الدواعى إلى الاستماع .

ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه ، ولهذا لا ينتفعون بذلك
الاستماع ، لعدم إرادتهم للخير .

[وجعلنا على قلوبهم أكينة] أى : أغطية وأغشية ، لئلا يفقهوا كلام
الله ، فسان كلامه عن أمثال هؤلاء .

[وفي آذانهم] جعلنا [وقراً] أى : صمماً ، فلا يستمعون ما ينفعهم .
[وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها] ، وهذا غاية الظلم والعناد ، أن
الآيات البينات الدالة على الحق ، لا ينقادون لها ، ولا يصدقون بها ، بل
يجادلون بالباطل ، ليدحضوا به الحق .

ولهذا قال : [حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا
إلا أساطير الأولين] أى : مأخوذ من صحف الأولين المسطورة ، التي
ليست عن الله ، ولا عن رسله .

وهذا من كفرهم ، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب الحاوى لأنباء
السابقين واللاحقين ، والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون ، والحق ،
والتسط ، والعدل التام ، من كل وجه ، أساطير الأولين .

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْوَنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا

أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ

* وهم: أى المشركون بالله ، المكذبون لرسوله ، يجمعون بين الضلال والإضلال .

ينهون الناس عن اتباع الحق ، ويحذرونهم منه ، ويبعدون بأنفسهم عنه .
ولن يضرُوا الله ولا عباده المؤمنين ، بفعالهم هذا ، شيئاً .
[إن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون] بذلك .

* يقول تعالى — مخبراً عن حال المشركين يوم القيامة ، وإحضارهم النار .
[ولو ترى إذ وقفوا على النار] ليوبخوا ويقرعوا ، لرأيت أسراً هائلاً ،
وحالاً مفضلة .

ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق ، وتمنوا أن لو
يردون إلى الدنيا .

[فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين .
بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل] .

وَلَا تُكَدِّبْ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ
لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم ، أنهم كانوا كاذبين . ويبدو في قلوبهم ،
في كثير من الأوقات .

ولكن الأغراض الفاسدة ، صدتهم عن ذلك ، وصدفت ^(١) قلوبهم
عن الخير ، وهم كذبة في هذه الأمنية وإنما قصدهم ، أن يدفعوا بها عن
أنفسهم العذاب .

[ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون] .

[وقالوا] منكرين للبعث [إن هي إلا حياتنا الدنيا] أي : ما حقيقة
الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا ، إلا الحياة الدنيا وحدها .
[وما نحن بمبعوثين] .

(١) صدفت : أي : صرفت .

﴿٣٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا
بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿٣١﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ
السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

* أى : [ولو ترى] الكافرين [إذ وقفوا على ربهم] رأيت أمماً
عظيماً ، وهو لا جسيماً .

[قال] لهم موبخاً ومقرعاً [أليس هذا] الذى ترون من العذاب
[بالحق ؟ قالوا بلى وربنا] فأقروا ، واعترفوا ، حيث لا ينعهم ذلك .
[قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون] .

* أى : قد خاب وخسر ، وحرم الخير كله ، من كذب بقاء الله ،
فأوجب له هذا التكذيب ، الاجترار على المحرمات ، واقتراف الموبقات .
[حتى إذا جاءتهم الساعة] وهم على أقبح حال وأسوأه ، فأظهروا
غاية الندم .

[وقالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها] ولكن هذا تحسر ذهب وقته .
[وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم إلا ساء ما يزرُونَ] .

فإن وزرهم وزر ، يشقلهم ، ولا يقدرُونَ على التخلص منه ، ولهذا
خلدوا فى النار ، واستحقوا التأبيد فى غضب الجبار .

﴿٣٢﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهَوٌ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ

خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٢﴾

* أما حقيقة الدنيا : فإنها لعب وهو ، لعب في الأبدان ، وهو في القلوب .

فالقلوب لها ، والهة ، والنفوس لها ، عاشقة ، والهوموم فيها متعلقة ،
والاشتغال بها ، كعيب الصبيان .

وأما الآخرة ، فإنها [خير للذين يتقون] في ذاتها وصفاتها ،
وبقائها ودوامها .

وفيها ما تشبیه الأنفس ، وتلذ الأعين ، من نعيم القلوب والأرواح ،
وكثرة السرور والأفراح .

ولكنها ليست لكل أحد ، وإيمانها للمتقين ، الذين يفعلون أوامر الله ،
ويتركون نواهيه وزواجره .

[أفلا تعقلون] أي : أفلا يكون لكم عقل ، بها تدركون ، أي
الدارين أحق بالإثارة .

﴿٣٣﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا
حَتَّىٰ آتَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلٍ لِّكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن
نَّبَايِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِن

* أى : قد نعلم أن الذى يقول المكذبون فيك ، يحزنك ويسوءك .

ولم نأمرك بما أمرناك به من الصبر ، إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال العالية .

فلا تظن أن قولهم ، صادر عن اشتباه في أمرك ، وشك فيك .

[فإنهم لا يكذبونك] لأنهم يعرفون صدقك ، ومدخلك ومخرجك ،
وجميع أحوالك ، حتى إنهم كانوا يسمونه — قبل بعثته — الأمين .

ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون [أى : فإن تكذيبهم لآيات الله ،
التي جعلها الله على يدك .

[ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأودوا حتى
أتاهم نصرنا] .

فاصبر كما صبروا ، تظفر كما ظفروا .

[ولقد جاءك من نبي المرسلين] ما به يثبت فؤادك ، ويطمئن

به قلبك .

أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ
بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

[وإن كان كبر عليك إعراضهم] أى : شق عليك ، من حرصك عليهم ، ومحبتك لإيمانهم ، فابذل وسعك فى ذلك ، فليس فى مقدورك ، أن تهدى من لم يرد الله هدايته .

[فإن استطعت أن تبغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتهم بآية] .

أى : فافعل ذلك ، فإنه لا يفيدهم شيئا .

وهذا قطع لطمعه فى هداية أشباه هؤلاء المعاندين .

[ولو شاء الله لجمعهم على الهدى] ولكن حكمته تعالى ، اقتضت أنهم يبقون على الضلال .

[فلا تكونن من الجاهلين] الذين لا يعرفون حقائق الأمور ، ولا ينزلونها على منازلها .

﴿٣٦﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ
ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : [إنما يستجيب] لدعوتك ،
ويبلي رسالتك ، وينقاد لأمرك ونهيك [الذى يسمعون] بقلوبهم ، ما ينفعهم
وهم أولو الألباب والأسماع .

والمراد بالسمع هنا : سماع القلب والاستجابة ، وإلا فجرد سماع الأذن ،
يشارك فيه البر والفاجر .

فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى ، باستماع آياته ، فلم يبق
لهم عذر ، فى عدم القبول .

[والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون] يحتمل أن المعنى ، مقابل
للمعنى المذكور .

أى : إنما يستجيب لك ، أحياء القلوب وأما أموات القلوب ، الذين
لا يشعرون بسعادتهم ، ولا يحسون بما ينجيهم ، فإنهم لا يستجيبون ذلك ،
ولا يتقادون ، وموعدهم يوم القيامة ، يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون .

ويحتمل أن المراد بالآية ، على ظاهرها ، وأن الله تعالى يقرر المعاد ،
وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون .

ويكون هذا ، متضمناً للترغيب فى الاستجابة ، لله ورسوله ، والترهيب
من عدم ذلك .

[وقالوا] أى : المكذبون بالرسول ، تعنتاً وعناداً : [لولا نزل عليه
آية من ربه .

قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٧﴾

يعنون بذلك ، آيات الاقتراح ، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة ،
وآرائهم الكاسدة .

كقولهم [وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا .
أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط
السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً] الآيات .
[قل] بحجبتهم : [إن الله قادر على أن ينزل آية] فليس في قدرته
قصور عن ذلك .

كيف ، وجميع الأشياء منقادة لعزته ، مذعنة لسلطانه ؟ !

[ولكن أكرمهم لا يعلمون] فهم - لجهلهم وعدم علمهم - يطلبون
ما هو شر لهم من الآيات ، التي لو جاءتهم ، فلم يؤمنوا بها - لعوجوا
بالعقاب ، كما هي سنة الله ، التي لا تبديل لها .

ومع هذا ، فإن كان قصدهم ، الآيات التي تبين لهم الحق ، وتوضح
السبيل .

فقد أتى محمد صلى الله عليه وسلم ، بكل آية قاطعة ، وحجة ساطعة ، دالة
على ما جاء به من الحق ، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين ،
أن يجد فيما جاء به ، عدة أدلة عقلية وثقلية ، بحيث لا تبقى في القلوب ، أدنى
شك وارتياب .

فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وأيده بالآيات البينات
ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيي من حي بينة ، وإن الله لسميع عليم .

﴿٣٨﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ
إِلَّا أُمَّةٌ أَمْثَالُكُمْ مَا قَرَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾

* أى: جميع الحيوانات ، الأرضية والهوائية ، من البهائم والوحوش ،
والطيور ، كلها أمم أمثالكم [خلقناها كما خلقناكم ، ورزقناها كما رزقناكم
ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا ، كما كانت نافذة فيكم .

[ما فرطنا في الكتاب من شيء] أى : ما أهملنا ولا أغفلنا ، في
اللوحة المحفوظ ، شيئا من الأشياء .

بل جميع الأشياء ، صغيرها ، وكبيرها ، مثبتة في اللوح المحفوظ ، على
ماهى عليه .

فتقع جميع الحوادث ، طبق ما جرى به القلم .
وفي هذه الآية ، دليل على أن الكتاب الأول ، قد حوى جميع
الكائنات .

وهذا أحد مراتب القضاء والقدر ، فإنها أربع مراتب .
علم الله الشامل ، لجميع الأشياء ، وكتابه المحيط بجميع الموجودات ،
ومشيئته وقدرته العامة النافذة في كل شيء ، وخلقته لجميع المخلوقات ، حتى
أفعال العباد .

ويحتمل أن المراد بالكتاب ، هذا القرآن ، وأن المعنى كالمعنى في قوله
تعالى [ونزلنا عليك الكتاب تبينا لكل شيء] .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾
﴿ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَن يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿٣٩﴾

وقوله [ثم إلى ربهم يحشرون] أى : جميع الأمم تجمع وتحشر إلى الله
في موقف القيامة ، في ذلك الموقف العظيم الهائل .

فيجازيهم بعدله وإحسانه ، ويمضى عليهم حكمه الذى يحمده عليه
الأولون والآخرون ، أهل السماء وأهل الأرض .

* هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله ، المكذبين لرسله ، أنهم قد سدوا
على أنفسهم باب الهدى ، وفتحوا باب الردى .

وأنهم [صم] عن سماع الحق [وبكم] عن النطق به ، فلا ينطقون
إلا بالباطل .

[فى الظلمات] أى : منغمسون فى ظلمات الجهل ، والكفر ، والظلم ،
والعناد ، والمعاصى .

وهذا من إضلال الله إياهم ، فإنه [من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله
على صراط مستقيم] لأنه المنفرد بالهداية والإضلال ، بحسب ما اقتضاه
فضله وحكمته .

﴿٤٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ
السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ
فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴿٤١﴾

* يقول تعالى لرسوله : (قل) للمشركين بالله ، العادلين به غيره :

(أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

أى . إذا حصلت هذه المشقات ، وهذه الكروب ، التي يضطر إلى دفعها ، هل تدعون آلهتكم وأصنامكم ، أم تدعون ربكم الملك الحق المبين .

(بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون)

فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد ، تنسونهم ، لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً .

وتخلصون لله الدعاء ، لعلمكم أنه هو الضار النافع ، الجيب لدعوة المضطر .

فما بالكم في الرخاء ، تشركون به ، وتجعلون له شركاء ؟ .

هل دلكم على ذلك ، عقل أو نقل ، أم عندكم من سلطان بهذا .

أم تفترون على الله الكذب ؟

﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا
وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا
فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ

* يقول تعالى : [ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك] من الأمم السالفة ،
والتقرون للتقدمين ، فكذبوا رسلنا ، وجحدوا بآياتنا .
[فأخذناهم بالأساء والضراء] أى : بالفقر والمرض والآفات ، والمصائب ،
رحمة منا بهم .

[لعلمهم يتضرعون] إلينا ، ويلجأون عند الشدة إلينا .
[فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم] .
أى : استعجرت فلا تلين للحق .
[وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون] فظنوا أن ما هم عليه ، دين الحق
فتمتعوا فى باطلهم برهة من الزمان ، ولعب بعقولهم الشيطان .
[فلما نسوا ما ذكروا به فتحننا عليهم أبواب كل شيء] من الدنيا
ولذاتها وغفلاتها .

[حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون] .
أى : آيسون من كل خير ، وهذا أشد ما يكون من العذاب ، أن
يؤخذوا على غرة ، وغفلة وطمأنينة ، ليكون أشد لعقوبتهم ، وأعظم
لصيبتهم .

دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ

[فقطع دابر القوم الذين ظلموا] أى اصطلموا بالعذاب ، وتقطعت بهم الأسباب .

[والحمد لله رب العالمين] على ما قضاؤه وقدره ، من هلاك المكذبين .
فإن بذلك ، تتبين آياته ، وإكرامه لأوليائه ، وإهانته لأعدائه ، وصدق ما جاءت به المرسلون .

* يخبر تعالى ، أنه كما هو المتفرد بخلق الأشياء وتدبيرها ، فإنه المنفرد بالوحدانية والإلهية فقال :

[قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم] فبقيتم بلا سمع ولا بصر ولا عقل [من إله غير الله يأتيكم به] .
فإذا لم يكن غير الله ، يأتى بذلك ، فلم عبدتم معه من لا قدرة له على شيء إلا إذا شاء الله .

وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك ، ولهذا قال : [انظر كيف نصرف الآيات] .

أى : نوعها ، ونأتى بها فى كل فن ، ولتنوير الحق ، وتستبين سبيل المجرمين .

[ثم هم] مع هذا البيان التام [يصدفون] عن آيات الله ، ويعرضون عنها .

بَفْتَةٍ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٧﴾
﴿٤٨﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ
ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسِّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴿٤٩﴾

[قل أرأيتمكم] أى : أخبرونى [إن أتاكم عذاب الله بفتة أو جهرة]
أى : مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات ، تعلمون بها وقوعه .
[هل يهلك إلا القوم الظالمون] الذين صاروا سببا لوقوع العذاب
بهم ، بظلمهم وعنادهم .

فاحذروا أن تقيموا على الظلم ، فإنه الهلاك الأبدي ، والشقاء السرمدى
* يذكر تعالى ، زبدة ما أرسل به المرسلين ، أنه البشارة والندارة ،
وذلك مستلزم لبيان البشر والمبشر به والأعمال التى إذا عملها العبد ، حصلت
له البشارة .

والمندّر والمندّر به ، والأعمال التى من عملها ، حقت عليه الندارة .
ولكن الناس انقسموا — بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها —
إلى قسمين .

[فمن آمن وأصلح] أى : آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله
واليوم الآخر ، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته [فلا خوف عليهم] فيما يستقبل
[ولا هم يحزنون] على ما مضى .

[والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب] أى : ينالهم ، ويذوقونه
[بما كانوا يفسقون] .

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ
الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ آ إِلَىٰ
قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿﴾

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم؛ أن يخاطب المقترحين عليه الآيات
أو القائلين له : إنما تدعوننا لتتخذك إلهاً مع الله .

[ولا أقول لكم عندي خزائن الله] أى : مفاتيح رزقه ورحمته .

[ولا أعلم الغيب] وإنما ذلك كله عند الله .

فهو الذى [ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل

له من بعده] وهو — وحده — عالم الغيب والشهادة .

(فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) .

[ولا أقول لسكم إنى ملك] فأكون نافذ التصرف قوياً ، فليست أدعى

فوق منزلتى ، التى أنزلنى الله بها .

[إن أتبع إلا ما يوحى إلى] أى : هذا غايى ومنتهى أمرى وأعلاه ،

لا أتبع إلا ما يوحى إلى ، فأعمل به فى نفسى ، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك .

فإذا عرفت منزلتى ، فلأى شىء يبحث الباحث معى ، أو يطلب منى

أمراً لست أدعيه . وهل يلزم الإنسان ، بغير ما هو بصده ؟ .

ولأى شىء — إذا دعوتكم ، بما يوحى إلى — تزمونى أنى أدعى

لنفسى غير مرتبى . وهل هذا ، إلا ظلم منكم ، وعناد ، وتمرد ؟

قل — لهم فى بيان الفرق ، بين من قبل دعوتى ، واثقاد لما أوحى إلى

وبين من لم يكن كذلك — [قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تفكرون]

فتنزولون الأشياء منازلها ، وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار ؟

﴿٥١﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِليٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَعْتَقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ

* هذا القرآن ، نذارة للخلق كلهم ، ولكن إنما ينتفع به [الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم] .

فهم متيقنون للانتقال ، من هذه الدار ، إلى دار القرار ، فذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدعون ما يضرهم .

[ليس لهم من دونه] أى : من دون الله [ولى ولا شفيع] أى : لا من يتولى أمرهم ؛ فيحصل لهم المطلوب ، ويدفع عنهم المحذور ، ولا من يشفع لهم ، لأن الخلق كلهم ، ليس لهم من الأمر شئ .

[لعلمهم يتقون] الله بامثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فإن الإنذار موجب لذلك ، وسبب من أسبابه .

[ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه] .

أى : لا تطرد عنك ، وعن مجالستك ، أهل العبادة والإخلاص ، رغبة في مجالسة غيرهم ، من الملازمين لدعاء ربهم ، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها ، ودعاء المسألة ، فى أول النهار وآخره ، وهم قاصدون بذلك ، وجه الله ، ليس لهم من الأغراض ، سوى ذلك الغرض الجليل .

فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم ، بل هم مستحقون لموالاتك إياهم ومحبتهم ، وإدنائهم ، وتقريبهم ، لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء ، والأعزاء — فى الحقيقة — وإن كانوا — عند الناس — أذلاء .

مِّنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ
الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ
مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ يَّبِينَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا

[ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء]
أى : كل له حساب ، وله عمله الحسن ، وعمله القبيح .

[فطردهم ، فتكون من الظالمين] وقد امتثل صلى الله عليه وسلم هذا
الأمر ، أشد امتثال .

[فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين ، صبر نفسه معهم ، وأحسن
معاملتهم ، وألان لهم جانبه ، وحسن خلقه ، وقربهم منه ، بل كانوا هم ،
أكثر أهل مجلسه رضى الله عنهم .

وكان سبب نزول هذه الآيات ، أن أناساً من قريش ، أو من أجلاف
العرب ، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أردت أن تؤمن لك وتنبعك ،
فاطرد فلانا وفلانا ، أناساً من فقراء الصحابة ، فإننا نستحي أن ترانا العرب
جالسين مع هؤلاء الفقراء .

فحمله حبه لإسلامهم ، واتباعهم له ، فخدمته نفسه بذلك .
فغابته الله بهذه الآية ونحوها .

[وكذلك فتنا بعضهم ببعض ، ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم
من بيننا] .

أى : هذا ، من ابتلاء الله لعباده ، حيث جعل بعضهم غنياً ؛ وبعضهم
فقيراً ، وبعضهم شريفاً ، وبعضهم وضيعاً .

جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ
عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن

فإذا من الله بالإيمان على الفقير ، أو الوضيع ؛ كان محل محنة
للغنى والشريف .

فإن كان قصده الحق واتباعه ، آمن ، وأسلم ، ولم يمنعه من ذلك ؛
مشاركه الذى يراه دونه ، بالغنى ، أو الشرف .

وإن لم يكن صادقاً فى طلب الحق ، كانت هذه ، عقبة ترده عن
اتباع الحق .

وقالوا - محققين لمن يرونهم دونهم - : [أهؤلاء من الله عليهم
من بيننا] .

فنعهم هذا ، من اتباع الحق ، لعدم زكائهم .

قال الله - مجيباً لكلامهم ، المتضمن ، الاعتراض على الله فى هداية
هؤلاء ، وعدم هداية الله إياهم ^(١) .

[أليس الله بأعلم بالشاكرين] الذين يعرفون النعمة ، ويقرون بها ،
ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح ، فيضع فضله ومنته عليهم ، دون من
ليس بشاكر .

(١) فى الأصل المطبوع (وعدم هدايتهم هم) وهو خطأ تأباه القواعد
النحوية ، لذلك أصلحنا العبارة كما ترى لتمشى العبارة على القواعد النحوية
لأن (هم) ضمير منفصل مختص بالرفع وكلمة (هداية) مصدر مضاف لفاعله ،
والمفعول به هنا ضمير ، فيتعين أن يكون كلمة (إياهم) المختصة بالنصب .

بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نَفَصَّلُ الْآيَاتِ
وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

فإن الله تعالى حكيم ، لا يضع فضله ، عند من ليس له أهل .
وهؤلاء ، المعترضون بهذا الوصف .

بخلاف من مع الله عليهم ، بالإيمان ، من الفقراء وغيرهم فإنهم هم
الشاكرون .

ولما نهى الله رسوله ، عن طرد المؤمنين القانتين ، أمره بمقابلتهم
بالإكرام والإعظام ، والتبجيل والاحترام ، فقال :

[وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم] .

أى : وإذا جاءك المؤمنون ، فحببهم ، ورحب بهم ولقهم منك تحية
وسلاماً ، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم ، من رحمة الله ، وسعة جوده
وإحسانه ، وحبهم على كل سبب وطريق ، يوصل لذلك .
ورهبهم من الإقامة على الذنوب ، وأمرهم بالتوبة من المعاصي ،
لينالوا مغفرة ربهم وجوده .

ولهذا قال : [كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً
بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح] .

أى : فلا بد مع ترك الذنوب ، والإقلاع ، والندم عليها ، من إصلاح
العمل ، وأداء ما أوجب الله ، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة
والباطنة .

فاذا وجد ذلك كله [فإنه غفور رحيم] أى : صب عليهم من مغفرته
ورحمته ، بحسب ما قاموا به ، بما أمرهم به .

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قُلْ لَا آتِبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

[وكذلك فصل الآيات] أى : نوضحها ونبينها ، ونميز بين طريق الهدى من الضلال ، والغى والرشاد ، ليهتدى بذلك المهتدون ، ويتبين الحق الذى ينبغى سلوكه .

ولتستبين سبيل الجرمين [الموصلة إلى سخط الله وعذابه .

فإن سبيل الجرمين إذا استبان واتضحت ، أمكن اجتنابها ،
والبعد منها .

بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة ، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل .

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : [قل] لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى .

[إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله] من الأنداد والأوثان ، التى لا تملك نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

فإن هذا باطل ، وليس لكم فيه حجة ولا شبهة ، إلا اتباع الهوى الذى اتباعه أعظم الضلال .

ولهذا قال [قل لا اتبع أهواءكم قد ضللت إذا] أى : إن اتبع أهواءكم [وما أنا من المهتدين] بوجه من الوجوه .

وأما ما أنا عليه ، من توحيد الله ، وإخلاص العمل له ، فإنه هو الحق الذى تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة .

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ

وأنا [على بينة من ربي] أي: على يقين مبين، بصحته، وبطلان ما عداه.

وهذه شهادة من الرسول جازمة، لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود على الإطلاق.

فصدق بها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها، بحسب ما من الله به عليهم.

[و] لكنكم أيها الشركون - [كذبتُم به] وهو لا يستحق هذا منكم، ولا يليق به إلا التصديق.

وإذا استمررتُم على تكذيبكم، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة وهو عند الله، هو الذي ينزله عليكم، إذا شاء، وكيف شاء.

وإن استعجلتم به، فليس بيدي من الأمر شيء [إن الحكم إلا لله].

فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي، فأمر ونهى، فإنه سيحكم بالحكم الجزائي، فيثيب ويعاقب، بحسب ما تقتضيه حكمته.

فلا اعتراض على حكمه مطلقاً، مدفوع وقد أوضح السبيل، وقص على عباده الحق قصاً، قطع به معاذيرهم، وانقطعت له حججهم.

ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة

[وهو خير الفاصلين] بين عباده، في الدنيا والآخرة فيفصل بينهم

فصلاً، يحمده عليه، حتى من قضى عليه، ووجه الحق نحوه.

إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ
عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

[قل] للمستعجلين بالمذاب ، جهلاً و عناداً وظلماً .

[لو أن عندى ما تستعجلون به لطفى الأمر بينى وبينكم] فأوقفته بكم ،
ولا خير لكم فى ذلك .

ولكن الأمر ، عند الحليم الصبور ، الذى يعصيه العاصون ، ويتجرأ
عليه المتجربون ، وهو يعاقبهم ، ويرزقهم ، ويسدى إليهم نعمه ^(١) ، الظاهرة
والباطنة .

[والله أعلم بالظالمين] لا يخفى عليه من أحوالهم شىء ، فيهملهم
ولا يهملهم .

(١) فى الأصل المطبوع (ويسدى عليهم إلخ) خطأ نحوي لأن أسدى
يعمدى بـ « إلى » لا بـ « على » فلذلك أصلحنا العبارة بـ « أسدى إليهم »
ولو عبر بـ « يسبق عليهم إلخ » لكان أجمل وأبلغ .

وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ
مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ
الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

* هذه الآية العظيمة ، من أعظم الآيات تفصيلا ، لعلمه المحيط ، وأنه شامل للغيوب كلها ، التي يطلع منها ما شاء من خلقه .

وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين ، والأنبياء المرسلين ، فضلا عن غيرهم من العالمين .

وأنه يعلم ما في البراري والتقفار ، من الحيوانات ، والأشجار ، والرمال والحصى ، والتراب .

وما في البحار ، من حيوانات ، ومعادنها ، وصيدها ، وغير ذلك ، مما تحويه أرجاؤها ، ويشتمل عليه ماؤها .

[وما تسقط من ورقة] من أشجار البر والبحر ، والبلدان والقفر ، والدنيا والآخرة ، إلا يعلمها .

[ولا حبة في ظلمات الأرض] من حبوب الثمار والزروع ، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق ؛ وبذور النباتات البرية التي ينشأ منها أصناف النباتات .

[ولا رطب ولا يابس] هذا عموم بعد خصوص [إلا في كتاب مبين] وهو اللوح المحفوظ ، قد حواها ، واشتمل عليها .

وبعض هذا المذكور ، يبهر عقول العقلاء ، ويذهل أفئدة النبلاء .

فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته ، في أوصافه كلها .

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ
بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ

وأن الخلق - من أولهم إلى آخرهم - لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته ، لم يكن لهم قدرة ، ولا وسع في ذلك .

فتبارك الرب العظيم ، الواسع ، العليم ، الحميد المجيد ، الشهيد ، المحيط .
وجل من إله ، لا يحصى أحد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ،
وفوق ما يثني عليه عباده .

فهذه الآية ، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء ، وكتابه المحيط ،
بجميع الحوادث .

* هذا كله ، تقرير لإلهيته ، واحتجاج على المشركين به ، وبيان أنه
تعالى المستحق للحب والتعظيم ، والإجلال والإكرام .

فأخبر أنه وحده ، المتفرد بتدبير عباده ، في يقظتهم ومنامهم ، وأنه
يتوفاهم بالليل ، وفاة النوم ، فتهدأ حركاتهم ، وتستريح أبدانهم .

ويبعثهم في اليقظة من نومهم ، ليتصرفوا في مصالحهم الدنيوية والدينيوية .
وهو - تعالى - يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال .

ثم لا يزال تعالى هكذا ، يتصرف فيهم ، حتى يستوفوا آجالهم .
فيقضى بهذا التدبير ، أجل مسمى ، وهو : أجل الحياة ، وأجل آخر

فيما بعد ذلك ، وهو البعث بعد الموت ، ولهذا قال :

[ثم إليه مرجعكم] لا إلى غيره [ثم ينبئكم بما كنتم تعملون] من

خير وشر .

ثُمَّ مِيْنَبِّئْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ
وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ

[وهو] تعالى [القاهر فوق عباده] ينفذ فيهم إرادته الشاملة ،
ومشيئته العامة .

فليسوا يملكون من الأمر شيئاً ، ولا يتحركون ، ولا يسكنون
إلا بإذنه .

ومع ذلك ، فقد وكل بالعباد ، حفظة من الملائكة ، يحفظون عليه ما عمل
كما قال تعالى :

[وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تعملون] « عن
اليمين وعن الشمال قعيد » ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد] .

فهذا حفظة لهم في حال الحياة .

[حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا] أى الملائكة الوكولون
بقبض الأرواح .

[وهم لا يفرطون] فى ذلك ، فلا يزيدون ساعة مما قدره الله وقضاه ،
ولا ينقصون ، ولا ينفذون من ذلك ، إلا بحسب المراسيم الإلهية ،
والتقادير الربانية .

[ثم] بعد الموت والحياة البرزخية ، وما فيها من الخير والشر [ردوا
إلى الله مولاهم الحق] أى : الذى تولاهم بحكمه القدرى ، فنفذ فيهم ما شاء
من أنواع التدبير .

ثم تولاهم بأمره ونهييه ، وأرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب .

رَسَلْنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَىٰ آلِهِ مَوْلَهُمْ أَحَقُّ
أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾

ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء ، ويشيهم على ما عملوا ، من
الخيرات ، ويعاقبهم على الشرور والسيئات ، ولهذا قال :

[ألا له الحكم] وحده لا شريك له (وهو أسرع الحاسبين) لكمال
علمه وحفظه لأعمالهم ، بما أثبتته في اللوح المحفوظ ، ثم أثبتته ملائكته في
الكتاب ، الذي بأيديهم .

فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير ، وهو القاهر فوق عباده ،
وقد اعتنى بهم كل الاعتناء ، في جميع أحوالهم وهو الذي له الحكم القدرى ،
والحكم الشرعى ، والحكم الجزائى ، فأين للمشركين ، العدول عن من
هذا وصفه ونعته ، إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء ، ولا عنده مثقال
ذرة من النفع ، ولا له قدرة وإرادة ؟!

أما والله لو علموا حلم الله عليهم ، وعفوه ورحمته بهم ، وهم يبارزونهم
بالشرك والكفران ، ويتجرأون على عظمتهم بالإفك والبهتان ، وهو يعاقبهم
ويرزقهم لا تجذبت ، دواعيهم إلى معرفته ، وذهلت عقولهم في حبه .

ولمقتوا أنفسهم أشد المقت ، حيث انقادوا لداعى الشيطان ، الموجب
للخزى والخسران ، ولكنهم قوم لا يعقلون .

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ
تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٦٣﴾
﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٣﴾

* أى : [قل] للمشركين بالله ، الداعين معه آلهة أخرى ، ملزما لهم
بما أمتوتوه من توحيد الربوبية ، على ما أنكروه من توحيد الإلهية .

[من ينجيكم من ظلمات البر والبحر] أى : شدائدها ومشقاتها ، وحين
يتعذروا أو يتعسر عليكم ، وجه الحيلة ، فتدعون ربكم تضرعا ، بقلب خاضع ،
ولسان لا يزال يلهج بحاجته فى الدعاء ، وتقولون — وأنتم فى تلك الحال :

[لئن أنجانا من هذه] الشدة التى وقعنا فيها [لنكونن من الشاكرين]
لله أى المعترفين بنعمته ، الواضعين لها فى طاعة ربهم ، الذين حفظوها عن أن
يبدلوها فى معصيته .

[قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب] أى من هذه الشدة الخاصة ،
ومن جميع الكروب العامة .

[ثم أنتم تشركون] لا تفون لله بما قلتم ، وتنسون نعمه عليكم .

فأى : برهان أوضح من هذا ؛ على بطلان الشرك ، وصحة التوحيد؟!!

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ
فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ
بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾
وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾
لَّكُلِّ تَبَاءٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

* أى : هو تعالى ؛ قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة .
[من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم] أى : يخالطكم
[شيعة ويذيق بعضهم بأس بعض] أى : فى الفتنة ، وقتل بعضهم بعضاً .
فهو قادر على ذلك كله ، فاحذروا من الإقامة على معاصيه ، فيصيبكم
من العذاب ، ما يتلفكم ويمحقكم ، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك .
ولسكن من رحمته ، أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم ،
والحصب ، ونحوه ، ومن تحت أرجلهم ؛ بالخسف .
ولكن عاقب من عاقب منهم ، بأن أذاق بعضهم بأس بعض ، وسلط
بعضهم على بعض بهذه العقوبات المذكورة ، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون ،
ويشعر بها العاملون .
[انظر كيف نصرف الآيات] أى ننوعها ، ونأتى بها على أوجه كثيرة
وكلها دالة على الحق .
[لعلهم يفقهون] أى : يفهمون ما خلطوا من أجله ، ويفقهون الحقائق
الشرعية ، والمطالب الإلهية .
[وكذب به] أى : بالقرآن [قومك وهو الحق] الذى لا مزية فيه ،
ولا شك يعتريه .

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ

[قل لست عليكم بوكيل] أحفظ أعمالكم ، وأجازيكم عليها ، وإِنَّمَا
أنا منذر ومبلغ .

[لكل نبأ مستقر] أى : وقت يستقر فيه ، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

[وسوف تعلمون] ما توعدون به من العذاب .

المراد بالخوض فى آيات الله : التكلم بما يخالف الحق ، من تحسين القالات
الباطلة ، والدعوة إليها ، ومدح أهلها ، والإعراض عن الحق ، والقدح فيه
وفى أهله

فأمر الله رسوله أصلاً ، وأُمَّته تبعاً ، إذا رأوا من يخوض بآيات الله
بشيء مما ذكر ، بالإعراض عنهم ، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل
والاستمرار على ذلك ، حتى يكون البحث والخوض فى كلام غيره .

فإذا كان فى كلام غيره ، زال النهى المذكور .

فإن كان مصلحة ، كان مأموراً به ، وإن كان غير ذلك ، كان غير
مفيد ولا مأمور به .

وفى ذم الخوض بالباطل ، حث على البحث ، والنظر ، والمناظرة بالحق .

ثم قال : [وإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ] أى : بأن جلست معهم ، على وجه

النسيان والغفلة .

بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ
حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

[فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين] يشمل الخائضين بالباطل ،
وكل متكلم بمحرم ، أو فاعل لمحرم ، فإنه يحرم الجلوس والحضور ، عند
حضور المنكر ، الذى لا يقدر على إزالته .

هذا النهى والتحریم ، لمن جلس معهم ، ولم يستعمل تقوى الله ، بأن
كان يشاركهم فى القول والعمل المحرم ، أو يسكت عنهم ، وعن الإنكار .
فإن استعمل تقوى الله تعالى ، بأن كان يأمرهم بالخير ، وينهاهم عن الشر
والكلام الذى يصدر منهم ، فيترتب على ذلك زواله وتخفيفه — فهذا ليس
عليه حرج ولا إثم ، ولهذا قال :

[وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكراً لعلهم
يتقون] .

أى : ولكن ليدركهم ، ويعظهم ، لعلهم يتقون الله تعالى .
وفى هذا دليل على أنه ينبغى أن يستعمل المذكور من الكلام ، ما يكون
أقرب إلى حصول مقصود التقوى .

وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ ، مما يزيد الموعوظ شراً
إلى شره ، كان تركه هو الواجب ، لأنه إذا ناقض المقصود ، كان تركه
مقصوداً .

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ

* المقصود من العباد ، أن يخلصوا لله الدين ، بأن يعبدوه وحده لا شريك
له ، ويبدلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه .

وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه ، وكون سعى العبد
نافعاً ، وجداً ، لا هزلاً ، وإخلاصاً لوجه الله ، لا رياء ولا سمعة .

هذا هو الدين الحقيقي ، الذي يقال له دين .

فأما من زعم أنه على الحق ، وأنه صاحب دين وتقوى ، وقد اتخذ دينه
لعباً ولهواً .

بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته ، وأقبل على كل ما يضره ، ولها
في باطله ، ولعب فيه بيدنه لأن العمل والسعى إذا كان لغير الله ، فهو لعب .

فهذا ، أمر الله تعالى أن يترك ويحذر ، ولا يفتر به ، وتنظر حاله ،
ويحذر من أفعاله ، ولا يفتر بتعويقه عما يقرب إلى الله .

[وذكر به] أى : ذكر بالقرآن ، ما ينفع العباد ، أمراً ، وتفصيلاً ،
وتحسيناً له ، بذكر ما فيه من أوصاف الحسن ، وما يضر العباد منها عنه ،
وتفصيلاً لأنواعه ، وبيان ما فيه ، من الأوصاف القبيحة الشنيعة ، الداعية
لتركه .

الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا
كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت ، أى : قبل اقتحام العبد للذنوب
وتجروؤه على علام الغيوب ، واستمراره على ذلك المرهوب .

فذكرها ، وعظها ، لترتدع وتنزجر ، وتكف عن فعلها .

وقوله [ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع] أى : قبل أن تحيط بها
ذنوبها ، ثم لا ينفعها أحد من الخلق ، لا قريب ولا صديق ، ولا يتولاها
من دون الله أحد ، ولا يشفع لها شافع .

[وإن تعدل كل عدل] أى : تفتدى بكل فداء ، ولو بملء الأرض
ذهباً [لا يؤخذ منها] أى : لا يقبل ولا يفيد .

[أولئك] الموصوفون بما ذكر [الذين أبلوا] أى : أهلکوا وأيسوا
من الخير ، وذلك [بما كسبوا ، لهم شراب من حميم] أى : ماء حار ،
قد انتهى حره ، يشوى وجوههم ، ويقطع أمعاءهم [وعذاب أليم بما كانوا
يكفرون] .

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا
وَنُرْثُ عَلَىٰ آعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ
فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُثِّتْنَا قُلْ إِنَّ

* [قل] يا أيها الرسول للمشركين بالله ، الداعين معه غيره ، الذين يدعونكم
إلى دينهم ، مبينا وشارحا لوصف آلهتهم ، التي يكتفي العاقل بذكر وصفها ،
عن النهى عنها .

فإن كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين ، جزم ببطلانه ، قبل أن
تقام البراهين على ذلك ، فقال :

[أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا] .

وهذا وصف ، يدخل فيه ، كل من عبد من دون الله ، فإنه لا ينفع
ولا يضر ، وليس له من الأمر شيء ، إن الأمر إلا لله .

[ونرد على آعقابنا بعد إذ هدانا الله] أي : ونتلب بعد هداية الله لنا
إلى الضلال ، ومن الرشد إلى الغي ، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم ،
إلى الطرق التي تفضي بسالكها إلى العذاب الأليم .

فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد ، وصاحبها [كالذي استهوته الشياطين
في الأرض] أي أضاته وتيهته عن طريقه ومنهجه ، الموصل إلى مقصده .

فبقي [حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى] والشياطين يدعونه إلى
الردى ، فبقي بين الداعين حائراً .

وهذه حال الناس كلهم ، إلا من عصمه الله تعالى ، فإنهم يجدون فيهم

هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنَّ
أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ

جواذب ودواعى متعارضة ، دواعى الرسالة والعقل الصحيح ، والفطرة
المستقيمة .

[يدعون إلى الهدى] والصعود الى أعلى عليين .

ودواعى الشيطان ، ومن سلك مسلكه ، والنفس الأمارة بالسوء ،
يدعونه إلى الضلال ، والنزول إلى أسفل سافلين .

فمن الناس من يكون مع دواعى الهدى ، فى أموره كلها أو أغلبها .
ومنهم من بالعكس من ذلك .

ومنهم من يتساوى لديه الداعيان ، ويتعارض عنده الجاذبان .
وفى هذا الموضع ، تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة .

وقوله : [قل إن هدى الله هو الهدى] أى : ليس الهدى إلا الطريق
التي شرعها الله على لسان رسوله ، وما عداه ، فهو ضلال وردى ، وهلاك .
[وأمرنا لنسلم لرب العالمين] بأن نتقادر لتوحيده ، ونستسلم لأوامره
ونواهيه ، وندخل تحت عبوديته .

فإن هذا ، أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد ، وأكمل تربية
أوصلها إليهم .

[وأن أقيموا الصلاة] أى : وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها
وسننها ومكملاتها .

قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ
وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

[واتقوه] بفعل ما أمر به ، واجتناب ما عنه نهى .

[وهو الذى إليه تحشرون] أى : تجمعون ليوم القيامة ، فيجازيكم
بأعمالكم ، خيرا وشرها .

[وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق] ليأمر العباد وينهاهم ،
ويثيبهم ويعاقبهم .

[ويوم يقول كن فيكون . قوله الحق] الذى لامرية فيه ولا مثنوية ،
ولا يقول شيئا عبثا .

[وله الملك يوم ينفخ فى الصور] أى : يوم القيامة خصه بالذكر — مع
أنه مالك كل شيء — لأنه تنقطع فيه الأملاك ، فلا يبقى ملك إلا الله
الواحد القهار .

[عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير] الذى له الحكمة التامة ،
والنعمة السابغة ، والإحسان العظيم ، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن
والخفايا ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

﴿٧٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ رَأَى أَن تَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَ إِذْ رَأَيْتَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ

* يقول تعالى : واذكر قصة إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، مثنياً عليه ومعظمًا في حال دعوته إلى التوحيد ، ونهيه عن الشرك .

[إذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة] أى : لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء .

[إني أراك وقومك في ضلال مبين] حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئاً ، وتركتهم عبادة خالفكم ، ورازقكم ، ومدبركم .

[وكذلك] حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه [نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض] أى : ليرى ببصيرته ، ما اشتملت عليه ، من الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة [وليكون من الموقنين] .

فإنه بحسب قيام الأدلة ، يحصل له الإيقان ، والعلم التام ، بجميع المطالب . [فلما جن عليه الليل] أى : أظلم [رأى كوكباً] لعله من الكواكب المضيئة ، لأن تخصيصه بالذكر ، يدل على زيادته عن غيره .

ولهذا — والله أعلم — قال من قال : إنه الزهرة .

[قال هذا ربي] أى : على وجه النزول مع الخصم أى : هذا ربي ، فهلم

ننظر ، هل يستحق الربوبية ؟

الْأَفْلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ

وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعامل أن يتخذ إلهه هواه
بغير حجة ولا برهان .

[فلما أفل] أى : غاب ذلك الكوكب [قال لا أحب الأفلين]
أى : الذى يغيب ويختفى عن عبده .

فإن المعبود ، لا بد أن يكون قائماً بمصالح من عبده ، ومدبراً له فى جميع
شئونه .

فأما الذى يمضى وقت كثير وهو غائب ، فمن أين يستحق العبادة؟!
وهل اتخاذه إلهاً إلا من أسفه السنه ، وأبطل الباطل؟!
[فلما رأى القمر بازغاً] أى : طالماً ، رأى زيادته على نور الكواكب
ومخالفته لها [قال هذا ربى] تنزلاً .

[فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين] .
فاقتصر غاية الافتقار إلى هداية ربه ، وعلم أنه إن لم يهده الله ، فلا هادى
له ، وإن لم يعنه على طاعته ، فلا معين له .

[فلما رأى الشمس بازغاً قال هذا ربى هذا أكبر] من الكواكب ومن القمر .
[فلما أفلت] تقرر حينئذ الهدى ، واطمحل الردى [قال يا قوم إنى
برىء مما تشركون] حيث قام البرهان الصادق الواضح ، على بطلانه .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّةُ
قَوْمِهِ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾
وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ

[إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا] أى : لله
وحده ، مقبلا عليه ، معرضاً عن من سواه .
[وما أنا من المشركين] فتبرأ من الشرك ، وأذعن بالتوحيد ، وأقام
على ذلك البرهان .

وهذا الذى ذكرنا فى تفسير هذه الآيات ، هو الصواب .
وهو أن المقام مقام مناظرة ، من إبراهيم لقومه ، وبيان بطلان إلهية
هذه الأجرام العلوية وغيرها .
وأما من قال : إنه مقام نظر فى حال طفوليته ، فليس عليه دليل .

[وحاجه قومه قال : أتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي] أى : أى فائدة
لحاجة من لم يتبين له الهدى ؟
فأما من هداه الله ، ووصل إلى أعلى درجات اليقين ، فإنه - هو بنفسه -
يدعو الناس إلى ما هو عليه .

[ولا أخاف ما تشركون به] فإنها لن تضرنى ، ولن تمنع عنى من
النتع شيئاً .

[إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون]
فتملون أنه - وحده - المعبود المستحق للعبودية .

مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ
بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا

[وكيف أخاف ما أشركتم] وحالها حال العجز ، وعدم النفع ،
ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ، ما لم ينزل به عليكم سلطانا [أى : إلا بمجرد
اتباع الهوى .

[فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون] .

قال الله تعالى فاصلا بين الفريقين [الذين آمنوا ولم يلبسوا]
أى : يخلطوا [إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون] الأمن من
الخاوف ، والعذاب والشقاء ، والهداية إلى الصراط المستقيم .

فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقا ، لا بشرك ، ولا بجماعى ، حصل
لهم الأمن التام ، والهداية التامة .

وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ، ولكنهم يعملون
السيئات ، حصل لهم أصل الهداية ، وأصل الأمن ، وإن لم يحصل لهم كمالها .
ومفهوم الآية الكريمة ، أن الذين لم يحصل لهم الأمان ، لم يحصل لهم
هداية ، ولا أمن ، بل حظهم الضلال والشقاء .

ولما حكم لإبراهيم عليه السلام ، بما بين به من البراهين القاطعة قال

[وتلك حجتنا آتيناها لإبراهيم على قومه] أى : علا بها عليهم

وفلجهم بها .

ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ تَشَاءِ إِنَّ رَبَّكَ

حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

[نرفع درجات من نشاء] كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة ، فإن العلم يرفع الله به صاحبه ، فوق العباد درجات .

خصوصاً ، العالم العامل ، المعلم ، فإنه يجعله الله إماماً للناس ، بحسب حاله .

ترمق أفعاله ، وتقتنى آثاره ، ويستضاء بنوره ، ويمشي بعلمه في ظلمة ديجوره .

قال تعالى [يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات] .

[إن ربك حكيم عليم] فلا يضع العلم والحكمة ، إلا في المحل اللائق بهما ، وهو أعلم بذلك المحل ، وبما ينبغي له .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ

* لما ذكر الله عبده وخليه ، إبراهيم عليه السلام ، وذكر ما من الله
عليه به ، من العلم ، والدعوة ، والصبر ، ذكر ما أكرمه الله به من الذرية
الصالحة ، والنسل الطيب .

وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله ، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة
الجسيمة ، التي لا يدرك لها نظير فقال :

[ووهبنا له إسحق ويعقوب] ابنه ، الذي هو إسرائيل ، أبو الشعب
الذي فضله الله على العالمين .

[كلا] منهما [هديناه] الصراط المستقيم ، في علمه وعمله .

[ونوحا هدينا] هـ [من قبل] وهدايته أعلى أنواع الهدايا الخاصة
التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم ؛ وهم أولو العزم من الرسل ، الذي
هو أحدهم .

[ومن ذريته] يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح ، لأنه أقرب مذكور ،
لأن الله ذكر مع من ذكر ، لوطا ، وهو من ذرية نوح ، لامن ذرية إبراهيم
لأنه ابن أخيه .

ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم لأن السياق في مدحه والثناء عليه .
ولوط — وإن لم يكن من ذريته — فإنه ممن آمن على يده .

وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن آبَائِهِمْ
وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْتَنَيْنَهُمْ وَهَدَيْنَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك ، أبلغ من كونه مجرد ابن له .

[داود وسليمان] بن داود [وأيوب ويوسف] بن يعقوب .

[وموسى وهرون] ابني عمران .

[وكذلك] كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل ، لأنه أحسن في عبادة

ربه ، وأحسن في نفع الخلق كذلك .

[نجزي المحسنين] بأن نجعل لهم ، من الثناء الصدق ، والذرية

الصالحة ، بحسب إحسانهم .

[وزكريا ويحيى] ابنيه [وعيسى] بن مريم .

[وإلياس كل] هؤلاء [من الصالحين] في أخلاقهم وأعمالهم ،

وعلمهم ، بل هم سادة الصالحين وقادتهم ، وأئمتهم .

[وإسماعيل] ابن إبراهيم أبو الشعب ، الذي هو أفضل الشعوب ،

وهو الشعب العربي ، ووالد سيد ولد آدم ، محمد صلى الله عليه وسلم .

[ويونس] بن متى [ولوطا] بن هاران ، أخى إبراهيم .

[وكلا] من هؤلاء الأنبياء والمرسلين [فضلنا على العالمين] لأن

درجات الفضائل أربع — وهي التي ذكرها الله بقوله .

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَوَاهُ فَلَا فَعْدَ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا

[ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين] .

فهؤلاء من الدرجة العليا ، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق .
فالرسل الذين قصهم الله في كتابه ، أفضل ممن لم يقصص علينا نبأهم
بلا شك .

[ومن آبائهم] أي : آباء هؤلاء المذكورين [وذرياتهم وإخوانهم] .

أي : وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم .

[واجتبتناهم] أي اخترناهم [وهديناهم إلى صراط مستقيم] .

[ذلك] الهدى المذكور [هدى الله] الذي لا هدى إلا هداة .

[يهدى به من يشاء من عباده] فاطلبوا منه الهدى فإن لم يهدكم ،

فلا هادى لكم غيره ، ومن شاء هدايته ، هؤلاء المذكورون .

[ولو أشركوا] على الفرض والتقدير [لحبط عنهم ما كانوا يعملون] .

فإن الشرك محبط للعمل ، موجب للخلود في النار .

فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار ، لو أشركوا — وحاشاهم —

لحبطت أعمالهم ، فغيرهم أولى .

بِهَا بِكُفْرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِمُ آقْتَدِهِ قُلْ
لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

[أولئك] المذكورون [الذين هدى الله فبهدهم اقتده] أى : امش
— أيها الرسول الكريم — خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار ، واتبع ملتهم .
وقد امتثل صلى الله عليه وسلم ، فاهتدى بهدى الرسل قبله ، وجمع كل
كامل فيهم .

فاجتمعت لديه ، فضائل وخصائص ، فاق بها جميع العالمين ، وكان سيد
المرسلين ، وإمام المتقين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .
وبهذا الملحظ ، استدل بهذا من استدل من الصحابة ، أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، أفضل الرسل كلهم .

[قل] للذين أعرضوا عن دعوتك : [لا أسألكم عليه أجرا] .
أى : لا أطلب منكم مغرما ومالا ، جزاء عن إبلاغى إياكم ، ودعوتى
لكم فيكون من أسباب امتناعكم ، إن أجرى إلا على الله .
[إن هو إلا ذكرى للعالمين] يتذكرون به ما ينفعهم ، فيفعلونه ،
وما يضرهم ، فيذرونه .

ويتذكرون به ، معرفة ربهم ، بأسمائه ، وأوصافه .
ويتذكرون به الأخلاق الحميدة ، والطرق الموصلة إليها ، والأخلاق
الرديلة ، والطرق المنفضية إليها .

فإذا كان ذكرى للعالمين ، كان أعظم نعمة ، أنعم الله بها عليهم ، فعليهم
قبولها والشكر عليها .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ
عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ
نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا
وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ مُمَّ ذَرَّهُمْ فِي
خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٩١) ﴿

* هذا تشنيع على من نفى الرسالة ، من اليهود والمشركين ، وزعم أن الله ،
ما أنزل على بشر من شيء .

فن قال هذا ، فما قدر الله حق قدره ، ولا عظمه حق عظمته .
إذ هذا ، قدح في حكمته ، وزعم أنه يترك عباده هملاً ، لا يأمرهم
ولا ينهاهم .

ونفى لأعظم منة ، امتن الله بها على عباده ، وهي الرسالة ، التي لا طريق
للعباد إلى نيل السعادة ، والكرامة ، والفلاح ، إلا بها ، فأى قدح في الله
أعظم من هذا !!؟

[قل] لهم — ملزماً بفساد قولهم وقرهم ، بما به يقرون — : [من أنزل
الكتاب الذي جاء به موسى] وهو التوراة العظيمة [نوراً] في ظلمات
الجهل [وهدى] من الضلالة ، وهادياً إلى الصراط المستقيم علماً ، وعملاً ،
وهو الكتاب الذي شاع وذاع ، وملاً ذكره القلوب والأسماع .

حتى أنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس ، ويتصرفون فيه بما شاءوا .
فما وافق أهواءهم منه ، أبدوه وأظهروه ، وما خالف ذلك ، أخفوه
وكتموه ، وذلك كثير .

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي يَمِينٍ يَدِيهِ
وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ
بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ ﴿٩٢﴾

[وعلمتم] من العلوم ، التي بسبب ذلك الكتاب الجليل « ما لم تعلموا
أنتم ولا آباؤكم [فإذا سألتهم عن من أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك
الصفات — فأجب عن هذا السؤال .

[ذرهم في خوضهم يلعبون] أي: اتركهم يخوضوا في الباطل ، ويلعبوا
بما لا فائدة فيه ، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون .

* أي [وهذا] القرآن [كتاب أنزلناه إليك مبارك] أي: وصفه البركة .
وذلك لكثرة خيراته ، وسعة مبراته .

[مصدق الذي بين يديه] أي : موافق للكتب السابقة ، وشاهد
لها بالصدق .

[ولتنذر أم القرى ومن حولها] أي : وأنزلناه أيضاً ، لتنذر أم القرى ،
وهي : مكة المكرمة ، ومن حولها ، من ديار العرب بل ، ومن سائر البلدان .
فتحذر الناس عقوبة الله ، وأخذة الأمم ، وتحذرهم مما يوجب ذلك :
[والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به] لأن الخوف إذا كان في القلب ،
عمرت أركانها ، وانقاد لمراضى الله .

[وهم على صلواتهم يحافظون] أي : يداومون عليها ، ويحفظون
أركانها وحدودها ، شروطها وآدابها ، ومكملاتها . جعلنا الله منهم .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا

* يقول تعالى : لا أحد أعظم ظلماً ، ولا أكبر جرماً ، ممن كذب على الله .

بأن نسب إلى الله قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه .
وإنما كان هذا أظلم الخلق ، لأن فيه من الكذب ، وتغيير الأديان ، أصولها ، وفروعها ، ونسبة ذلك إلى الله — ما هو من أكبر المفاسد .
ويدخل في ذلك ، ادعاء النبوة ، وأن الله يوحى إليه ، وهو كاذب في ذلك .

فإنه — مع كذبه على الله ، وجرأته على عظمته وسلطانه — يوجب على الخلق أن يتبعوه ، ويجاهدوهم على ذلك ، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم .

ويدخل في هذه الآية ، كل من ادعى النبوة ، كسيلة الكذاب ، والأسود العنسى ، والمختار ، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف .

[ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله] أي : ومن أظلم ممن زعم ، أنه يقدر على ما يقدر الله عليه ، ويجارى الله في أحكامه ، ويشرع من الشرائع ، كما شرعه الله .

ويدخل في هذا ، كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن ، وأنه في إمكانه ، أن يأتي بمثله .

أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ
تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

وأى ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات ، الناقص من كل وجه ،
مشاركة القوى الغنى ، الذى له الكمال للطلق ، من جميع الوجوه ، فى ذاته ،
وأسمائه وصفاته ؟ !! .

ولما ذم الظالمين ، ذكر ما أعد لهم من العقوبة فى حال الاحتضار ،
ويوم القيامة فقال :

[ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت] أى : شدائده وأحواله
الفظيعة ، وكربه الشنيعة — لرأيت أمرا هائلا ، وحالة لا يقدر الواصف
أن يصفها .

[والملائكة باسطوا أيديهم] إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب ،
والعذاب .

يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها ، وتعصبيها عن الخروج
من الأبدان :

[أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون] أى : العذاب الشديد ،
الذى يهينكم ويذلكم والجزاء من جنس العمل .

فإن هذا العذاب [بما كنتم تقولون على الله غير الحق] من كذبكم
عليه ، وردكم للحق ، الذى جاءت به الرسل .

[وكنتم عن آياته تستكبرون] أى : تترفعون عن الاقياد لها ،
والاستسلام لأحكامها .

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ
مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمْ الَّذِينَ

وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه .

فإن هذا الخطاب ، والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند الاحتضار ،
وقبيل الموت وبعده .

وفيه دليل ، على أن الروح جسم ، يدخل ويخرج ، ويخاطب ، ويساكن
الجسد ، ويفارقه ، فهذه حالهم في البرزخ .

وأما يوم القيامة ، فإنهم إذا وردوها ، وردوها مفلسين فرادى
بلا أهل ولا مال ، ولا أولاد ولا جنود ، ولا أنصار ، كما خلقهم الله أول
مرة ، عارين من كل شيء .

فإن الأشياء ، إنما تتمول وتحصل ، بعد ذلك ، بأسبابها ، التي هي أسبابها .
وفي ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور ، التي كانت مع العبد في الدنيا ،
سوى العمل الصالح ، والعمل السيئ ، الذي هو مادة الدار الآخرة ، الذي
تنشأ عنه ، ويكون حسنها وقبحها ، وسرورها وغمومها ، وعذابها ونعيمها ،
بحسب الأعمال .

فهي التي تنفع ، أو تضر ، وتسوء أو تسر .

وما سواها ، من الأهل والولد ، والمال والأنصار ، فعوار خارجية ،
وأوصاف زائلة ، وأحوال حائلة ، ولهذا قال تعالى :

[واتد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم]
أى : أعطيناكم ، وأنعمنا به عليكم [وراء ظهوركم] لا يفتنون عنكم شيئاً :

زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُمْ
مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

[وما نرى معكم شفعاءكم ، الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء] .
فإن المشركين يشركون بالله ، ويعبدون معه الملائكة ، والأنبياء ،
والصالحين ، وغيرهم .

وهم كلهم لله ، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم ، وشركة
في عبادتهم .

وهذا زعم منهم ، وظلم ، فإن الجميع ، عبيد لله ، والله مالكمهم ،
والمستحق لعبادتهم .

فشركهم في العبادة ، وصرفها لبعض العبيد ، تنزيل لهم منزلة الخالق
لئلا يك ، فيؤبخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة .

[وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم] .

أى : تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم ، من الشفاعة
وغيرها .

فلم تنفع ولم تجد شيئاً .

[وصل عنكم ما كنتم تزعمون] من الربح ، والأمن ، والسعادة ،

والنجاة ، التي زينها لكم الشيطان ، وحسنها في قلوبكم ، فنطقت بها ألسنتكم .

واغتررتم بهذا الزعم الباطل ، الذي لا حقيقة له ، حين تبين لكم نقيض

ما كنتم تزعمون .

وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم ، وأهلكم ، وأموالكم .

﴿وَإِنْ أَنْتَ إِلَّا نَسِيحٌ﴾ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىِّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَأَنْتَ تُؤَقِّفُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ

* يخبر تعالى ، عن كلاله ، وعظمة سلطانه ، وقوة اقتداره ، وسعة رحمته ،
وعوم كرمه ، وشدة عنايته بخلقه ، فقال :

[إن الله فالق الحب] شامل لكل الحبوب ، التي يباشر الناس زرعها ،
والتي لا يباشرونها ، كالحبوب التي يبثها الله في البرارى والقفار .
فيفلق الحبوب عن الزروع والنباتات ، على اختلاف أنواعها ،
وأشكالها ، ومنافعها .

وفلق النوى عن الأشجار ، من النخيل ، والفواكه ، وغير ذلك .
فينتفع بها الخلق ، من الآدميين والأنعام ، والدواب .
ويرتعون فيما فلق الله ، من الحب ، والنوى .
ويقفون ، وينتفعون بجميع أنواع المنافع ، التي جعلها الله في ذلك .
ويريهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول ، ويذهل الفحول .
ويريهم من بدائع صنعته ، وكمال حكمته ، ما به يعرفونه ويوحدونه ،
ويعلمون أنه هو الحق ، وأن عبادة ما سواه ، باطلة .

[يخرج الحى من الميت] كما يخرج من المنى حيواناً ، ومن البيضة فرخاً ،
ومن الحب والنوى ، زرعاً وشجراً .

[ويخرج الميت] وهو الذى لا نمو فيه ، أو لا روح [من الحى] .
كما يخرج من الأشجار والزروع ، النوى ، والحب ، ويخرج من الطائر
بيضاً ونحو ذلك .

[ذلکم] الذى فعل ما فعل ، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتديرها
[الله ربکم] أى : الذى له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين .

الإِصْبَاحَ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ

وهو الذى ربي جميع العالمين بنعمه ، وغذاهم بكرمه .

[فأنى تؤفكون] أى : فأنى تصرفون ، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه ، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ؟ !!

ولما ذكر تعالى ، مادة خلق الأقوات ، ذكر منته بهيئة المسكن ، وخلقته كل ما يحتاج إليه العباد ، من الضياء ، والظلمة ، وما يترتب على ذلك ، من أنواع المنافع والمصالح فقال :

[فائق الإصباح] أى : كما أنه فائق الحب والنوى ، كذلك هو فائق ظلمة الليل الداجي ، الشامل لما على وجه الأرض ، بضياء الصبح الذى يفلقه شيئا فشيئا ، حتى تذهب ظلمة الليل كلها ، ويخلفها الضياء والنور العام ، الذى يتصرف به الخلق ، فى مصالحهم ، ومعاشهم ، ومنافع دينهم ودنياهم .
ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة ، التى لا تتم إلا بوجود النهار والنور [جعل] الله [الليل سكونا] يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم ، والأنعام إلى مأواها ، والطيور إلى أوكارها ، فتأخذ نصيبها من الراحة .

ثم يزيل الله ذلك ، بالضياء ، وهكذا أبداً إلى يوم القيامة .

[و] جعل تصالى [الشمس والقمر حسبانا] بهما تعرف الأزمنة والأوقات ، فتتضبط بذلك أوقات العبادات ، وآجال المعاملات ، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التى لولا وجود الشمس والقمر ، وتناوبهما ، واختلافهما — لما عرف ذلك ، عامة الناس ، واشتركوها فى علمه .

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا

بل كان لا يعرفه ، إلا أفراد من الناس ، بعد الاجتهاد ، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ، ما يفوت .

[ذلك] التقدير المذكور [تقدير العزيز العليم] الذي - من عزته - انقادت له هذه المخلوقات العظيمة ، فجرت مذلة مسخرة بأمره ، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها ، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر .

[العليم] الذي أحاط علمه ، بالظواهر والبواطن ، والأوائل والأواخر . ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه ، تسخير هذه المخلوقات العظيمة ، على تقدير ، ونظام بدیع ، تحيرت العقول ، في حسنه ، وكلامه ، وموافقته للمصالح والحكم .

[وهو الذي جعل لكم النجوم تهتدوا بها في ظلمات البر والبحر] حين تشبه عليكم المسالك ، ويتحير في سيره السالك .

فجعل الله النجوم ، هداية للخلق إلى السبيل ، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم ، وتجاراتهم ، وأسفارهم .

منها نجوم لا تزال ترى ، ولا تسير عن محلها . ومنها : ما هو مستمر السير ، يعرف سيره ، أهل المعرفة بذلك ، ويعرفون به الجهات والأوقات .

ودلت هذه الآية ونحوها ، على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير ، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن ، إلا بذلك .

بِهَا فِي ظُلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾
وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ

[قد فصلنا الآيات] أى بينها ، ووضحناها ، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر ، بحيث صارت آيات الله ، بادية ظاهرة .

[قوم يعلمون] أى : لأهل العلم والمعرفة ، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب ، ويطلب منهم الجواب .

بخلاف أهل الجهل والجهلاء ، المعرضين عن آيات الله ، وعن العلم الذى جاءت به الرسل ، فإن البيان لا يفيدهم شيئاً ، والتفصيل ، لا يزيل عنهم ملتبساً ، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً .

[وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة] وهو : آدم عليه السلام .

أنشأ الله منه هذا المنصر الآدمى ؛ الذى قد ملأ الأرض .

ولم يزل فى زيادة ونمو ، الذى قد تفاوت فى أخلاقه وخلقه ، وأوصافه ، فتفاوتاً لا يمكن ضبطه ، ولا يدرك وصفه .

وجعل الله لهم مستقراً ، أى منتهى ينتهون إليه ، وغاية يساقون إليها وهى : دار القرار ، التى لا مستقر وراءها ، ولانهاية فوقها .

فهذه الدار ، هى التى خلق الخلق لسكنائها ، وأوجدوا فى الدنيا ، ليسعوا فى أسبابها ، التى تنشأ عليها وتعمر بها .

وأودعهم الله فى أصلاب آبائهم ، وأرحام أمهاتهم ، ثم فى دار الدنيا ، ثم فى البرزخ .

كل ذلك ، على وجه الوديعه ، التى لا تستقر ولا تثبت ، بل ينتقل منها ، حتى يوصل إلى الدار ، التى هى المستقر .

قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٨﴾
وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ
كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ

وأما هذه الدار ، فإنها مستودع وممر .

[قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون] عن الله آياته ، ويفهمون
عنه حججه ، وبيناته .

* وهذا من أعظم مننه العظيمة ، التي يضطر إليها الخلق ، من الآدميين
وغيرهم .

وهو أنه . أنزل من السماء ماءً متتابعاً ، وقت حاجة الناس إليه ،
فأنبت الله به كل شيء ، مما يأكل الناس والأنعام .

فرتع الخلق ، بفضل الله ، وانبسطوا برزقه ، وفرحوا بإحسانه ، وزال
عنهم الجذب والقحط .

ففرحت القلوب ، وأسفرت الوجوه ، وحصل للعباد من رحمة الرحمن
الرحيم ، ما به يتمتعون ، وبه يرتعون ، مما يوجب لهم ، أن يبذلوا جهدهم ،
في شكر من أسدى النعيم ، وعبادته^(١) والإنابة إليه ، والمحبة له .

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء ، من أنواع الأشجار ، والنبات ،
ذكر الزرع والنخل ، لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس فقال :

(١) قوله (وعبادته والإنابة إليه ، والمحبة له) هذه الأسماء الثلاثة
منصوبة ، لأنها معطوفة على قوله (جهدهم الذي هو مفعول به « يبذلون ») .

مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ
مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَشِبِهِ أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

[فأخرجنا به خضراً نخرج منه] أى : من ذلك النبات الخضر .
[حباً متراكباً] بعضه فوق بعض ، من بر ، وشعير ، وذرة ، وأرز ،
وغير ذلك ، من أصناف الزروع .

وفي وصفه بأنه متراكب ، إشارة إلى أن جيبه متعددة ، وجميعها
تستمد من مادة واحدة ، وهي لا تختلط ، بل هي متفرقة الجيوب ، مجتمعة
الأصول .

وإشارة أيضاً ، إلى كثرتها ، وشمول ريعها وغلتها ، ليبقى أصل البذر ،
ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار .

[ومن النخل] أخرج الله [من طلوعها] وهو الكفري ، والوعاء ،
قبل ظهور القنوم منه ، فيخرج من ذلك الوعاء [قنوان دانية] أى : قريبة
سهلة التناول ، متدلية على من أرادها ، بحيث لا يعسر التناول من النخل
وإن طالت ، فإنه يوجد فيها كرب ومراق ، يسهل صعودها .

[و] أخرج تعالى بالماء [جنات من أعناب والزيتون والرمان] .
فهذه من الأشجار الكثيرة النفع ، العظيمة الوقع ، فلذلك خصصها الله
بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنباتات .

وقوله [مشتبا وغير متشابه] يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون ،
أى : مشتبا في شجره وورقه ، غير متشابه في ثمره .

ويحتمل أن يرجع ذلك ، إلى سائر الأشجار والفواكه ، وأن بعضها مشتبه ، يشبه بعضه بعضاً ، ويتقارب في بعض أوصافه ، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره .

والكل ينتفع به العباد ، ويتفكّهون ، ويقتاتون ، ويعتبرون ، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به ، فقال :

[انظرو] نظر فكر واعتبار [إلى ثمره] أى : الأشجار كلها ، خصوصاً : النخل ، إذا أثمر .

[وينعه] أى : انظروا إليه ، وقت إطلاعه ، ووقت نضجه وإيناعه . فإن في ذلك عبراً ، وآيات ، يستدل بها على رحمة الله ، وسعة إحسانه وجوده . وكل اقتداره وعنايته بعباده .

ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر ، وليس كل من تفكر ، أدرك المعنى المقصود .

ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات ، بالمؤمنين فقال :

[إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون] فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان ، على العمل بمقتضياته ولوازمه ، التي منها : التفكر في آيات الله ، والاستنتاج منها ، ما يراد منها ، وما تدل عليه ، عقلاً ، وفطرة ، وشرعاً .

﴿١٠٠﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ
وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعَ السَّمٰوٰتِ

* يجزى تعالى : أنه — مع إحسانه لعباده ، وتعرفه إليهم ، بآياته البينات ، وحججه الواضحات — أن المشركين به ، من قريش وغيرهم ، جعلوا له شركاء ، يدعونهم ، ويعبدونهم ، من الجن ، والملائكة ، الذين هم خلق من خلق الله ، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء .

فجعلوها شركاء ، لمن له الخلق والأمر ، وهو المنعم بسائر أصناف النعم ، الدافع لجميع النقم .

وكذلك « خرق المشركون » أى : اتفكوا ، وافتروا من تلقاء أنفسهم لله ، بنين وبنات ، بغير علم منهم .

ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم ، وافترى عليه أشنع النقص ، الذى يجب تنزيه الله عنه ؟ !! .

ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال :

[سبحانه وتعالى عما يصفون] فإنه تعالى ، الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، وآفة ، وعيب .

[بديع السموات والأرض] أى : خالقهما ، ومثمن صنعتها ، على غير مثال سبق ، بأحسن خلق ، ونظام ، وبهاء .

لا تقترح عقول أولى الألباب مثله ، وليس له فى خلقها مشارك .

[أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة] أى : كيف يكون لله الولد ، وهو الإله السيد الصمد ، الذى لا صاحبة له ، أى : لا زوجة له ، وهو الغنى

وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَحِيبَةً وَخَاقَ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَالِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

عن مخلوقاته ، وكلها فقيرة إليه ، مضطرة في جميع أحوالها إليه .

والولد لا بد أن يكون من جنس والده .

والله خالق كل شيء ، وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه .
ولما ذكر عموم خلقه للأشياء ، ذكر إحاطة علمه بها فقال :

[وهو بكل شيء عليم] وفي ذكر العلم بعد الخلق ، إشارة إلى الدليل
العقلي ، على ثبوت علمه ، وهو هذه المخلوقات ، وما اشتملت عليه ، من النظام
التام ، والحقاق الباهر .

فإن في ذلك ، دلالة على سعة علم الخالق ، وكمال حكمته ، كما قال تعالى :

[ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير] وكما قال تعالى :

[وهو الخلاق العليم] ذالكم الذي ، خلق ما خلق ، وقدر ما قدر .

[ذالكم الله ربكم] أي المألوه المعبود ، الذي يستحق نهاية الذل له ، ونهاية

الحب . الرب ، الذي ربي جميع الخلق بالنعيم ، وصرف عنهم صنوف النقم .

[لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه] أي : إذا استقر وثبت ، أنه

الله الذي لا إله إلا هو ، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة ، وأخلصوها لله ،

واقصدوا بها وجهه .

فإن هذا هو المقصود من الخلق ، الذي خلقوا لأجله [وما خلقت الجن

والإنس إلا ليعبدون] .

[وهو على كل شيء وكيل] أي : جميع الأشياء ، تحت وكالة الله

وتدبيره ، خلقاً ، وتدبيراً ، وتصريفاً .

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

ومن العلوم ، أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته ، وتمامه ، وكال انتظامه ، بحسب حال الوكيل عليه .

ووكالته تعالى على الأشياء ، ليست من جنس وكالة الخلق ، فإن وكالتهم ، وكالة نيابة ، والوكيل فيها ، تابع لموكله .

وأما الباري ، تبارك وتعالى ، فوكالته من نفسه لنفسه ، متضمنة لكل العلم ، وحسن التدبير والإحسان فيه ، والعدل .

فلا يمكن أحداً ، أن يستدرك على الله ، ولا يرى في خلقه خلا ، ولا فطوراً ، ولا في تدبيره ، نقصاً وعبثاً .

ومن وكالته : أنه تعالى ، توكل ببيان دينه ، وحفظه عن المزيلات والمغيرات ، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم .

[لا تدركه الأبصار] لعظمته ، وجلاله وكاله .

أى : لا تحيط به الأبصار ، وإن كانت تراه في الآخرة ، وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم .

فنفى الإدراك ، لا ينفي الرؤية ، بل يثبتها بالمفهوم .

فإنه إذا نفي الإدراك ، الذي هو أخص أوصاف الرؤية ، دل على أن الرؤية ثابتة .

فإنه لو أراد نفي الرؤية ، لقال « لا تراه الأبصار » ونحو ذلك .

فعل أنه ليس في الآية ، حجة لمذهب المعطلة ، الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة .

بل فيها ما يدل على نقيض قولهم .

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾

[وهو يدرك الأبصار] أى : هو الذى أحاط علمه ، بالظواهر
والبواطن ، وسمعه ، بجميع الأصوات الظاهرة ، والخفية وبصره ، بجميع
البصريات ، صفارها ، وكبارها ، ولهذا قال :

[وهو اللطيف الخبير] الذى لطف علمه وخبرته ، ودق ، حتى أدرك
السرائر وانخفايا ، والخبايا ، والبواطن .

ومن لطفه ، أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه ، ويوصلها إليه بالطرق ،
التي لا يشعر بها العبد ، ولا يسعى فيها .

ويوصله إلى السعادة الأبدية ، والفلاح السرمدي ، من حيث
لا يحتسب .

حتى إنه يقدر عليه الأمور ، التي يكرهها العبد ، ويتألم منها ، ويدعو الله
أن يزيلها ، لعلمه أن دينه أصلح ، وأن كماله متوقف عليها .

فسبحان اللطيف لما يشاء ، الرحيم بالمؤمنين .

[قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا
عليكم بحفيظ] .

لما بين تعالى من الآيات البينات ، والأدلة الواضحات ، الدالة على
الحق في جميع المطالب والمقاصد ، نبه العباد عليها ، وأخبر أن هدايتهم وضدها
لأنفسهم ، فقال :

[قد جاءكم بصائر من ربكم] أى : آيات ، تبين الحق ، وتجعله للقلب ،

بمنزلة الشمس للأبصار ، لما اشتملت عليه ، من فصاحة اللفظ ، وبيانه ،
ووضوحه ، ومطابقتها للمعاني الجليلة ، والحقائق الجميلة ، لأنها صادرة من
الرب ، الذى ربي خلقه ، بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة ، التي من أفضلها
وأجلها ، تبين الآيات ، وتوضيح المشكلات .

[فمن أبصر] بتلك الآيات ، مواقع العبرة ، وعمل بمقتضاها [فلنفسه]
فإن الله هو الغنى الحميد .

(ومن عمى) بأن بصر ، فلم يتبصر ، وزجر ، فلم ينزجر ، وبين له
الحق ، فما انقاده ولا تواضع ، وإنما مضرة عماء^(١) عليه .
[وما أنا] أيها الرسول [عليكم بحفيظ] أحفظ أعمالكم وأرقبها على
الدوام ، إنما على البلاغ المبين ، وقد أدبته ، وبلغت ما أنزل الله إلي ، فهذه
وظيفتي ، وما عدا ذلك ، فلست موظفاً فيه .

(١) فى الأصل المطبوع كانت العبارة هكذا (عماء مضرتة) وهو خطأ
واضح فلذا صححنا العبارة كما ترى لينتظم الكلام .

﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ ﴾

* قوله تعالى (وكذلك نصرف الآيات) الكاف في موضع نصب صفة للمصدر المحذوف ، أى: نصرف الآيات تصرفاً ، مثل ما تلونا عليك .
والتصريف معناه : التنوع .

والمراد : أن الله تعالى ، ينوع الآيات الدالة على المعاني الرائعة ، الكاشفة عن الحقائق الفاتحة ، لا تصرفاً أدنى منه ، بل تصرفاً بلغت في الروعة مبلغاً ارتقى عن إدراك الخلق .

قوله تعالى (وليقولوا درست) جوابه محذوف ، تقديره « ونحن نصرّفها » أو نفعل ما نفعل من التصريف المذكور [معنى درست] تعلمت .
وقرأت كتب أهل الكتاب أى : قدمت هذه الآية ومضت .
كما قالوا : أساطير الأولين ، تلقاها ممن مضوا من أهل الكتاب من الأمم السابقة .

(وليقولوا درست) علة لفعل قد حذف ، تعويلاً على دلالة السياق عليه .

أى ، وليقولوا : درست نفعل ما نفعل ، من التصريف المذكور .
واللام للعاقبة والصورورة ، والواو اعتراضية . أى : لتصير عاقبة أمرهم إلى أن يقولوا درست وهو كقوله تعالى .

(فالتقطه آل فرعون ليسكون لهم عدواً وحزناً) وهم لم يلتقطوه للعداوة وإنما التقطوه ، ليصير لهم قرّة عين ، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة .

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ أَتَّبِعُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا

وكذلك الآيات ، صرفت للتبيين ، ولم تصرف ليقولوا : درست .
ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين ،
فشبه به .

وقوله تعالى [ولنبينه] أى : القرآن ، وإن لم يجرله ذكر ، لكونه
معلوماً ، أو الآيات ، لأنها فى معنى القرآن .

[لقوم يعلمون] الحق من الباطل .

ومجمل معنى الآية :

ومثل هذا التنوع البديع فى عرض الدلائل الكونية ، نعرض آياتنا
فى القرآن منوعة مفصلة ، لتقيم الحجة بها على الجاحدين ، فلا يجدوا الاختلاق
والكذب ، فيتهموك بأنك تعلمت من الناس ، لامن الله ، ولنبيين ما أنزل
إليك من الحقائق ، من غير تأثير بهوى ، تقوم يدركون الحق ،
ويذعنون له .

* اتبع — أيها النبي — ماجاءك به الوحي من الله ، مالك أمرك ،
ومدبر شئونك ، إنه — وحده — الإله المستحق للطاعة والخضوع ،
فالتزم طاعته ، ولا تبال بعناد المشركين ، ولا تحتفل بهم ، وبأقوابيلهم
الباطلة .

* قوله تعالى [ولو شاء الله] أى : إيمانهم فانشعور به محذوف
[ما أشركوا] بين أنهم لا يشركون على خلاف مشيئة الله ولو علم منهم

وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

اختيار الإيمان لهداهم إليه ولكن علم منهم اختيار الشرك فأشركوا بمشيتته
* قوله تعالى (وما جعلناك عليهم حفيظاً) أى رقيباً مهيمناً من قبلنا مراعيها
لأعمالهم مأخوذاً بإجرامهم وكذلك قوله (وما أنت عليهم بوكيل) من
جهتهم ولا بمسلط تقوم بتدبير أمورهم وترعى مصالحهم .

والمعنى الإجمالى للآية :

ولو أراد الله أن يعبدوه وحده ، لقهروهم على ذلك ، بقوته وقدرته ،
لكنه تركهم لاختيارهم .

وما جعلناك رقيباً ، تحصى عليهم أعمالهم ، وما أنت بمكلف ، بأن تقوم
عنهم ، بتدبير شؤونهم ، وإصلاح أمرهم .

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

* ينهى الله المؤمنين ، عن أمر كان جائزاً ، بل مشروعاً في الأصل ، وهو سب آلهة المشركين ، التي اتخذت أوثاناً وآلهة مع الله ، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها .

ولكن لما كان هذا السب ، طريقاً إلى سب المشركين لرب العالمين ، الذي يجب تنزيهه جنباً عن العظيم ، عن كل عيب ، وآفة ، وسب ، وقدح - نهى الله عن سب آلهة المشركين ، لأنهم يتحمسون^(١) لدينهم ، ويتعصبون له . لأن كل أمة ، زين الله لهم عملهم ، فرأوه حسناً ، وذبروا عنه ، ودافعوا بكل طريق .

حتى إنهم ، يسبون الله ، رب العالمين ، الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفقار ، إذا سب المسلمون آلهتهم .

ولكن الخلق كلهم ، مرجعهم ومآلهم ، إلى الله يوم القيامة ، يعرضون عليه ، وتعرض أعمالهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون ، من خير وشر .

(١) في الأصل المطبوع « يحمون » وهو خطأ ، فلذلك صححنا الكلمة

بـ « يتحمسون » .

وفي هذه الآية الكريمة ، دليل للقاعدة الشرعية^(١) وهو أن الوسائل

(١) قوله [دليل للقاعدة الشرعية الخ] الرواية المشهورة في هذه القاعدة معروفة لدى العلماء على وجوه عدة متداولة فيما بينهم .

الأولى : الغاية تبرر الوسيلة .

الثانية : الوسائل لها حكم المقاصد .

الثالثة : وهي التي وردت في المادة الثانية من (مجلة الأحكام العدلية)
بهذه الصيغة .

الأمر بمقاصدها يعني أن الحكم الذي يترتب على أمر يكون على مقتضى ما هو المقصود من ذلك الأ .

أى : إن الحكم الذي يترتب على فعل المكلف ينشأ فيه إلى مقصوده .
فعلى حسبه يترتب الحكم ، تملكاً وعدمه ، ثواباً وعدمه ، عتاباً وعدمه
مؤاخظة وعدمها ، ضماناً وعدمه .

فهذه قاعدة جامعة مستنبطة من الحديث المشهور أخرجه الأئمة الستة ،
وهو قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات » ومن تدبر مسائل
النية في متفرقات أبواب الفقه وجدها في العبادات بكاملها أعنى الطهارة
والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وفي بعض المعاملات .

وفيها بيان أن الشيء الواحد ، يتصف بالحل ، والحرمه باعتبار ما قصد له .

وإليك بعض الأمثلة توضيحاً لتلك القاعدة .

فلو رمى إنسان سهماً قاصداً صيداً ، فأصاب إنساناً فقتله ، لا يقتل به =

تعتبر بالأمور التي توصل إليها ، وأن وسائل المحرم ، ولو كانت جائزة ، تكون محرمة ، إذا كانت تفضى إلى الشر .

= ولو قال : أنت على كظهر أمي ، أو مثل أمي ، يرجع إلى نيته .
فإن قصد الظهار فظاهرة ، أو الكرامة ، كان كرامة ، أو الطلاق ، كان طلاقاً ، أو اليمين كان إيلاء ، لأن اللفظ يحتمل كل ذلك وإذا قصد السارق أخذ الدين من مديونه ، لا تقطع يده .

وإذا أخرج المودع الودعة بنية لبسها فهلكت قبل اللبس ، يضمن ، وإن لم تسكن بتلك النية ، لا يضمن .

وإذا وطئ الرجل زوجته على ظن أنها أجنبية يآثم ، وفي شرب الماء على ظن أنه خمر . وفي قتل قاتل مورثه على ظن أنه معصوم الدم . ففي كل هذه الصور يآثم .

فيفسق لقصده الزنا ، وشرب الخمر ، والقتل .

ولكن لا يحد في جميع الصور المتقدمة ، لقيام الشبهة .

وباق الكلام مبسوط في شرح المادة الثانية من (مجلة الأحكام الشرعية) لمفتي حمص الأسبق الشيخ «محمد طاهر الأناسي» الشقيق الأكبر ، لصاحب الدولة (هاشم الأناسي) الرئيس الأسبق للجمهورية العربية السورية فقد أجاد وأفاد ، رحمه الله رحمة واسعة .

وفي (الأشباه والنظائر) لابن نجيم ، وفي (الفتاوى الهندية) وفي (رد المختار على الدر المختار) تفريعات كثيرة على هذه القاعدة ، فمن أراد الاستقصاء فعليه بمراجعتها .

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا
جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٩) وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتُهُمْ وَابْصُرُهُمْ كَمَا لَمْ

* أى وأقسم للشركون المكذبون للرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

[بالله جهد أيمانهم] أى : قسما اجتهدوا فيه ، وأكدوه .

[لئن جاءتهم آية] تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم [ليؤمنن بها] .

وهذا الكلام الذى صدر منهم ، لم يكن قصدهم فيه ، الرشاد .

وإنما قصدهم ، دفع الاعتراض ، ورد ما جاء به الرسل قطعاً .

فإن الله أيد رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالآيات البينات ، والأدلة

الواضحات ، التى — عند الالتفات إليها — لا تبقى أذى شبهة ولا إشكال

فى صحة ما جاء به .

فطلبهم — بعد ذلك — للآيات ، من باب التعنت ، الذى لا يلزم

إجابته .

بل قد يكون المنع من إجابتهم ، أصلح لهم .

فإن الله ، جرت سنته فى عباده ، أن المقترحين للآيات على رسلهم ، إذا

جاءتهم ، فلم يؤمنوا بها — أنه يعاجلهم بالعقوبة ، ولهذا قال :

[قل إنما الآيات عند الله] أى : هو الذى يرسلها إذا شاء ، ويمنها

إذا شاء ، ليس لى من الأمر شيء .

فطلبكم منى الآيات ، ظلم ، وطلب لما لا أملك ، وإنما توجهون

إلى توضيح ما جئكم به ، وتصديقه ، وقد حصل .

يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا
نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ

ومع ذلك ، فليس معلوماً ، أنهم إذا جاءتهم الآيات ، يؤمنون
ويصدقون ، بل الغالب ، ممن هذه حاله ، أنه لا يؤمن ، ولهذا قال :

[وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * وتقلب أفئدتهم وأبصارهم
كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون] .

أى : ونعاقبهم ، إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعى ، وتقوم
عليهم الحجة ، بتقليب القلوب ، والحيلولة بينهم وبين الإيمان ، وعدم التوفيق
لسلوك الصراط المستقيم .

وهذا من عدل الله ، وحكمته بعباده ، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم ،
وفتح لهم الباب ، فلم يدخلوا ، وبين لهم الطريق ، فلم يسلكوا .

فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق ، كان مناسباً لأحوالهم .

وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ، ومشيتهم وحدهم ، وعدم الاعتماد
على الله من أكبر الغلط .

فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة ، من تنزيل الملائكة إليهم ، يشهدون
لرسول بالرسالة ، وتكليم الموتى ، وبعضهم بعد موتهم ، [وحشرنا عليهم كل
شئ] حتى يكلمهم [قبلاً] ومشاهدة ، ومباشرة ، بصدق ما جاء به الرسول
ما حصل ^(١) لهم الإيمان ، إذا لم يشأ الله إيمانهم ، ولكن أكثرهم يجهلون .

(١) قوله « ما حصل » جواب « لو » فى قوله المتقدم « فإنهم لو جاءتهم » .

قَبْلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ
يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ
وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ

فلذلك رتبوا إيمانهم ، على مجرد إتيان الآيات .

وإنما العقل والعلم ، أن يكون العبد مقصوده ، اتباع الحق ، ويطلبه
بالطرق التي بينها الله ، ويعمل بذلك ، ويستعين ربه في اتباعه ، ولا يتكل
على نفسه ، وحوله وقوته ، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ، مالا فائدة فيها .

* يقول تعالى - مسلينا الرسول صلى الله عليه وسلم - وكما جعلنا لك أعداء
يردون دعوتك ، ويحاربونك ، ويمسدونك ، فهذه سنتنا ، أن نجعل لكل
نبي نرسله إلى الخلق ، أعداء ، من شياطين الإنس والجن ، يقومون بضد
ما جاءت به الرسل .

[يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا] أى : يزين بعضهم
لبعض ، الأمر الذى يدعون إليه ، من الباطل ، ويخرفون له العبارات ،
حتى يجعلوه فى أحسن صورة ، ليغتر به السفهاء ، وينقاد له الأغبياء ، الذين
لا يفهمون الحقائق ، ولا يفقهون المعانى .

بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة ، والعبارات الموهبة ، فيعتقدون الحق باطلا
والباطل حقاً ، ولهذا قال تعالى :

رَبِّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ
أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ
مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

[ولتصغى إليه] أى : ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف [أفئدة الذين
لا يؤمنون بالآخرة] لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة ،
يحملهم على ذلك .

[وليرضوه] بعد أن يصفوا إليه ، فيصفون إليه أولا .
فإذا مالوا إليه ، ورأوا تلك العبارات المستحسنة ، رضوه ، وزين
في قلوبهم ، وصار عقيدة راسخة ، وصفة لازمة .

ثم ينتج من ذلك ، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ، ما هم مقترفون .
أى : يأتون من الكذب بالقول والفعل ، ما هو من لوازم تلك العقائد
القبیحة .

فهذه حال المفتريين ، شياطين الإنس والجن ، المستجيبين لدعوتهم .
وأما أهل الإيمان بالآخرة ، وأولو العقول الوافية ، والألباب الرزينة ،
فإنهم لا يفترون بتلك العبارات ، ولا تخلبهم تلك التويهات .
بل همتهم ، مصروفة إلى معرفة الحقائق ، فينظرون إلى المعانى التى يدعو
إليها الدعاة .

فإن كانت حقا ، قبلوها ، وانقادوا لها ، ولو كسيت عبارات رديئة ،
وألفاظا غير وافية .

وإن كانت باطلا ، ردوها على من قالها ، كائناً من كان ، ولو ألبست
من العبارات المستحسنة ، ما هو أرق من الحرير .

﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَتْبَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ
الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ

ومن حكمته تعالى ، في جعله للأنبيا أعداء ، وللباطل أنصارا قائمين
بالدعوة إليه ، أن يحصل لعباده ، الابتلاء ، والامتحان لتمييز الصادق من
الكاذب ، والعاقل من الجاهل ، والبصير من الأعمى .

ومن حكمته أن في ذلك بيانا للحق ، وتوضيحا له .

فإن الحق يستنير ويتضح ، إذا قام الباطل بصارعه ويقاومه .

فإنه - حينئذ - يتبين من أدلة الحق ، وشواهد الدالة على صدقه
وحقيقته ، ومن فساد الباطل وبطلانه ، ما هو من أكبر المطالب ، التي
يتنافس فيها المتنافسون .

* أى : قل يا أيها الرسول [أفغير الله أتبغى حكا] أحاكم إليه ، وأتقيد
بأوامره ونواهيه .

فإن غير الله محكوم عليه ، لا حاكم .

وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص ، والعيب ، والجور .

وإنما الذى يجب أن يتخذ حاكما ، هو الله وحده لا شريك له ، الذى

له الخلق والأمر .

[وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا] أى : موضعا فيه الحلال

والحرام ، والأحكام الشرعية ، وأصول الدين وفروعه ، الذى لا بيان فوق

بيانه ، ولا برهان أجلى من برهانه ، ولا أحسن منه حكما ، ولا أقوم قبلا ،

لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة .

مَنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

وأهل الكتب السابقة ، من اليهود ، والنصارى ، يعترفون بذلك
[ويعلمون أنه منزل من ربك بالحق] ولهذا ، تواطأت الأخبار [فلا] تشكح
في ذلك ولا [تكونن من المتتمتين] .

ثم وصف تفصيلها فقال : [وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا] أى : صدقا
في الإخبار ، وعدلا ، فى الأمر والنهى .

فلا أصدق من أخبار الله التى أودعها هذا الكتاب العزيز ، ولا أعدل
من أوامره ونواهيه و [لا مبدل لكلماته] حيث حفظها وأحكمها بأعلى
أنواع الصدق ، وبغاية الحق .
فلا يمكن تغييرها ، ولا اقتراح أحسن منها .

[وهو السميع] لسائر الأصوات ، باختلاف اللغات على تفنن
الحاجات .

[العليم] الذى أحاط علمه بالظواهر والبواطن ، والماضى والمستقبل .

﴿١١٦﴾ وَإِنْ تَطِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴿١١٧﴾

* يقول تعالى ، لنبىه محمد صلى الله عليه وسلم ، محذرا عن طاعة أ كثر الناس : [وإن تطع أ كثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله] فإن أ كثرهم قد انحرفوا فى أديانهم ، وأعمالهم ، وعلومهم .
فأديانهم فاسدة ، وأعمالهم تبع لأهوائهم ، وعلومهم ليس فيها تحقيق ، ولا إيصال لسواء الطريق .
بل غايتهم أنهم يتبعون الظن ، الذى لا يفتى من الحق شيئا ويتخرصون فى القول على الله ، مالا يعلمون .
ومن كان بهذه المثابة ، فخرى أن يحذر الله منه عباده ، ويصف لهم أحوالهم .
لأن هذا - وإن كان خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم - فإن أمته تبع له ، فى سائر الأحكام ، التى ليست من خصائصه .
والله تعالى أصدق قيلا ، وأصدق حديثا ، و [هو أعلم بمن يضل عن سبيله] وأعلم بمن يهتدى ويهتدى .
فيجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم ، وأرحم بكم من أنفسكم .
ودلت هذه الآية ، على أنه لا يستدل على الحق ، بكثرة أهله ، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور ، أن يكون غير حق .

﴿١١٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ
مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ آلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ

بل الواقع بخلاف ذلك ، فإن أهل الحق ، هم الأقلون عدداً ، الأعظمون
- عند الله - قدراً وأجرأ .

بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل ، بالطرق الموصلة إليه .

* يأمر تعالى ، عباده المؤمنين ، بمقتضى الإيمان ، وأنهم ، إن كانوا
مؤمنين ، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، من بهيمة الأنعام ، وغيرها ،
من الحيوانات المحللة ، ويعتقدوا حلها ، ولا يفعلوا كما يفعل أهل الجاهلية ،
من تحريم كثير من الحلال ، ابتداءً من عند أنفسهم ، وإضلالاً من
شياطينهم .

فذكر الله ، أن علامة المؤمن ، مخالفة أهل الجاهلية ، في هذه العادة
الذميمة ، المتضمنة لتغيير شرع الله ، وأنه ، أى شيء يمنعهم من أكل
ما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل الله لعباده ما حرم عليهم ، وبينه ووضحه ؟
فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة ، توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال ،
خوفاً من الوقوع في الحرام .

ودلت الآية الكريمة ، على أن الأصل في الأشياء والأطعمة ، الإباحة .

وأنه ، إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها ، فإنه باق على الإباحة .

فما سكت الله عنه ، فهو حلال ، لأن الحرام قد فصله الله ، فما لم يفصله

الله ، فليس بحرام .

عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ
وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُتَدِينِ ﴿١١٩﴾

ومع ذلك ، فالحرام الذى قد فصله الله ، وأوضحه ، قد أباحه عند
الضرورة ، والحمصة ، كما قال تعالى : [حرمت عليكم الميتة والدم ولحم
الخنزير] إلى أن قال : [فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله
غفور رحيم] .

ثم حذر عن كثير من الناس ، فقال : [وإن كثيرا يضلون بأهوائهم]
أى : بمجرد ما تهوى أنفسهم [بغير علم] وإلا حجة .

فليحذر العبد من أمثال هؤلاء ، وعلامتهم — كما وصفهم الله لعباده —
أن دعوتهم ، غير مبنية على برهان ، ولا لهم حجة شرعية .

وإنما يوجد لهم شبه ، بحسب أهوائهم الفاسدة ، وآرائهم القاصرة .
فهؤلاء معتدون على شرع الله ، وعلى عباد الله ، والله لا يحب المعتدين .
بخلاف الهادين المبتدئين ، فإنهم يدعون إلى الحق والهدى ، ويؤيدون
دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية ، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم ،
واقرب منه .

﴿ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ (١٢٠) ﴿

* المراد بالإثم : جميع المعاصي ، التي تؤثم العبد ، أى : توقعه فى الإثم ،
والحرج ، من الأشياء المتعلقة بمحتوق الله ، وحتوق عباده .

فنبه الله عباده ، عن اقرار الإثم الظاهر والباطن .

أى : السر والعلائية ، المتعلقة بالبدن والجوارح ، والمتعاقبة بالقلب .

ولا يتم للعبد ، ترك المعاصي الظاهرة والباطنة ، إلا بعد معرفتها ،
والبحث عنها .

فيكون البحث عنها ، ومعرفة معاصي القلب ، والبدن ، والعلم بذلك ،
واجباً متعيناً على المكلف .

وكثير من الناس ، يخفى عليه كثير من المعاصي ، خصوصاً ، معاصي
القلب ، كالكبر ، والعجب ، والرياء ، ونحو ذلك .

حتى إنه يكون به كثير منها ، وهو لا يحس به ولا يشعر ، وهذا من
الإعراض ، عن العلم ، وعدم البصيرة .

ثم أخبر تعالى ، أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن ، سيجزون
على حسب كسبهم ، وعلى قدر ذنوبهم ، قلت أو كثرت .

وهذا الجزاء يكون فى الآخرة .

وقد يكون فى الدنيا ، يعاقب العبد ، فيخفف عنه بذلك ، من سيئاته .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ
لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيَجِدُواكُمْ وَإِنْ

* ويدخل تحت هذا المنهى عنه ، ما ذكر عليه اسم غير الله ، كالذى يذبح
للأصنام ، وآلهة المشركين .

فإن هذا ، مما أهل لغير الله به ، المحرم بالنص عليه خصوصاً .

ويدخل في ذلك ، متروك التسمية ، مما ذبح لله ، كالضحايا ، والهدايا ،
أو للحم والأكل ، إذا كانت الذابح متعمدا ترك التسمية ، عند كثير
من العلماء .

ويخرج من هذا العموم ، الناسى بالنصوص الأخر ، الدالة على دفع
الخرج عنه .

ويدخل في هذه الآية ، مامات بغير ذكاة من الميتات ، فإنها مما لم
يذكر اسم الله عليه .

ونص الله عليها بخصوصها ، في قوله : [حرمت عليكم الميتة] ولعلها
سبب نزول الآية ، لقوله [وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم] .
بغير علم .

فإن المشركين - حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة ، وتحليله للمذكاة ،
وكانوا يستحلون أكل الميتة - قالوا - معاندة لله ورسوله ، ومجادلة بغير
حجة ولا برهان - أتأكلون ماقتلتكم ، ولا تأكلون ماقتل الله ؟
يعنون بذلك : الميتة .

أَطَقْتُمُوهُمْ إِنْكُمْ لِمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

وهذا رأى فاسد ، لا يستند على حجة ولا دليل بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها، لفسدت السموات والأرض ، ومن فيهن .
فتباً لمن قدم هذه العقول ، على شرع الله وأحكامه ، الموافقة للمصالح العامة ، والمنافع الخاصة .

ولا يستغرب هذا منهم ، فإن هذه الآراء وأشباهاها ، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين ، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم ، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير .

[وإن أطقتموهم] في شركهم ، وتحليلهم الحرام ، وتحريمهم الحلال [إنكم لمشركون] لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله ، وواقفتموهم على ما به فارقوا المسلمين ، فلذلك كان طريقكم ، طريقهم .

ودلت هذه الآية الكريمة ، على أن ما يقع في القلوب ، من الإلهامات ، والكشوف ، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم ، لاتدل - بمجرداها على أنها حق ، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله .

فإن شهدا لها بالقبول ، قبلت ، وإن ناقضتهما ، ردت ، وإن لم يعلم شيء من ذلك ، توقف فيها ، ولم تصدق ، ولم تكذب .

لأن الوحي والإلهام ، يكون من الشيطان ، فلا بد من التمييز بينهما .
والفرقان وبعدم التفريق بين الأمرين ، حصل من الغلط والضلال ،
مالا يحصيه إلا الله .

﴿١٢٢﴾ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ
فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ
لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ

* يقول تعالى: [أو من كان] من قبل هداية الله له [ميتًا] في ظلمات
الكفر، والجهل، والمعاصي.

[فأحييناه] بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في
النور، متبصراً في أموره، مهتدياً لسبيله، عارفاً للخير، مؤثراً له، مجتهداً
في تنفيذه في نفسه.

وغيره عارفاً بالشر، مبغضاً له، مجتهداً في تركه، وإزالته عن نفسه
وعن غيره.

فيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغي، والكفر
والمعاصي.

[ليس بخارج منها] قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك،
فحضره الهم والغم والحزن والشقاء.

فنبه تعالى، العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوى هذا ولا هذا كما
لا يستوى الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات.

فكانه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مسكة من عقل، أن يكون
بهذه الحالة، وأن يبقى في الظلمات متحيراً:

فأجاب بأنه [زين للكافرين ما كانوا يعملون] فلم يزل الشيطان
يحسن لهم أعمالهم، ويزينها في قلوبهم، حتى استحسنوها، ورأوها حقاً.

أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَنْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ
نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ

وصار ذلك عقيدة في قلوبهم ، وصفة راسخة ملازمة لهم .

فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح .

وهؤلاء ، الذين في الظلمات يعمهون ، وفي باطلهم يترددون ،
غير متساوين .

فمنهم : القادة ، والرؤساء ، والمتبوعون ، ومنهم : التابعون المرءوسون .

والأولون ، منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال ، ولهذا قال :

[وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها] أي : الرؤساء الذين

قد كبر جرمهم ، واشتد طفيتانهم [ليكروا فيها] بالخدعة والدعوة إلى

سبيل الشيطان ، ومحاربة الرسل وأتباعهم ، بالقول والفعل .

وإنما مكروهم وكيدهم ، يعود على أنفسهم ، لأنهم يمكرون ، ويمكر الله ،

والله خير الماكرين .

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم ، يناضلون هؤلاء المجرمين ،

ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم في سبيل الله ، ويسلكون بذلك ،

السبل الموصلة إلى ذلك ، ويعينهم الله ، ويسدد رأيهم ، ويثبت أقدامهم ،

ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم ، حتى يدول الأمر في عاقبته ، بنصرهم

وظهورهم ، والعاقبة للمتقين .

سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ ﴿١٢٤﴾

وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم ، وقاموا برد الحق الذي جاءت
به الرسل ، حسداً منهم وبغياً ، فقالوا :
[لن نؤمن حتى تؤتى مثل ما أوتى رسل الله] من النبوة والرسالة .
وفي هذا اعتراض منهم على الله ، وعجب بأنفسهم ، وتكبر على الحق
الذي أنزله على أيدي رسله ، وتحجر على فضل الله وإحسانه .
فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد ، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير ،
ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين ، فضلاً أن يكونوا
من النبيين والمرسلين :

فقال : [الله أعلم حيث يجعل رسالته] فيمن علمه يصلح لها ، ويقوم
بأعبائها ، وهو متصف بكل خلق جميل ، ومعتبر من كل خلق ذئب ،
أعطاه الله ما تقتضيه حكمته أصلاً وتبعاً .
ومن لم يكن كذلك ، لم يضع أفضل مواهبه ، عند من لا يستأهله ،
ولا يزكو عنده .

وفي هذه الآية ، دليل على كمال حكمة الله تعالى ، لأنه ، وإن كان
تعالى رحماً ، واسع الجود ، كثير الإحسان ، فإنه حكيم لا يضع جوده
إلا عند أهله .

ثم توعده المجرمين فقال : [سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله]
أى : إهانة وذل ، كما تكبروا على الحق ، أذلم الله .
[وعذاب شديد بما كانوا يكفرون] أى : بسبب مكرهم ، لا ظمناً منه تعالى .

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥)

* يقول تعالى — مبيناً لعباده علامة سعادة العبد وهدايته ، علامة شقاوته وضلاله — :

إن من انشرح صدره للإسلام ، أى : اتسع وانفسح ، فاستنار بنور الإيمان ، وحيى بضوء اليقين ، فاطمأنت بذلك نفسه ، وأحب الخير ، وطوعت له نفسه فعله ، متلذذا به — غير مستنقل — فإن هذا ، علامة ، على أن الله قد هداه ، ومن عليه بالتوفيق ، وسلوك أقوم الطريق .

وأن علامة من يرد الله أن يضلّه ، أن يجعل صدره ضيقاً حرجاً .
أى : فى غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين .

قد انغمس قلبه فى الشبهات والشهوات ، فلا يصل إليه خير ، ولا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته ، يكاد يصعد فى السماء ، أى : كأنه يكلف الصعود إلى السماء ، الذى لا حيلة فيه .

وهذا سببه ، عدم إيمانهم ، فهو الذى أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم ، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان .

وهذا ميزان لا يعول ، وطريق لا يتغير .

فإن من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، ييسره الله لليسرى .

ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسييسره لليسرى .

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

* أى : معتدلا ، موصلا إلى الله ، وإلى دار كرامته ، قد بينت أحكامه ،
وفصلت شرائعه ، وميز الخير من الشر .

ولكن هذا التفصيل والبيان ، ليس لكل أحد ، إنما هو [لقوم
يذكرون] :

فإنهم الذين علموا ، فانتفعوا بعلمهم ، وأعد لهم الجزاء الجزيل ، والأجر الجليل .
فلهذا قال : [لهم دار السلام عند ربهم] .

وسميت الجنة دار السلام ، لسلامتها من كل عيب ، وآفة وكدر ،
وهم وغم ، وغير ذلك من المنفصات .

ويلزم من ذلك ، أن يكون نعيمها : فى غاية الكمال ، ونهاية التمام ،
بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون ، ولا يتمنى فوقه التمتنون ، من نعيم
الروح ، والقلب ، والبدن .

ولهم فيها ، ما تشبیهه الأنس ، وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون .
[وهو وليهم] الذى يتولى تديرهم وتربيتهم ، ولطف بهم فى جميع
أمورهم ، وأعانهم على طاعته ، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته .
وإنما تولاهم ، بسبب أعمالهم الصالحة ، ومقدماتهم التى قصدوا بها
رضا مولاهم .

بخلاف من أعرض عن مولاہ ، واتبع هواہ .

فإنه سلط عليه الشيطان فتولاه ، فأفسد عليه دينه ودنياه .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ
مِّنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ
وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا

* يقول تعالى [ويوم يحشرهم جميعاً] أى : جميع الثقلين ، من الإنس
والجن ، من ضل منهم ، ومن أضل غيره .

فيقول موجَّهاً للجن ، الذين أضلوا الإنس ، وزينوا لهم الشر ، وآزوه
إلى المعاصي :

[يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس] أى : من إضلالهم ، وصددهم
عن سبيل الله .

فكيف أقدمتم على محارمي ، وتجراتم على معاندة رسي ؟ وقتم محاربي
الله ، ساعين في صد عباد الله عن سبيله ، إلى سبيل الجحيم ؟

فاليوم حقت عليكم لعنتي ، ووجبت لكم نعتي . وسنزيدكم من العذاب
بحسب كفركم ، وإضلالكم لغيركم .

وليس لكم عذر به تعتذرون ، ولا ملجأ إليه تلجأون ، ولا شافع يشفع
ولا دعاء يسمع .

فلا تسأل حينئذ ، عما يجعل بهم من النكال ، والخزى والوبال ، ولهذا
لم يذكر الله لهم اعتذاراً .

وأما أوليائهم من الإنس ، فأبدو عذراً غير مقبول فقالوا :

[ربنا استمتع بعضنا ببعض] أى تمتع كل من الجنى والإنسى ، بصاحبه ،
وانتفع به .

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ
الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَسِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ

فالجنى يستمتع بطاعة الإنسى له ، وعبادته ، وتعظيمه ، واستعاذته به .
والإنسى ، يستمتع بنيل أغراضه ، وبلوغه ، بحسب خدمة الجنى له ،
بعض شهواته .

فإن الإنسى يعبد الجنى ، فيخدمه الجنى ، ويحصل له بعض الحوائج
الدينيوية .

أى : حصل منا ، من الذنوب ، ما حصل ، ولا يمكن رد ذلك .
[وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا] أى : وقد وصلنا المحل الذى نجازى
فيه بالأعمال .

فافعل بنا الآن ، ما تشاء ، واحكم فينا ، بما تريد .
قد انقطعت حجتنا ، ولم يبق لنا عذر ، والأمر أمرك ، والحكم حكمك .
وكان فى هذا الكلام منهم ، نوع تضرع وترقق ، ولكن فى غير أوانه .
ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل ، الذى لا جور فيه فقال : [النار مثواكم
خالدين فيها] .

ولما كان هذا الحكم ، من مقتضى حكمته وعلمه ، ختم الآية بقوله :
[إن ربك حكيم عليم] .

فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمها ، فحكمته الغائية ، شملت الأشياء
وعمتها ووسعتها .

[وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون] .
أى : وكا ولينا الجن المردة ، وسلطانهم على إضلال أوليائهم من الإنس

أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ
لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا

وعقدنا بينهم عقد الموالاتة والموافقة ، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك .
كذلك من سنتنا ، أن نولى كل ظالم ظالما مثله ، يؤزّه إلى الشر ،
ويحثه عليه ، ويزهده في الخير ، وينفره عنه ، وذلك من عقوبات الله العظيمة
الشنيع أثرها ، البليغ خطرها .

والذنب ذنب الظالم ، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه ، وعلى نفسه
جنى [وما ربك بظلام للعبيد] .

ومن ذلك ، أن العباد ، إذا كثّر ظلمهم وفسادهم ، ومنعهم
الحقوق الواجبة ، ولى عليهم ظلمة ، يسومونهم سوء العذاب ، ويأخذون
منهم ، بالظلم والجور ، أضعاف ما منعوا من حقوق الله ، وحقوق عباده ،
على وجه غير مأجورين فيه ، ولا محتسبين .

كما أن العباد ، إذا صلحوا واستقاموا ، أصلح الله رعائهم ، وجعلهم
أئمة عدل وإنصاف ، لا ولاية ظلم واعتساف .

ثم وبخ الله ، جميع من أعرض عن الحق ورده ، من الجن والإنس ،
وبين خطأهم ، فاعترفوا بذلك ، فقال :

[يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي]
الواضحات البينات ، التي فيها تفاصيل الأمر والنهي ، والخير والشر ،
والوعد والوعيد .

[وينذرونكم لقاء يومكم هذا] ويعلمونكم أن النجاة فيه ،

وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ
يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفُلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ

والفوز وإنما هو بامثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وأن الشقاء
والخسران في تضييع ذلك .

فأقروا بذلك واعترفوا ، ف « قالوا » [بلى شهدنا على أنفسنا . وغرتهم
الحياة الدنيا] بزيتها ، وزخرفها ، ونعيمها فاطمأنوا بها ، ورضوا بها ،
وألهتهم عن الآخرة .

[وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين] قامت عليهم حجة الله ،
وعلم حينئذ ، كل أحد ، حتى هم بأنفسهم . عدل الله فيهم .

فقال لهم : ها كما عليهم بالعذاب الأليم : [ادخلوا في] جملة [أمم ، قد خلت
من قبلكم ، من الجن والإنس] صنعوا كصنيعكم ، واستمتعوا بمخلاقهم ،
كما استمتعتم ، وخاضوا بالباطل كما خضتم ، إنهم كانوا خاسرين .
أى : الأولون من هؤلاء والآخرين .

وأى خسران أعظم ، من خسران جنات النعيم ، وحرمان جوار أكرم
الأكرمين ؟ !!

ولكنهم ، وإن اشتروا في الخسران ، فإنهم يتفاوتون في مقداره ،
تفاوتا عظيما .

[ولكل] منهم [درجات مما عملوا] بحسب أعمالهم ، لا يجعل قليل الشر
منهم ، ككثيره ، ولا التابع كالتبوع ، ولا المرءوس كالرئيس .

كما أن أهل الثواب والجنة ، وإن اشتروا في الربح والفلاح ودخول

دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ
الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ

الجنة ، فإن بينهم من الفرق ، مالا يعلمه إلا الله ، مع أنهم كلهم ، رضوا بما
آتاهم مولاهم ، وقنعوا بما حباهم .

فنسأله تعالى ، أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى ، التي أعدها الله
للمقربين من عباده ، والمصطفين من خلقه ، وأهل الصنوة ، أهل وداده .

[وما ربك بغافل عما يعملون] فيجازى كلا بحسب عمله ، وبما يعلمه
من مقصده .

وإنما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة ، ونهاهم عن الأعمال السيئة ،
رحمة بهم ، وقصدا لمصالحهم .

وإلا ، فهو الغني بذاته ، عن جميع مخلوقاته ، فلا تنفعه طاعة الطائعين ،
كما لا تضره معصية العاصين .

[إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ] بالإهلاك [وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ] كما أنشأكم
من ذرية قوم آخرين] .

فإذا عرفتم بأنكم ، لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار ، كما انتقل غيركم ،
وترحلون منها ، وتخلونها لمن بعدكم ، كما رحل عنها من قبلكم ،
وخلوها لكم .

فلم اتخذتموها قرارا ؟ وتوطنتم بها ، ونسيتم ، أنها دار ممر لا دار مقر .
وأن أمامكم دارا ، هي الدار التي جمعت كل نعيم وسلمت من كل
آفة ومرض ؟

كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخِرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ

وهي الدار التي يسى إليها الأولون والآخرون ، ويرتحل نحوها ،
السابقون واللاحقون .

التي إذا وصلوها ، فتم الخلود الدائم ، والإقامة اللازمة ، والغاية التي
لا غاية وراءها ، والمطلوب الذي ينتهى إليه كل مطلوب ، والمرغوب الذي
يضمحل دونه كل مرغوب .

هنالك ، والله ، ما تشبیهه الأنفس ، وتلد الأعين ، ويتنافس فيه
المتنافسون ، من لذة الأرواح ، وكثرة الأفراح ، ونعيم الأبدان والقلوب ،
والقرب من علام الغيوب .

فله همة ، تعلقت بتلك الكرامات ، وإرادة سمت إلى أعلى الدرجات !!
وما أبجس حظ من رضى بالدون ، وأدنى همة من اختار صفقة
المغبون !!

ولا يستبعد المعرض الغافل ، سرعة الوصول إلى هذه الدار .
[إن ما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين] لله ، فارين من عقابه ،
فإن نواصيكم تحت قبضته ، وأنتم تحت تديره وتصرفه .
[قل] يا أيها الرسول لقومك : إذا دعوتهم إلى الله ، وبينت لهم مآلهم
وما عليهم من حقوقه ، فامتنعوا من الانتياد لأمره ، واتبعوا أهواءهم ،
واستمروا على شركهم :
[يا قوم اعملوا على مكانتكم] أى : على حالتكم التي أنتم عليها ،
ورضيتموها لأنفسكم .

إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

[إني عامل] على أمر الله ، ومتبع لمراضى الله .

[فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار] أنا أو أنتم .

وهذا من الإنصاف ، بموضع عظيم حيث بين الأعمال وعاملها ، وجعل
الجزاء مقرونا بنظر البصير ، ضارباً فيه صفحا ، عن التصريح الذي ، يعنى
عنه التلويح .

وقد علم أن العاقبة الحسنة ، فى الدنيا والآخرة ، للمتقين .

وأن المؤمنين لهم عقى الدار ، وأن كل معرض عن ماجاءت به الرسل ،
عاقبته سوء وشر ، ولهذا قال :

[إنه لا يفتح الظالمون] فكل ظالم ، وإن تمتع فى الدنيا بما تمتع به ،
فنهايته فيه ، الاضمحلال والتلف « إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه
لم يفلته » .

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٣٦)

* يخبر تعالى ، عما عليه المشركون المكذبون للنبي صلى الله عليه وسلم ، من سفاهة العقل ، وخفة الأحلام ، والجهل البليغ .

وعدد تبارك وتعالى شيئاً من خرافاتهم ، لينبه بذلك ، على ضلالهم ، والخذل منهم ، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق ، الذي جاء به الرسول ، لا تقدر فيه أصلاً ، فإنهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق .

فذكر من ذلك أنهم [جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً] ولشركائهم من ذلك نصيباً .

والحال أن الله تعالى ، هو الذي ذرأه للعباد ، وأوجده رزقا ، فجمعوا بين محذورين محذورين بل ثلاثة محاذير .

منتهم على الله ، في جعلهم له نصيباً ، مع اعتقادهم أن ذلك منهم ، تبرع .

وإشراك الشركاء ، الذين لم يرزقوهم ، ولم يوجدوا لهم شيئاً في ذلك .

وحكمهم الجائر ، في أن ما كان لله ، لم يبالوا به ، ولم يهتموا ، ولو كان

وإصلاحاً إلى الشركاء .

وما كان لشركائهم اعتنوا به ، واحتفظوا به ، ولم يصل إلى الله ،

منه شيء .

وذلك أنهم إذا حصل لهم — من زروعهم وتمارهم وأنعامهم ، التي

أوجدها الله لهم — شيء ، جعلوه قسامين :

وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَبِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُؤُهُمْ

قسما قالوا : هذا لله بقولهم وزعمهم ، وإلا فالله لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه ، ولا يقبل عمل من أشرك به .

وقسما ، جعلوه حصّة شركائهم من الأوثان والأنداد .

فإن وصل شيء مما جعلوه لله ، واختلط بما جعلوه لغيره ، لم يبالوا بذلك . وقالوا : الله غنى عنه ، فلا يردونه .

وإن وصل شيء مما جعلوه لأنفسهم إلى ما جعلوه لله ، ردوه إلى محله . وقالوا : إنها فقيرة ، لا بد من رد نصيبها .

فهل أسوأ من هذا الحكم . وأظلم؟! حيث جعلوا ما للمخلوق ، يمتد فيه وينصح ، ويحفظ ، أكثر مما يفعل بحق الله .

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة ، ما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عن الله تعالى أنه قال :

« أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من أشرك معي شيئاً تركته وشركه » .

وأن معنى الآية أن ما جعلوه ، وتقربوا به لأوثانهم ، فهو تقرب خالص لغير الله ، ليس لله منه شيء .

وما جعلوه لله — على زعمهم — فإنه لا يصل إليه لكونه شركا ، بل يكون حظ الشركاء والأنداد ، لأن الله غنى عنه ، لا يقبل العمل الذى أشرك به معه أحد من الخلق .

لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ
وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَهُ لَا يَطْعَمُهَا

ومن سفه المشركين وضلالهم ، أنه زين الكثير من المشركين شركاؤهم
— أى : رؤسائهم وشياطينهم — قتل أولادهم ، وهو : الواد ، الذين
يدفنون أولادهم وهم أحياء خشية الافتقار ، والإناث خشية العار .
وكل هذا من خدع الشياطين ، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك ،
ويلبسوا عليهم دينهم ، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح .
ولا يزال شركاؤهم يزبنونها لهم ، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة
والخصال المستحسنة .

ولو شاء الله أن يمنعهم ، ويحول بينهم وبين هذه الأفعال ، ويمنع
أولادهم عن قتال الأبوين لهم ، ما فعلوه .
ولكن اقتضت حكمته ، للتخلية بينهم وبين أفعالهم ، استدرأجا منه لهم ،
وإمهاالا لهم ، وعدم مبالاة بما هم عليه ، ولهذا قال :

[فذرهم وما يفترون] أى : دعهم مع كذبهم وافتراءهم ، ولا تحزن
عليهم ، فإنهم لن يضروا الله شيئا .
ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عموما ، وجعلها
رزقا ورحمة ، يتمتعون بها ، وينتفعون ، قد اخترعوا فيها بدعا وأقوالا ،
من تلقاء أنفسهم .

ف عندهم اصطلاح في بعض الأنعام والحُرث أنهم يقولون فيها :

[هذه أنعام وحرث حجر] أى : محرم [لا يطعمها إلا من نشاء]

إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ
أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾
وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى
أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ

أى : لا يجوز أن يطعمه أحد ، إلا من أردنا أن يطعمه ، أو وصفناه بوصف
من عندنا .

وكل هذا — بزعمهم — لا مستند لهم ولا حجة ، إلا أهويتهم ،
وآراؤهم الفاسدة .

وأنعام ليست محرمة من كل وجه ، بل يحرمون ظهورها ، أى : بالركوب
والحمل عليها ، ويحرمون ظهرها ، ويسمونها الحام .

وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، بل يذكرون اسم أصنامهم ،
وما كانوا يعبدون من دون الله عليها ، وينسبون تلك الأفعال إلى الله ،
وهم كذبة فجار في ذلك .

[سنجزهم بما كانوا يفترون] على الله ، من إحلال الشرك ، وتحريم
الحلال ، من الأكل ، والمنافع .

ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام ، ويعينونها — محرماً
ما في بطنها ، على الإناث دون الذكور ، فيقولون :

[ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكُورنا] أى : حلال لهم ،
لا يشاركهم فيها النساء .

[ومحرم على أزواجنا] أى : نساتنا ، هذا إذا ولد حياً .

إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

وإن يكن ما في بطنها يولد ميتاً ، فهم فيه شركاء ، أى : فهو حلال
للذكور والإناث .

[سيجزيهم] الله [وصفهم] حيث وصفوا ما أحله الله ، بأنه حرام ،
ووصفوا الحرام بالحلال ، فناقضوا شرع الله ، وخالفوه ، ونسبوا ذلك
إلى الله .

[إنه حكيم] حيث أمهل لهم ، ومكنهم مما هم فيه من الضلال .
[عليم] بهم ، لا تخفى عليه خافية ، وهو تعالى ، يعلم بهم وبما قالوه
عليه وافتروه ، وهو يعافهم ، ويرزقهم ، جل جلاله .

ثم بين خسرتهم وسفاهة عقولهم فقال :
[قد خسروا دينهم] قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم [أى : خسروا دينهم
وأولادهم ، وعقولهم ، وصار وصفهم — بعد العقول . الرزينة — السفه
المردى ، والضلال .

[وحرموا ما رزقهم الله] أى : ما جعله رحمة لهم ، وساقه رزقاً لهم .
فردوا كرامة ربهم ، ولم يكتفوا بذلك ، بل وصفوها بأنها حرام ،
وهى من أحل الحلال .

وكل هذا [افتراء على الله] أى : كذب يكذب به كل معاند كفار .
[قد ضلوا وما كانوا مهتدين] أى : قد ضلوا ضلالاً بعيداً ، ولم يكونوا
مهتدين فى شيء من أمورهم .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوسَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوسَاتٍ
وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ

* لما ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم ، من الحروث
والأنعام ، ذكر تبارك وتعالى ، نعمته عليهم بذلك ، ووظيفتهم اللازمة
عليهم ، في الحروث والأنعام فقال :
[وهو الذي أنشأ جنات] أى : بساتين ، فيها أنواع الأشجار للتنوعة ،
والنباتات المختلفة .

[معروشات وغير معروشات] أى : بعض تلك الجنات ، مجعول لها
عرش ، تنتشر عليه الأشجار ، ويعاونها في النهوض عن الأرض .
وبعضها خال من العروش ، تنبت على ساق ، أو تنفرش في الأرض .
وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها ، وخيراتها ، وأنه تعالى ، علم العباد
كيف يعرشونها ، وينمونها .

[و] أنشأ تعالى [النخل والزرع مختلفا أكله] أى : كله في محل
واحد ، ويشرب من ماء واحد ، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل .
وخص تعالى ، النخل ، والزرع على اختلاف أنواعه ، لكثرة منافعها ،
ولكونها هي القوت لأكثر الخلق .

(و) أنشأ تعالى [الزيتون والرمان متشابهها] في شجره [وغير متشابهه]
في ثمره وطعمه .

كأنه قيل : لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات ، وما عطف عليها ؟

مُتَشَبِّهٍ كُلُّوْا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ
وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال: [كلوا من ثمره] أى : النخل
والزرع [إذا أثمر].

[وآتوا حقه يوم حصاده] أى : أعطوا حق الزرع ، وهو الزكاة
ذات الأنصاء المقدرة في الشرع .

أمرهم أن يعطوها يوم حصادها ، وذلك لأن حصاد الزرع ، بمنزلة
حولان الحول .

لأنه الوقت ، الذى تشوف إليه نفوس الفقراء ، ويسهل حينئذ إخراجه
على أهل الزرع ، ويكون الأمر فيها ظاهراً ، لمن أخرجها ، حتى يتميز المخرج
من لا يخرج .

وقوله: [ولا تسرفوا] يعم النهى عن الإسراف فى الأكل ، وهو :
مجاوزه الحد والعادة ، وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضر بالزكاة ،
والإسراف فى إخراج حق الزرع ، بحيث يخرج فوق الواجب عليه ، أو يضر
نفسه أو عائلته أو غرماءه .

فكل هذا ، من الإسراف الذى نهى الله عنه ، الذى لا يحبه الله ،
بل يبغضه ويمقت عليه .

وفى هذه الآية ، دليل على وجوب الزكاة فى الثمار ، وأنه لا حول لها ،
بل حولها ، حصادها فى الزروع ، وجذاذ النخيل .

وأنه لا تتكرر فيها الزكاة ، لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة ،

﴿١٤٢﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ
وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ تَمَنِيَةً

إذا كانت لغير التجارة ، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه ، إلا وقت حصاده .
وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفریط من صاحب الزرع والتمر ،
أنه لا يضمها ، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع ، قبل إخراج الزكاة
منه ، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة ، بل يزكى المال الذى يبقى بعده .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يبعث خارصاً ، يحرص للناس ثمارهم ،
ويأمره أن يدع لأهلها الثلث ، أو الربع ، بحسب ما يعثرها من الأكل
وغيره ، من أهلها ، وغيرهم .

* أى : [و] خلق وأنشأ [من الأنعام حمولة وفرشا] أى : بعضها ،
تحمّلون عليه وتركبونه ، وبعضها ، لا تصلح للحمل والركوب عليها ، لصغرها ،
كالفصلان ونحوها ، وهى الفرش .

فهى من جهة الحمل والركوب ، تنقسم إلى هذين القسمين .
وأما من جهة الأكل ، وأنواع الانتفاع ، فإنها كلها ، تؤكل ،
وينتفع بها .

ولهذا قال : [كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان]
أى : طرقة وأعماله ، التى من جملتها ، أن تحرموا بعض ما رزقكم الله .

[وإنه لكم عدو مبين] فلا يأمركم إلا بما فيه مضرتهم وشقاؤهم الأبدى .

وهذه الأنعام التى امتن الله بها على عباده ، وجعلها كلها حلالاً طيباً ،
فصلها بأنها :

أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّانِّ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ أَثْنَيْنِ قُلْ أَلَّذَكَرِينَ حَرَّمَ
أُمَّ الْأَثْنَيْنِ أَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَثْنَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ
إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ أَثْنَيْنِ

[ثمانية أزواج من الضأن اثنين] ذكروا أتى [ومن المعز اثنين] كذلك.
فهذه أربعة ، كلها داخلة فيما أحل الله ، لا فرق بين شيء منها .
فقل لهؤلاء المتكلمين ، الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء ، أو يحرمون
بعضها على الإناث دون الذكور ، ملزمهم بعدم وجود الفرق ، بين
ما أباحوا منها ، وحرموا :

[ألذكرين] من الضأن والمعز [حرم] الله ، فلستم تقولون بذلك
وتطردونه .

[أم الأثنيين] حرم الله من الضأن والمعز ، فليس هذا قولكم ، لا تحريم
الذكور الخالص ، ولا الإناث الخالص من الصنفين .

بقي إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأتى ، أو على مجهول فقال :
[أم] تحرمون [ما اشتملت عليه أرحام الأثنيين] أي : أتى الضأن ،
وأتى المعز ، من غير فرق ، بين ذكر وأتى ، فلستم تقولون أيضاً بهذا القول .
فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة ، التي حصرت الأقسام
الممكنة في ذلك ، فإلى أي شيء تذهبون ؟ .

[نبئوني بعلم إن كنتم صادقين] في قولكم ودعواكم .
ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائفاً في العقل ، إلا واحداً
من هذه الثلاثة .

قُلْ الَّذِينَ كَرِهْتَ حَرَّمَ أَمِ الْأَنْتَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْتَيْنِ
أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

وهم لا يقولون بشيء منها . إنما يقولون : إن بعض الأنعام التي
يصطالحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم ، حرام على الإناث ، دون
الذكور ، أو محرمة في وقت من الأوقات ، أو نحو ذلك من الأقوال ،
التي يعلم عاهاً لا شك فيه ، أن مصدرها ، من الجهل المركب ، والعقول
المختلفة المنحرفة ، والآراء الفاسدة ، وأن الله ، ما أنزل — بما قالوه — من
سلطان ، ولا لهم عليه ، حجة ، ولا برهان .

ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك .

فلما بين بطلان قولهم ، وفساده ، قال لهم قولاً ، لا حيلة لهم في الخروج
من تبعته ، إلا في اتباع شرع الله .

[أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا] أي : لم يبق عليكم إلا دعوى ،
لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها .

وهي : أن تقولوا : إن الله وصانا بذلك ، وأوحى إلينا كما أوحى
إلى رسله .

بل أوحى إلينا وحيّاً مخالفاً لما دعت إليه الرسل ، ونزلت به الكتب .

وهذا افتراء لا يجمله أحد ، ولهذا قال :

[فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم] أي : مع

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾

كذبه واقترائه على الله ، قصده بذلك ، ضلال عباد الله عن سبيل الله ،
بغير بينة منه ولا برهان ، ولا عقل ولا نقل .

[إن الله لا يهدي القوم الظالمين] الذين لا إرادة لهم ، في غير الظلم
والجور ، والافتراء على الله .

* لما ذكر تعالى ذم المشركين ، على ما حرموا من الحلال ، ونسبوه
إلى الله ، وأبطل قولهم .

أمر تعالى رسوله ، أن يبين للناس ، ما حرمه الله عليهم ، ليعلموا أن
ما عدا ذلك حلال .

من نسب تحريمه إلى الله ، فهو كاذب مبطل ، لأن التحريم لا يكون ،
إلا من عند الله على لسان رسوله ، وقد قال لرسوله :

[قل لا أجد فيما أوحى إلي محرما على طاعم يطعمه] أى : محرما أكله ،
بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه .

[إلا أن يكون ميتة] والميتة : ما مات بغير ذكاة شرعية ، فإن ذلك
لا يحل .

كما قال تعالى : [حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير] .

[أو دما مسفوحاً] وهو : الدم الذى لا يخرج من الذبيحة عند ذكاتها ،
فإنه الدم الذى يضر احتباسه فى البدن ، فإذا خرج من البدن ، زال الضرر
بأكل اللحم .

أَوْ فِسْقًا أَهْلَ لِعَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ

ومفهوم هذا اللفظ ، أن الدم الذى يبق فى اللحم والعروق بعد الذبح ، أنه حلال طاهر .

[أو لحم خنزير فإنه رجس] أى : فإن هذه الأشياء الثلاثة ، رجس ، أى : خبث نجس مضر ، حرمة الله ، لطفاً بكم ، ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث .

[أو] إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله ، من الأوثان ، والآلهة التى يعبدها المشركون ، فإن هذا ، من الفسق الذى هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته .

[فمن اضطر] أى : ومع هذا ، فهذه الأشياء المحرمات ، من اضطر إليها ، أى : حملته الحاجة والضرورة إلى أكل شىء منها ، بأن لم يكن عنده شىء ، وخاف على نفسه التلف .

[غير باغ] أى : سرىد لأكلها ، من غير اضطرار .

[ولا عاد] أى : متجاوز للحد ، بأن يأكل زيادة عن حاجته .

[فإن ربك غفور رحيم] أى : فالله قد سامح من كان بهذه الحال .

واختلف العلماء رحمهم الله فى هذا الحصر المذكور ، فى هذه الآية ، مع أن ثم محرمات لم تذكر فيها ، كالسباع ، وكل ذى مخلب من الطير ونحو ذلك .

فقال بعضهم : إن هذه الآية ، نازلة قبل تحريم ما زاد ، على ما ذكر فيها .

رَبِّكَ غُفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ
وَمِنَ الْبَقَرِ وَالنَّعَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا

فلا ينافي هذا الحصر المذكور فيها ، التحريم للتأخر بعد ذلك ، لأنه لم يجده فيما أوحى إليه في ذلك الوقت .

وقال بعضهم : إن هذه الآية مشتملة على سائر الحرمات ، بعضها صريحا ، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة .

فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير ، أو الأخير منها فقط : [فإنه رجس] وصف شامل لكل محرم . فإن الحرمات كلها ، رجس ، وخبث ، وهي من أخبث الخبائث المستقدرة ، التي حرمها الله على عباده ، صيانة لهم ، وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس .

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم ، من السنة ، فإنها تفسر القرآن ، وتبين المقصود منه .

فإذا كان الله تعالى ، لم يحرم من الطعام ، إلا ما ذكر ، والتحريم لا يكون مصدره ، إلا شرع الله — دل ذلك على أن المشركين ، الذين حرموا ما رزقهم الله ، مفترون على الله ، متقولون عليه ما لم يقل .

وفي الآية احتمال قوى ، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير .

وهو : أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة ، في تحريمهم لما أحله الله ، وخوضهم بذلك ، بحسب ما سولت لهم أنفسهم ، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة .

وليس منها ، محرم إلا ما ذكر في الآية : الميتة منها ، وما أهل لغير الله به ، وما سوى ذلك ، فحلال .

أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَيْعِيهِمْ وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾

ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا ، على هذا الاحتمال ، أن بعض الجهال ،
قد يدخله في بهيمة الأنعام ، وأنه نوع من أنواع الغنم ، كما قد يتوهمه جهلة
النصارى وأشباههم ، فيمنونها ، كما يمنون المواشى ، ويستحلونها ،
ولا يفرقون بينها وبين الأنعام .

فهذا المحرم على هذه الأمة كلها ، من باب التنزيه لهم والصيانة .
وأما ما حرم على أهل الكتاب ، فبعضه طيب ، ولكنه حرم عليهم ،
عقوبة لهم ولهذا قال :

[وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر] وذلك كالإبل ، وما أشبهها .
[ومن البقر والغنم ، حرمنا عليهم] بعض أجزائها ، وهو : [شحومها] .
وليس المحرم جميع الشحوم منها ، بل شحم الإلية والثرث ، ولهذا
استثنى الشحم الحلال من ذلك فقال :
[إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا] أى : الشحم المخالط للأعضاء
[أو ما اختلط بعظم] .

(ذلك) التحريم على اليهود [جزيناهم ببيعهم] أى : طلبهم وتعديهم
في حقوق الله وحقوق عباده فحرم الله عليهم هذه الأشياء ، عقوبة لهم ،
ونكالا .

[وإنا لصادقون] فى كل ما نقول ، ونفعل ، ونحكم به .
ومن أصدق من الله حديثاً ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ
بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٤٧)

* أى : فإن كذبتك هؤلاء المشركون ، فاستمر على دعوتهم ، بالترغيب
والترهيب ، وأخبرهم بأن الله [ذورحمة واسعة] أى : عامة شاملة لجميع
الخلق كآبها .

فسارعوا إلى رحمة بأسبابها ، التي رأسها وأساسها ومادتها ، تصديق
محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به .

[ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين] أى : الذين كثر إجرامهم
وذنوبهم .

فاحذروا الجرائم الموصلة ، لبأس الله ، التي أعظمها ورأسها ، تكذيب
محمد صلى الله عليه وسلم .

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا
وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

* هذا إخبار من الله ، أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ،
ما أحل الله بالقضاء والقدر ، ويعملون مشيئة الله الشاملة لكل شيء ، من
الخير والشر ، حجة لهم في دفع اللوم عنهم .

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه ، كما قال في الآية الأخرى :

[وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء] الآية .

فأخبر تعالى أن هذه الحجة ، لم تزل الأمم المكذبة ، تدفع بها عنهم
دعوة الرسل ، ويحتجون بها ، فلم تجد فيهم شيئاً ، ولم تنفعهم ، فلم يزل هذا
دأبهم ، حتى أهلكهم الله ، وأذاقهم بأسه .

فلو كانت حجة صحيحة ، لدفعت عنهم العقاب ، ولما أحل الله بهم
المذاب ، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقته .

فعلم أنها حجة فاسدة ، وشبهة كاسدة ، من عدة أوجه :

منها : ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة ، لم تحل بهم العقوبة .

ومنها : أن الحجة ، لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان .

فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والحرص ، الذي لا يفنى من

الحق شيئاً ، فإنها باطلة ، ولهذا قال :

[قل هل عندكم عن علم فتخرجوه لنا] فلو كان لهم علم - وهم خصوم

اللاء - لأخرجوه ، فلما لم يخرجوه علم أنه ، لا علم عندهم .

حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَّا إِن تَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَتَمُّ إِلَّا تُخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ

[إن تتبعون إلا الظن وإن أتمم إلا تخرصون] ومن بنى حججه على
الحرص والظن ، فهو مبطل خاسر .

فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد ؟

ومنها : أن لله الحجة البالغة ، التي لم تبق لأحد عذراً ، التي اتفقت عليها
الأنبياء والمرسلون ، والسكتب الإلهية ، والآثار النبوية ، والعقول الصحيحة ،
والفطر المستقيمة ، والأخلاق القويمية .

فعلم بذلك ، أن كل ما خالف هذه الآية القاطعة ، باطل ، لأن نقيض
الحق ، لا يكون إلا باطلا .

ومنها : أن الله تعالى ، أعطى كل مخلوق ، قدرة ، وإرادة ، يتمكن
بها ، من فعل ما كلف به .

فما أوجب الله على أحد ، ما لا يقدر على فعله ، ولا حرم على أحد ،
ما لا يتمكن من تركه .

فلاحتجاج - بعد هذا - بالقضاء والقدر ، ظلم محض ، وعناد صرف .

ومنها : أن الله تعالى ، لم يجبر العباد على أفعالهم ، بل جعل أفعالهم ،
تبعاً لاختيارهم .

فإن شاءوا ، فعلوا ، وإن شاءوا ، كفوا .

وهذا أمر مشاهد ، لا ينكره إلا من كابر ، وأفكر المحسوسات .

فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

فإن كل أحد ، يفرق بين الحركة الاختيارية ، والحركة القسرية ، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله ، ومندرجاً تحت إرادته .

ومنها : أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر ، يتناقضون في ذلك .

فإنهم لا يمكنهم ، أن يتردوا ذلك ، بل لو أساء إليهم مسيء ، بضرب ، أو أخذ مال ، أو نحو ذلك ، واحتج بالقضاء والقدر ، لما قبلوا منه هذا الاحتجاج ، ولغضبوا من ذلك ، أشد الغضب .

فياًعباً (١) ، كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه . ولا يرضون من

أحد ، أن يحتج به ، في مقابلة مساخطهم ؟ !!

ومنها : أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ، ليس مقصوداً ، ويعلمون أنه

ليس بحجة .

وإنما المقصود منه ، دفع الحق ، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل .

فهم يدفعونه ، بكل ما يخطر ببالهم ، من الكلام المصيب عندهم ،

والمخطيء .

(١) هكذا في الأصل . لعل الصواب فياًعباً .

﴿قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا
فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٠)

* أى: قل لمن حرم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم،
الذين يشهدون أن الله حرم هذا .

فإذا قيل لهم هذا الكلام ، فهم بين أمرين :
إما : أن لا يحضروا أحداً يشهد بهذا ، فتكون دعواهم ، إذاً باطلة ،
خالية من الشهود والبرهان .

وإما : أن يحضروا أحداً ، يشهد لهم بذلك ، ولا يمكن أن يشهد
بهذا إلا كل أفاك أئيم ، غير مقبول الشهادة .

وليس هذا ، من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول ، ولهذا قال
تعالى - ناهياً نبيه ، وأتباعه عن هذه الشهادة - :

[فَإِنْ شَهِدُوا ، فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ] أى : يسوون به غيره من
الأنداد والأوثان .

فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر ، غير موحدين الله ، كانت أهواءهم ،
مناسبة لعقيدتهم ، وكانت دائرة ، بين الشرك والتكذيب بالحق .

فخرى جهوى ، هذا شأنه ، أن ينهى الله خيار خلقه ، عن اتباعه ، وعن
الشهادة مع أربابه .

وعلم حينئذ ، أن تحريمهم لما أحل الله ، صادر عن تلك الأهواء المضلة .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ

* يقول تعالى ، لنبيه صلى الله عليه وسلم : [قل] لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله .

[تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم] تحريماً عاماً ، شاملاً لكل أحد ، محتويًا على سائر المحرمات ، من المآكل ، والمشارب ، والأقوال ، والأفعال .
[أن لا تشركوا بالله شيئاً] أى : لا قليلاً ولا كثيراً .

وحقيقة الشرك بالله : أن يعبد المخلوق ، كما يعبد الله ، أو يعظم كما يعظم الله ، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية .

وإذا ترك العبد الشرك كله ، صار موحدًا ، مخلصًا لله فى جميع أحواله .
فهذا حق الله على عباده ، أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً .

ثم بدأ بآكد الحقوق بعد حقه فقال : [وبالوالدين إحساناً] من الأقوال الكريمة الحسنة ، والأفعال الجميلة المستحسنة .

فكل قول وفعل ، يحصل به منفعة للوالدين ، أو سرور لهما ، فإن ذلك ، من الإحسان ، وإذا وجد الإحسان ، انتفى العقوق .

[ولا تقتلوا أولادكم] من ذكور وإناث [من إملاق] أى : بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم ، كما كان ذلك موجوداً فى الجاهلية القاسية الظالمة .

وإذا كانوا منبهين عن قتلهم فى هذه الحال ، وهم أولادهم ، فمنهم من عن قتلهم ، لغير موجب ، أو قتل أولاد غيرهم ، من باب أولى ، وأخرى .

نَزَرُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ

[نحن نرزقكم وإياهم] أى : قد تكفلنا برزق الجميع ، فلستم الذين
ترزقون أولادكم ، بل ولا أنفسكم ، فليس عليكم منهم ضيق .

[ولا تقربوا الفواحش] وهى : الذنوب العظام المستفحشة .

[ما ظهر منها وما بطن] أى : لا تقربوا الظاهر منها ، والخبى ،
أو المتعلق منها بالظاهر ، والمتعلق بالقلب والباطن .

والنهى عن قربان الفواحش ، أبلغ من النهى عن مجرد فعلها ، فإنه
يتناول النهى عن مقدماتها ، ووسائلها الموصلة إليها .

[ولا تقتلوا النفس التى حرم الله] وهى : النفس المسلمة ، من ذكر ،
وأثى ، صغير ، وكبير ، بر ، وفاجر ، والكافرة التى قد عصمت ،
بالعهد والميثاق .

[إلا بالحق] كالزانى المحصن ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه ،
المفارق للجماعة .

[ذلكم] للذكور [وصاكم به لعلكم تعقلون] عن الله وصيته ، ثم
تحفظونها ، ثم تراعونها ، وتقومون بها .

ودلت الآية ، على أنه بحسب عقل العبد ، يكون قيامه بما أمر الله به .
[ولا تقربوا مال اليتيم] بأكل ، أو معاوضة على وجه الحباة لأنفسكم ،
أو أخذ من غير سبب .

أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ
لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ

[إلا بالتي هي أحسن] أى : إلا بالخال التي تصلح بها أموالهم ،
وينتفعون بها .

فدل هذا ، على أنه لا يجوز قربانها ، والتصرف بها ، على وجه يضر
اليتامى ، أو على وجه لا مضرة فيه ولا مصلحة .

[حتى يبلغ] اليتيم [أشده] أى : حتى يبلغ ويرشد ، ويعرف التصرف .

فإذا بلغ أشده ، أعطى ، حينئذ ، ماله ، وتصرف فيه على نظره .

وفى هذا دلالة على أن اليتيم - قبل بلوغ الأشد - محجور عليه ، وأن
وليّه ، يتصرف فى ماله بالأحظ ، وأن هذا الحجر ، ينتهى ببلوغ الأشد .

[وأوفوا الكيل والميزان بالقسط] أى : بالعدل ، والوفاء التام .

فإذا اجتهدتم فى ذلك ، فإننا [لا نكلف نفساً إلا وسعها]
أى : بقدر ما تسعه ، ولا تضيق عنه .

فمن حرص على الإيفاء ، فى الكيل ، والوزن ، ثم حصل منه تقصير ،
لم يفرط فيه ، ولم يعلمه ، فإن الله غفور رحيم .

وبهذه الآية استدلل الأصوليون ، بأن الله لا يكلف أحداً ، ما لا يطيق ،
وعلى أن من اتقى الله ، فيما أمر ، وفعل ما يمكنه من ذلك ، فلا حرج عليه
فيما سوى ذلك .

[وإذا قلتم] قولاً تحكمون به بين الناس ، وتفصلون بينهم الخطاب ،
وتتكلّمون به على المقالات والأحوال [فاعدلوا] فى قولكم ، بمراعاة الصدق

وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾
وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ

فيمن تجبون ، ومن تكروهون والإنصاف ، وعدم كتمان ما يلزم بيانه .
فإن الليل ، على من تكره بالكلام فيه ، أو في مقاتله ، من الظلم المحرم .
بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع ، فالواجب عليه ، أن يعطى
كل ذى حق حقه ، وأن يبين ما فيها ، من الحق والباطل ، ويعتبر قربها
من الحق ، وبعدها منه .
وذكر الفقهاء أن القاضى يجب عليه العدل بين الخصمين ، فى لحظة ،
ولفظة .

[وبعهد الله أوفوا] وهذا يشمل العهد الذى عاهده عليه العباد ، من
القيام بحقوقه ، والوفاء بها ، ومن العهد الذى يقع التعاهد به بين الخلق .
فالجميع ، يجب الوفاء به ، ويحرم نقضه ، والإخلال به .

[ذلکم] الأحكام المذكورة [وصاكم به لعلکم تذكرون] ما بينه
لكم من الأحكام ، وتقومون بوصية الله لكم ، حق القيام ، وتعرفون
ما فيها ، من الحكم والأحكام .

ولما بين كثيراً من الأوامر الكبار ، والشرائع المهمة ، أشار إليها ،
وإلى ما هو أعم منها فقال :

[وأن هذا صراطى مستقيماً] أى : هذه الأحكام وما أشبهها ، مما

عن سَبِيلِهِ ذَالِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴿١٥٣﴾

بينه الله في كتابه ، ووضحه لعباده ، صراط الله الموصل إليه ، وإلى دار
كرامته ، المعتدل السهل المختصر .

[فاتبعوه] لتنالوا الفوز والفلاح ، وتذكر كوا الآمال والأفراح .

[ولا تتبعوا السبل] أى : الطرق المخالفة لهذا الطريق .

[فتفرق بكم عن سبيله] أى : تضلّكم عنه وتفرقكم ، يميناً وشمالاً .

فإذا ضلّتم عن الصراط المستقيم ، فليس ثم إلا طرق توصل إلى الجحيم .

[ذلّكم وصاكم به لعلكم تتقون] ، فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم ،

علماً وعملاً ، صرتم من المتقين ، وعباد الله المفلحين .

ووجد الصراط ، وأضاف إليه ، لأنه سبيل واحد موصل إليه .

والله هو المعين للسالكين ، على سلوكه .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ
وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا

* [ثم] في هذا الموضع ، ليس المراد منها الترتيب الزماني ، فإن زمن موسى عليه السلام ، متقدم على تلاوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب ، وإنما المراد ، الترتيب الإخباري .

فأخبر أنه آتى [موسى الكتاب] وهو : التوراة [تماماً] لنعمته ، وكما لإحسانه .

[على الذى أحسن] من أمة موسى ، فإن الله أنعم على المحسنين منهم ، بنعم لا تحصى .

من جملتها وتمامها ، إنزال التوراة عليهم .

فتمت عليهم نعمة الله ، ووجب عليهم القيام بشكرها .

[وتفصيلاً لكل شيء] يحتاجون إلى تفصيله ، من الحلال ، والحرام ، والأمر ، والنهى ، والعقائد ونحوها .

[وهدى ورحمة] أى : يهديهم إلى الخير ، ويعرفهم بالشر ، فى الأصول ، والفروع .

[ورحمة] يحصل لهم بها ، السعادة والرحمة ، والخير الكثير .

[لعلمهم] بسبب إنزالنا الكتاب والبينات عليهم .

[بلقاء ربهم يؤمنون] فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة ، على البعث ، والجزاء بالأعمال ، وما يوجب لهم الإيمان ، بقاء ربهم ، والاستعداد له .

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾

[وهذا] القرآن العظيم ، والذكر الحكيم .

[كتاب أنزلناه مبارك] أى : فيه الخير الكثير ، والعلم الغزير .

وهو الذى تستمد منه سائر العلوم ، وتستخرج منه البركات .

فما من خير ، إلا وقد دعا إليه ، ورغب فيه ، وذكر الحكم والمصالح ، التى تحث عليه .

وما من شر ، إلا وقد نهى عنه ، وحذر منه ، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله ، وعواقبها الوخيمة .

[فاتبعوه] فيما يأمر به ، وينهى ، وابنوا أصول دينكم ، وفروعه عليه .

[واتقوا] الله تعالى أن تخالفوا له أمراً [لعلكم] إن اتبعتموه [ترحمون] .

فأكبر سبب لنيل رحمة الله ، اتباع هذا الكتاب ، علماً وعملاً .

[أن تقولوا] إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين] .

أى : أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك ، قطعاً لحجتكم ، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، أى : اليهود والنصارى .

(وإن كنا عن دراستهم لغافلين) أى : تقولون لم تنزل علينا كتاباً

والكتب ، التى أنزلتها على الطائفتين ، ليس لنا بها علم ولا معرفة .

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ
فَقَدْ جَاءَكُمْ يُبَيِّنُ لَكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ
بآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنَّا آيَاتِنَا سُوءَ

فانزلنا إليكم كتاباً ، لم ينزل من السماء كتاب ، أجمع ، ولا أوضح ،
ولا أمين ، منه .

[أو تقولوا : لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم] .

أى : إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم .

وإما أن تعتذروا ، بعدم كمالها وتامها ، فحصل لكم بكتابكم ، أصل
الهداية وكالها .

ولهذا قال : [فقد جاءكم بينة من ربكم] وهذا اسم جنس ، يدخل فيه
كل ما يبين الحق .

[وهدى] من الضلالة [ورحمة] أى : سعادة لكم فى دينكم ودنياكم .

فهذا يوجب لكم الاقياد لأحكامه ، والإيمان بأخباره ، وأن من لم
يرفع به رأساً ، وكذب به ، فإنه أظلم الظالمين ، ولهذا قال :

فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها [أى : أعرض
ونأى بجانبه .

[سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب] الذى يسوء صاحبه ،
ويشق عليه .

الْعَذَابَ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

[بما كانوا يصدفون] لأنفسهم ولغيرهم ، جزاء لهم ، على عملهم السيء
[وما ربك بظلام للعبيد] .

وفي هذه الآيات ، دليل على أن علم القرآن ، أجل العلوم وأبركها ،
وأوسمها ، وأنه به ، تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم ، هداية تامة ،
لا يحتاج معها إلى تخصص المتكلمين ، ولا إلى أفكار المتفلسفين ، ولا لغير
ذلك ، من علوم الأولين والآخرين .

وأن المعروف ، أنه لم ينزل جنس الكتاب ، إلا على الطائفتين ، من
اليهود والنصارى .

فهم أهل الكتاب عند الإطلاق ، لا يدخل فيهم سائر الطوائف .
لا المجوس ، ولا غيرهم .

وفيه : ما كان عليه الجاهلية ، قبل نزول القرآن ، من الجهل العظيم ،
وعدم العلم بما عند أهل الكتاب ، الذين عندهم ، مادة العلم ، وغفلتهم عن
دراسة كتبهم .

هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن إمنت من قبل أو كسبت في

* يقول تعالى : هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم .

[إلا أن يأتيهم] مقدمات العذاب ، ومقدمات الآخرة ، بأن تأتيهم [الملائكة] لقبض أرواحهم .

فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال ، لم ينفعهم الإيمان ، ولا صالح الأعمال .
[أو يأتي ربك] لفصل القضاء بين العباد ، ومجازاة المحسنين والمسيئين .

[أو يأتي بعض آيات ربك] الدالة على قرب الساعة .

[يوم يأتي بعض آيات ربك] انقارعة للعادة ، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت ، وأن القيامة قد اقتربت .

[لا ينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً] .

أى : إذا وجد بعض آيات الله ، لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن ، ولا المؤمن المتقصر أن يزداد خيره بعد ذلك .

بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك : وما كان له من الخير الموجود ، قبل أن يأتي بعض الآيات .

والحكمة في هذا ، ظاهرة ، فإنه إنما كان الإيمان ينفع ، إذا كان إيماناً بالغيب ، وكان اختياراً من العبد .

إِيْمَانًا خَيْرًا قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

فأما إذا وجدت الآيات ، صار الأمر شهادة ، ولم يبق للإيمان فائدة ، لأنه يشبه الإيمان الضروري ، كإيمان الفریق ، والحريق ، ونحوها ، ممن إذا رأى الموت ، أققع عما هو فيه ، كما قال تعالى :

[فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم ، لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده .]
وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أن المراد ببعض آيات الله ، طلوع الشمس من مغربها ، وأن الناس إذا رأوها ، آمنوا ، فلم ينفعهم إيمانهم ، ويفلق حينئذ ، باب التوبة .

ولما كان هذا وعيدا للمكذبين بالرسول صلى الله عليه وسلم ، منتظراً ، وهم ينتظرون [بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور قال [قل انتظروا إنا منتظرون] فستعلمون أينما أحق بالأمن .
وفي هذه الآية ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى ، كالأستواء ، والنزول ، والإتيان لله ، تبارك وتعالى من غير تشبيه له ، بصفات المخلوقين .

وفي الكتاب والسنة ، من هذا ، شيء كثير .
وفيه أن من جملة أشرط الساعة ، طلوع الشمس من مغربها .
وأن الله تعالى حكيم ، قد جرت عادته وسنته ، أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختياريا لا اضطراريا ، كما تقدم .
وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه .
فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو ، إذا كان مع العبد إيمان .
فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك .

﴿١٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّهَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُدَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾
مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى
إِلَّا بِمِثْلِهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴿١٦٠﴾

* يتوعد تعالى ، الذين فرقوا دينهم ، أى : شتتوه و تفرقوا فيه ، وكل أخذ لنفسه نصيبا من الأسماء ، التى لا تفيد الإنسان فى دينه شيئا ، كاليهودية والنصرانية ، والمجوسية .

أو لا يكفل بها إيمانه ، بأن يأخذ من الشريعة شيئا ، ويجعله دينه ، ويدع مثله .

أو ما هو أولى منه ، كما هو حال أهل الفرقة ، من أهل البدع والضلال والفرقين للأمة .

ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف ، وينهى عن التفرق والاختلاف فى أهل الدين ، وفى سائر مسأله الأصولية والفروعية . وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم فقال : [لست منهم فى شىء] أى لست منهم ، وليسوا منك ، لأنهم خالفوك وعاندوك .

[إنما أمرهم إلى الله] يردون إليه ، فيجازيهم بأعمالهم [ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون] .

ثم ذكر صفة الجزاء فقال : [من جاء بالحسنة] القولية والفعلية ، الظاهرة ، والباطنة ، المتماقة بحق الله ، أو حق خلقه .

[فله عشر أمثالها] هذا أقل ما يكون من التضعيف .

[ومن جاء بالسئنة ، فلا يجزى إلا مثلها] وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه ، وأنه لا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال : [وهم لا يظلمون] .

﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَيِّمًا
مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦١) قُلْ إِنْ صَلَاتِي
وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ

* يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يقول ويعلم ، بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم :

الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة ، والأعمال الصالحة ، والأمر بكل حسن ، والنهي عن كل قبيح ، الذي عليه الأنبياء والمرسلون ، خصوصاً أمام الحنفاء ، ووالد من بعث من بعد موته ، من الأنبياء ، خليل الرحمن ، إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو الدين الحنيف ، المائل عن كل دين غير مستقيم ، من أديان أهل الانحراف ، كاليهود ، والنصارى ، والمشركين .

وهذا عموم ، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال :

[قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي] أى : ذبحى ، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ، ودلالتهما على محبة الله تعالى ، وإخلاص الدين له ، والتقرب إليه بالقلب واللسان ، والجوارح ، وبالذبح الذى هو بذل ما تحبه النفس ، من المال ، لما هو أحب إليها ، وهو الله تعالى .

ومن أخلص فى صلاته ونسكه ، استلزم ذلك إخلاصه لله فى سائر أعماله وأقواله :

[وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي] أى : ما أتيت فى حياتى ، وما يجزئ الله على ، وما يقدر على فى مماتى .

الجميع [لله رب العالمين لا شريك له] فى العبادة ، كما أنه ليس له شريك فى الملك والتدبير .

وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَبْنَى رَبًّا
وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ
وِازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ

ليس هذا الإخلاص لله ، ابتداءً منى ، وبدعاً أتيته من تلقاء نفسى .
بل [وبذلك أمرت] أمراً حتماً ، لا أخرج من التبعة ، إلا بامتثاله
[وأنا أول المسلمين] من هذه الأمة .

[قل أعير الله] من المخلوقين [أبنى ربا] أى : يحسن ذلك ويليق
بى ، أن أتمد غيرى ، مريباً ومدبراً والله رب كل شىء ، فالخلق كلهم داخلون
تحت ربوبيته ، منقادون لأمره ؟ !! .

فتعين على وعلى غيرى ، أن يتخذ الله ربا ، ويرضى به ، ولا يتعلق
بأحد من الربوبين الفقراء العاجزين .

ثم رغب ورهب بذلك الجزاء فقال :

[ولا تكسب كل نفس] من خير وشر [إلا عليها] كما قال تعالى :
[من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها] .

[ولا تزر وازرة وزر أخرى] بل كل عليه وزر نفسه .

وإن كان أحد قد تسبب فى ضلال غيره ووزره ، فإنه عليه وزر التسبب
من غير أن ينقص من وزر المباشر شىء .

[ثم إلى ربكم مرجعكم] يوم القيامة [فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون]
من خير وشر ، ويجازيكم على ذلك ، أو فى الجزاء .

فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْفَ الْأَرْضِ
وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ
رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

[وهو الذى جعلكم خلف الأرض] أى : يخلف بعضكم بعضاً ،
واستخلفكم الله فى الأرض ، وسخر لكم جميع ما فيها ، وابتلاككم ، لينظر
كيف تعملون .

[وورفع بعضكم فوق بعض درجات] فى القوة والعافية ، والرزق ،
والخلق والخلق .

[ليبلوكم فيما آتاكم] فتفاوتت أعمالكم .

[إن ربك سريع العقاب] لمن عصاه وكذب بآياته .

[وإنه لغفور رحيم] لمن آمن به ، وعمل صالحاً ، وتاب من الموبقات .

آخر تفسير سورة الأنعام ، وبه تم الجزء الثانى من (تيسير الكريم
الرحمن فى تفسير كلام المنان) ، فله الحمد والثناء .

وبليه الجزء الثالث ، وأوله تفسير سورة الأعراف .

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .
وكان الفراغ من كتابته ، في يوم الجمعة ، الموافق خمسة وعشرين من
جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥ هـ . بقلم الفقير إلى ربه المنان على الحسن العلي
البريكان .

وقد نسخته من نسخة المؤلف ، غفر الله له ، وأثابه على ذلك ، الثواب
الجزيل .

وجزاه الله عنا ، وعن جميع المسلمين ، أفضل الجزاء ، في دار الجزاء .
وأدخله الله - برحمته - فسيح الجنان ، ووقانا وإياه ، عذاب النيران ،
بفضله وكرمه ، إنه قريب مجيب .

وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين - آمين ثم آمين .
يارب العالمين .

فهرس

الجزء الثاني

صفحة

٥ تفسير سورة النساء

٢٣٣ تفسير سورة المائدة

٣٧٠ تفسير سورة الأنعام